

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس

طه حسين	من القاهرة إلى بيروت	٣
محمد رفعت	بريطانيا وحوض البحر المتوسط	١٤
محمود عزمى	المعاهدات وميثاق الأمم المتحدة	٢٤
إبراهيم محمد نجما	أحلامى الضائفة (قصيدة)	٣٥
الجاحظ	رسالة لم تنشر (مقدمة لطلح الجاجرى)	٣٨
عثمان أمين	بين العلم والأخلاق	٤٥
نجيب بلدى	جان بول سارتر ومواقفه الفلسفية	٥٠
على أدهم	بين حيتى ونابليون	٦٠
محمد عبدالله عثمان	الملكة شحوة الدر	٦٩
عبد القادر السامحى	عودة الأسير	٨١
مراد كامل	إريقرىا - مشاهدات وآمال	٨٧
حسن محمود	ليلة فى قرصوفيا (قصة)	٩٦
الأب فتواوى	الكنيسة الشرقية	١٠٢
تذير الحسامى	تمرد (قصيدة)	١١٠
أندرى مالرو	خلاصة من بسكولوجية السيدنا	١١٣
أحمد فكرى	الملوك	١٢٧
شياء الدخلى	زورق فى حجب الظلام (قصيدة)	١٣٥

من هنا وهناك

(بشر فارس، صاحب الصباغ، عبد اللطيف إبراهيم، على إبراهيم الخطاوى)

شهرية العلم — شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح والسيدنا

من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثاً

فى مجالات الشرق



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مسجلة
القاهرة

الكاتب المصري

مجلة ادبية شهرية

تصدرها دار الكاتب المصري

نشرة مساهمة معوية

وتطبع بمطبعتها

رئيس التحرير

طه حسين

سكرتير التحرير

حسن محمود

إدارة الناشر المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

الاشتراك

يدفع مقدماً باسم «الكاتب المصري»

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان

١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها

مجلة الكاتب المصري تعني بكل ما يرد إليها من المقالات
والرسائل ولكنها لا تلتزم بنشرها ولا ردها

التي بمصر: ١٠ قروش

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير
طه حسين

جلد ٣



القاهرة ١٩٤٦

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب للمري

الكتاب المصري



رجب ١٣٦٥

يونيه ١٩٤٦

مجلد ٣ — عدد ٩

من القاهرة إلى بيروت

أرأيت إلى الظلمة الخالكة التي تغمر الكون ، وتطبق على الفضاء ، وتبحم على كل شيء ، ويومض مع ذلك بين طبقاتها المتراكبة المتكاثفة برق ضئيل نحيل خاطف لا يكاد يظهر حتى يستخفي ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة العميقة المتكاثفة ، التي تلج على كل شيء حتى تضطر كل شيء إلى سكون متصل طويل هو النوم ، أو شيء يشبه النوم ، وحتى تكون كل حركة فيها حلاً ، أو شيئاً يشبه الحلم ؟

أرأيت إلى هذه الظلمة العريضة البغيضة التي توشك أن تكون صورة للعدم الأبدى ، إن أمكن أن تكون للعدم الأبدى صورة ، والتي يجاهد فيها هذا البرق الخاطف ليس الأشياء والأحياء بشيء من نور ، كما يجاهد القوة الخفية في هذا العدم السرمدي لتشييع في الأشياء شيئاً من وجود ؟

تصور هذا النحو من الظلمة كما تشاء أو كما تستطيع ، وقدر أنها هي التي كانت تكتنف نفسي في اليوم الرابع والعشرين من شهر أبريل حين كنت أتهيأ للسفر . ولم أكن أعرف علة لهذه الظلمة التي كانت تكتنف نفسي وتملاً ضميري ، وتأخذ عقلي من جميع أقطاره . فلم يكرهني أحد على هذه الرحلة ، ولم يفرضها عليّ ظرف من الظروف ، وإنما أقبلت عليها عن رضا ، وأزمتها عن اختيار . وهم المتصلون بي أن يصرفوني عنها ، فلم ألق إليهم سمعاً ولا بالاً . وإنما مضيت في الاستعداد لهذه الرحلة ، لا أتردد ولا أفق عند عقبة من

العقبات ، أو مشكلة من المشكلات ، حتى إذا أصبحت أمراً واقعاً لا سبيل إلى العدول عنه أو التردد فيه ، ضاقت بها نفسي أشد الضيق ، وامتلاً لها قلبي حزناً ، وأقبلت عليها كارهاً لها أشد الكره ، مكرهاً عليها أشد الإكراه .

كان حزناً كاملاً شاملاً عميقاً ، يتخلله بين حين وحين ، شعاع ضئيل سريع ، من أمل أجده ولا أحققه . وكنت على ذلك أتيتها للسفر ، نشيطاً عظيم النشاط ، أمر وأتتهى ، وأسمع وأقول ، وأستقبل وأزور ، وأخضع في أثناء هذا كله وعلى رغم هذا كله ، لهذا الحزن العريض العميق ، ولهذا الأمل الضئيل السريع ، كأنما كانت حياتي الشاعرة حاملاً من هذه الأحلام التي تقطع راحة النوم . حتى إذا انتصفت الساعة الخامسة ، وانطلق القطار بعد هذه اللحظات الحلوة المرة ، التي يبسم فيها الوجه ويمس فيها القلب ، ويكون فيها وداع المودعين وشكر المشيعين ، أويت إلى نفسي في زاوية من زوايا « البولمان » ، أريد أن أفكر ، وأن أتمسك لهذه الظامة القائمة التي كانت تأخذ نفسي من كل وجه ، فلم أجد سبيلاً إلى التفكير ولا إلى التعليل . وهممت أن أشارك من كان معي فيما كانوا يأخذون فيه من حديث ، فلم أجد سبيلاً إلى القول ، كما لم أجد سبيلاً إلى احتمال الصمت ، فقضيت هذه الساعات القصار الطوال ، بين القاهرة والإسكندرية ، في قلق غريب ، لا أمنح نفسي ولا أمنح من حولى من العناية ، إلا أقلها وأيسرها ؛ لأنى لم أكن قادراً على تدبير إرادتى ، وتنظيم سيرتى مع نفسي ومع الناس . وكذلك دخلت الإسكندرية مع الليل ، وشاركت في بعض الحديث ، وفي الجلوس إلى المائدة ، وفي الإصابة من الطعام ، وأنفقت الليل لا أدري أكنت فيه نائماً أم يقظان ؛ فلم أفقد الشعور بنفسى لحظة ، ولم أتبين مع ذلك جليلة نفسى لحظة ، وإنما كنت شيئاً يشبه الأداة المسخرة المسيرة التي تعمل في دقة ونظام ، دون أن تحقق عملاً أو دقة أو نظاماً . وكذلك أنفقت وجه النهار من غد ، وكذلك خلصت من هذه الجماعات التي كانت تزدهم حول السفينة ازدحاماً منكرًا ، وتصطبغ اصطخاباً بشعاً . وكذلك قلت وسمعت ، ورضيت وسخطت ، وابتسمت وعبست ، دون أن أحقق من هذا كله شيئاً ، ودون أن أجد لشيء من هذا كله ذوقاً ؛ حتى إذا تأذّن صائح السفينة في المودعين أن قد آن لهم أن ينصرفوا ؛ لأن السفينة مبحرة بعد حين ، ثابت إلى نفسي كلها ، أو ثبت أنا إلى نفسي كلها ، وإذا أنا أجد ما كنت أفقد ، وأعلم ما كنت

أجهل ، وأتبين أن مصدر هذه الظامة العريضة المتكاثفة ، ومبعث هذا الحزن الثقيل الملح ، ليس إلا شيئاً واحداً ، هو أنى أفارق مصر في وقت لم تكن النفس تطيب فيه عن فراق مصر . في وقت يحتاج المصرى فيه إلى أن يشعر بوجوده الوطنى قوياً كاملاً مسيطراً على عقله وقلبه ، مديراً لعمله ونشاطه ، ملاحظاً لكل ما يقال ، ولكل ما يعمل ، ولكل ما يتناوله النشاط الفردى والاجتماعى . أليس كل شيء في مصر يفرض على المصرين في هذه الأيام ، هذه الملاحظة الدقيقة اليقظة التى لا يفوتها شيء ، أو التى تحاول ألا يفوتها شيء ؟ أليس مصيرها السياسى موضوعاً للأخذ والرد ، معرضاً لأن يقرر في وقت قريب أو بعيد إلى أجل طويل أو قصير ؟ أليس مصيرها الاجتماعى موضوعاً للخصام والجدال ، معرضاً لأن يخطو إلى أمام خطوات تقصر أو تطول ، أو لأن يرجع أدراجه أمدأ بعيداً أو قريباً ؟ أليست الحياة المصرية كلها تُمخَضُ في هذه الأيام مخضاً عنيفاً كما يخض اللبن في القربة ، دون أن يتحقق أحد النتيجة الممكنة لهذا المخض العنيف ؟ أليس طبيعياً مع هذا كله أن يقيم المصرى في مصر ، متنبهاً يقظاً ، ملاحظاً ما استطاع الملاحظة ، عاملاً ما استطاع العمل ، محاولاً ما وجد إلى المحاولة النافعة سيلاً ؟ بلى ! ولكنه السأم الذى يعيب بعض النفوس حين تضيق بما حولها من هذا السخف الذى لا ينتضى ، ومن هذا الكلام الكثير الذى لا يغنى ، ومن هذا الخصام العنيف الذى لا يجدى ، ومن هذا النشاط المختلط الذى لا يفيد ، ومن هذا المكر الخفى الذى يفسد كل شيء ، ومن هذا الإخلاص الجلى الذى لا يصلح شيئاً ، ومن هذا الكيد اليقظ الذى يستأثر بالخير ، ومن هذه الصراحة النائمة التى تورط في الشر وتعرض للأذى ، ولا تغنى عن أصحابها ولا عن الوطن شيئاً . أجل ! هو هذا السأم الذى يجده بعض النفوس من هذه الحياة المصرية التى يكرها الماكرون ، ويعجز عن إصلاحها الناصحون ، والتى يقاد فيها الشعب إلى غير ما يريد ، ويساس فيها الوطن على غير ما يجب . هو هذا السأم الذى يملأ النفوس في بعض الأحيان ضيقاً وسخفاً ، ويدفعها إلى أن تود لو تجد من هذه الحياة الثقيلة مخرجاً يتيح لها الراحة الموقوتة من هذا العناء الثقيل البغيض ، الذى يشقى به أصحابه اعظام الشقاء ، دون أن يكون شقاؤهم هذا مغنياً عنهم أو عن غيرهم شيئاً .

هو هذا السأم الذي كان يأخذ تقسى بين حين وحين ، ويدفعني إلى أن أنهي
الراحة من هذه الحياة الثقيلة الفارغة ، أتيت له الفرصة ذات يوم ، فبلغ بي
ما أراد . تمنيت في ذات يوم أن أستريح قليلا من هذه الحياة الجوفاء الممضة ،
ولم ينقض النهار حتى كنت أدعى إلى فرنسا . فشككت غير طويل ، ثم أجبت
إلى ما دعيت إليه ، ثم صمت ، ثم مضيت لا أقبل مشورة ولا أحفل بصعوبة .
حتى إذا لم يبق في القوس مترع ، ولا إلى التردد سبيل ، تمادت تقسى تذكر
الواجب ، وتذكر الحق ، وتذكر العمل ، وتأسى على ما قدمت ، وتتمنى أن
تستأنف التفكير ، وتنقض ما أبرمت . ولكن هيهات ! سبق السيف العذل ،
ولا بد مما ليس منه يد . وهذه السفينة تترك الإسكندرية موجهة إلى بيروت
لتوجه بعد ذلك إلى مارسيليا ؛ فلنصبر النفس على ما يجب أن نصبرها عليه ،
ولنحكي مع أهل السفينة حياتهم هذه الجديدة التي قد نجد فيها شيئا من سلو
وفضلا من عزاء .

ولكن حياة السفينة على ما فيها من جدّة وطرافة ، وعلى ما فيها من
اضطراب واختلاط ، لم تتج للنفس سلوا ولا عزاء ، وإن كانت قد جلت بعض
هذه الظلمة المتكاثفة ، وألقت بين تقسى وبين الحزن العريض البغيض حجابا
رفيقا ، لا أكاد أفكر فيه حتى يزول ، وإذا أنا أستحضر مصر كما تركتها :
مفاوضات تجري من وراء ستار ؛ وانتخابات تجري ظاهرها فيه الرحمة وباطنها
من قبلة العذاب ؛ وخصومات تتصل حول ما كان وحول ما هو كائن وحول
ما يمكن أن يكون وحول ما يجب أن يكون ؛ وبؤس يلح حتى يضيق بنفسه
ويبتئس بطبيعته ، وحتى يشقى الشقاء نفسه لشدة ما يعم في طبيعته ؛ ونعيم
ينتشر وينتشر حتى يضيق به أصحابه ، وحتى يلتمسوا الراحة منه ، بين حين
وحين ، بتكلف شيء من هذه الحياة الخشنة التي تريحهم بالجوع من التخمة
المتصلة ، وبالظلمة من الكظة المهلكة ، وبالشظف من اللين الذي يفسد النفوس
ويضني الأجسام . وأستحضر مصر كما يراها الطارئون عليها والزائرون لها من
الآجانب بلدا غريبا غير مألوف ، له وجهان : وجه باسم يغري ويدعو إلى الفتون ،
ووجه عابس يملأ النفوس ضيقا وسخطا وإشفاقا : رخاء يثير حسد الحاسدين
وطمع الطامعين ، وشقاء يثير الرحمة في القلوب التي لا تعرف الرحمة ، والرثاء في

النفوس التي لم تتعود الرثاء . تَرَفُّ وشغف يسعيان في طريق واحدة ، ويمشيان في شارع واحد ، ويتسمان للحياة ابتسامتين تتشابهان في ظاهر الأمر ، وتختلفان في حقيقة الأمر : إحداهما تستقبل الحياة ساخرة منها مزدريّة لها ، والأخرى تستقبل الحياة راغبة فيها متهاكّة عليها . والنيل يجري مع ذلك للناعمين والبائسين جميعاً ، لم يخلق لفريق منهم دون فريق . والشمس مع ذلك ترسل ضوءها وحرارتها للناعمين والبائسين جميعاً ، لم تؤمر بأن تؤثر بهما فريقاً دون فريق . والهواء مع ذلك يملأ الفضاء ويتنفس فيه الناعمون والبائسون جميعاً ، لم يُكَلَّفْ أن يبيع التنفس فيه لفريق دون فريق . الأرض وحدها هي التي خرجت عن هذه القاعدة ، وامتنعت على هذا النظام ، فأثرت بما تحمل من الخير فريقاً من الناس دون فريق ، ولكنها رضيت آخر الأمر أن تكون كالماء والهواء والشمس ، حرة عادلة ، مسوية بين سكانها حين يدركهم الموت : تمنح كل واحد منهم هذه الحفرة الضئيلة التي يأوى إليها ليستريح ويرى ، لا تفرّق بينهم في ذلك قليلاً ولا كثيراً . نعم ! كان أيسر شيء يكفى لأن يرفع هذا الحجاب الرقيق عن نفسي فأستحضر مصر كما هي ، وأذكر أنني راحل عنها في وقت لا ينبغي أن يرحل فيه المصريون عن وطنهم ، وإذا أنا أعود إلى تلك الظلمة العريضة المشكّكة وإلى ذلك الحزن البغيض العميق . على أنني كنت أتجنب ما استطعت رفع هذا الحجاب ، وأمعن ما استطعت في مشاركة السّفَر في حياتهم هذه الضيقة المختلطة الفارغة .

وقد كانت هذه الحياة غريبة حقّاً ، لم أعرفها من قبل على كثرة ما ترددت بي السفن بين الشرق والغرب . فجنح في أعقاب الحرب لم نصل بعد ، ولست أدرى متى نصل ، إلى الحياة اليسيرة المألوفة . ولا يكاد أحدنا يستقبل النهار أو يستقبل الليل متى خرج عن حياته التي ألفها ، حتى يرى ما يثير في نفسه العجب حيناً ، والسخط حيناً ، والرضا حيناً آخر . وقد كان أول عهدنا «بالشبوليون» في هذه الرحلة مثيراً لهذه العواطف جميعاً ، ولعواطف أخرى لا تكاد تخصي ، فضلاً عن أن يفكر كاتب في تسجيلها . فهذه السفينة التي ألفناها أنيقة مترفة ، قد فقدت كل أناقة وكل ترف ، لكثرة ما عملت في البحر والمحيط أثناء الحرب ، ولكثرة ما تعرضت له من تغيير لتصبح ملائمة لنقل الجنّد ، بعد أن كانت مقصورة أو كالمقصورة على نقل المترفين من أصحاب الثراء . قد فقدت زينتها كلها

أو أكثرها، وأصبحت سفينة كغيرها من السفن، حَسْبُهَا أن تقل المسافرين لتنتقلهم من ثغر إلى ثغر، وهي مع ذلك قد احتفظت بشيء ضئيل، ضئيل جداً، من بقايا هذه الزينة، فأصبحت أشبه شيء بالاطلال، ولكنها أطلال حية متنقلة ليست ثابتة ولا مستقرة. وكانت زينة «الشمبوليون» من الطراز المصري القديم، أليس اسمها يكفي للدلالة على ذلك! فقد ذهب كثير من هذه الزينة وقيت منها ملامح ضئيلة، وأصبح هناك ائتلاف موسيقي بين هذه الأطلال المتحركة المتنقلة بين الثغور، وهذه الأطلال الثابتة المستقرة في المعابد والقبور. كل شيء هنا وهناك يصور البلى، ويدل على عبث الزمان بالأشياء والأحياء. ويميد في الذاكرة قول الشاعر العباسي القديم:

يادارُ غَيْرِكَ الرِّسَالَى وَمَحَاكَ ياليتُ شِعْرِي ما الذى أبلاك!

ونحن نعلم أن المعابد المصرية وغيرها من الآثار قد أبلاها مر الغداة وكر العشى، وأن زينة الشمبوليون قد أبلاها تقل الجند على ما يكون بينهم من اختلاط واضطراب، وأبلتها ضرورات الحرب التي لا تحفل بالعرف ولا تحفل بالزينة، وإنما تحفل بشيء واحد هو التغلب على المضاعب والإفلات من الموت. وفي الشمبوليون كما في كثير غيرها من السفن روعة مؤثرة، تأتي من هذا التناقض الغريب بين هذه الزينة البالية المهملة التي كأنها الأطلال، وبين هذه القوة العظيمة التي تملؤها حياة ونشاطا وتمكنها من مغالبة البحر والرياح؛ لأن أدواتها متينة كل المتانة، رصينة كل الرصانة، شديدة البأس عظيمة المراس، قادرة على مغالبة الطبيعة، والثبات للعواصف والأنواء. زينة بالية تتمحى شيئاً فشيئاً، وأداة قوية تزداد بين حين وحين قوة وبأساً، والناس يضطربون بين هذين المتناقضين، يأسون لهذا الجمال الشاحب الذي يوشك أن يزول، ويُعجبون بهذه الأداة القوية التي تغالب الموج والرياح. على أن هؤلاء الناس أنفسهم يشيرون في النفس كثيراً من الخواطر المتناقضة، ففهم الغنى الذي لا يستطيع أن يحصى ثروته، وفهم المعدم الذي لا يجد ما ينفق، وفهم متوسط الحال، كما يقال. وأولئك وهؤلاء سواء حين يضطرب الموج، وحين تعصف الرياح، وحين ترقص السفينة بين اصطخاب الموج وعصف الرياح. وهم سواء كذلك في الخضوع لهذه الضرورات التي فرضتها الحرب من الاكتفاء بالقليل والخضوع للنظام والإذعان

لما لم تعودوا أن يدعوا له هذا الرجل المتوفى الذي ترحل خديده بخطر
النسيم وندى سماءه لمس الحرير مضطراً إلى أن يقع بحياة حشمة كاشطف وعلقة،
ليس له غرفة يستأجر بها، وليس له سرير يروى إليه، قد يسعده الحظ فيظفر
بمضجع رقيق يملكه في السفينة هذا وهناك، وبأوى إليه هذا حنه الليل فينام
فيه يوماً منقطعاً، مترجلاً في ليله إن سكنت السينة، مترجلاً في اضطراب
إن لعبت الأمواج بالسفينة أو عصفت بها لريح. حتى إذا أرسل الفجر سهمه
الفضي السائل تدلى من مصجعه ذلك الرقيق وصحه إليه كما يضم إليه ما يحمل من
متاع. وقد لا يتح له هذا المصجع الرقيق، وإذا هو هائم في السفينة يصعد
حيماً ويصوب حياءً يلمس لنفسه أشماراً بعد عاينها جسمه حين يجوده الأعياء.
وقد يلمس شراً أو شرين يحس فيهما، أو قل ينشع فيهما رقعاً قد عطف
أعلاه على سقاه واستسلم بقضاءه وانتظر أن يروده النوم، وحمل النوم يداعبه
مدعبة غيصة يدنو منه ليمس منه. وإذا هو كما يقول الشاعر القديم :

لا يذوق النوم إلا غرارا مثل حسو الطير ماء السماد

وليس كل الناس في السفينة قادراً على أن يصيب حاجته من الطعام؛ فقوم يتاح
لهم الجرس إلى المائدة، وقوم يسعون بآيتهم إلى حيث يلقي لهم فيها حليط من
الطعام يقيمون به الأود ويصدون به عن أنفسهم ألم الجوع. وقسمة الحظوظ بين
هؤلاء الناس لم تخرج عن نظام مقرر ولا عن قاعدة ملوكة، وإنما هي قوة غريبة
عجباء قد قسمت الحظوظ بين هؤلاء الناس كما أرادت هي لا كما أراد المنطق،
ولا كما أراد الضم، ولا كما أراد مادعوا من المال. وليس لهم خيار بعد
أن أبحرت السفينة، فهم مضطرون إلى أن يقبلوا ويدعوا. لهم أن يجهروا
بالسخط وأن يضرروه، ولكن إعلان السخط أو إضراره لا يغير من حظهم
شيئاً. وهم قد قبلوا ذلك ودعوا، وهم قد جهروا بالسخط وخافتوا به وأسروه
فيما بينهم وبين أنفسهم، ولكنهم جميعاً سمعوا وأطاعوا، ولم يخطر لواحد منهم
أن يخالف عما كان يصدر إليه من أمر.

وقد كانت الأوامر تصدر إليهم جملة وتفصيلاً، لا من طريق المنشورات التي
تعلق مكتوبة هنا وهناك كما ألفنا في أوقات السلم، ولكن من طريق الصائح العام
الذي يعمل لأوامر بواسطة مكبر الصوت، فيسمعها المسافرون جميعاً على اختلاف

مطلقاتهم ومنارهم في وقت واحد، ويأخذ كل واحد منهم بين هذه الأوامر ما يميمه، فيسمع ويطيع رضى أو سخطاً، ولكنه سامع مطيع على كل حال. وكذلك أنفق المسافرون يوماً كاملاً مضطربين في هذه الحياة المضطربة بين هذه العواطف المختلطة، إلا السفينة «ب» لم تضطرب ولم تتردد، وإلا أعمال السفينة فإنهم لم يضطربوا ولم يترددوا، وإنما مضوا بسفينتهم إلى حيث أمروا أن يمضوا لا يخفون بأحد ولا يخفون لشيء إلا بالواجب الذي ينبغي أن يؤدوه. حتى إذا بلغت السفينة «حيفا» من الغد كان المظفر الذي يبعث في النفس أملاً أي ألم وغضباً أي غضب ورثاء أي رثاء وغضباً أي بغض وحنناً أي حب أيضاً. فقد كانت السفينة تحمل لقا أو نحو لف من ضعاف اليهود المهاجرين: من الأطفال والصبية الذين لم يبلغوا الحلم، ومن النساء الأيامى، منهن من فقدت كل شيء ولم تحفظ حتى هذا الأمل الضئيل لدى رسم على لشغور هذه الابتسامة الحزينة، ومنهن من فقدت كل شيء، ولكن بين أحشائها حياة تثير في قلبها الحزن المكموم ملاً وبأساً، ورضاً وسخفاً، ولذة ولماً. وقد أقبل هؤلاء المهاجرون جميعاً يقودهم رسل من الحفء إلى فلسطين ليجدوا فيها ما بعد خوف وراحة بعد عناء. ولكن هل فلسطين لم يستشاروا ولم يستأمنوا في إيواء هؤلاء البائسين، ولكن في الأرض أوطأ كثيراً قدر على إيوائهم من فلسطين. هؤلاء الجنود البريطانيون قد ملئوا ثغر حيفا بالعذد والعذة والناس والقوة، ليحموا هبوط هؤلاء البائسين إلى هذه الأرض التي تنكره على إيوائهم إكراهاً. هؤلاء البائسون يهبطون من السفينة في نظام، ترتفع أصواتهم البائسة المتهالكة بفناء لست أدري كان يصور الفرح والمرح وانتصار الفاتحين، أم كان يصور الحزن والبؤس وانكسار المطرودين، أم كان يصور هذا كله في وقت واحد. لست أدري! ولكني أعلم أنه كان يملأ النفوس غيظاً وحنناً ورحمة ورثاء، حتى صال السفينة أنفسهم كانوا ينظرون إلى هذا كله ساخطين عليه ضيقين به مبغضين له، يجهرون بالشكوى من تحكم المتصرين الذين يسخرّون سفينة فرنسية لشيء يملأ صدور العرب حرجاً وضعيفة دون أن يستطيعوا إباءاً وامتناعاً. أليست فرنسا مضطرة إلى أن تصالح المتصرين من البريطانيين والأمريكيين لتستطيع أن تعيش! وقد انجلت هذه الغمرة آحر الأمر، ورفع هذا الحمل الثقيل عن الصدور، وأبحرت السفينة من حيفا إلى بيروت، وقد شاع فيها وفي أهلها شيء من المرح

بشمه ما يحمده الناس حين يزول عنه الكابوس أو حين تؤمنه اليقظة من حلم بعض منكر خفيف .

ولم تشرق الشمس من غد حتى كانت الحياة كلها انسواءً رائقاً رائقاً حين أقبلت السفينة على بيروت ، فإذا السماء الصافية تبسم للأرض المشرقة ، وإذا الجبل الشامخ الرصين يسم للبحر الهادي الرزين ، وإذا الأحياء المستقرون على الأرض يسمون للأحياء المقلين من البحر ، وإذا دؤلاء السفن أنفسهم قد امتلأت قلوبهم غبطة وفاست وحوهم بهجة ونشراً . أليسوا مقلين على الراحة بعد الجهد ، وعلى النعيم بعد المؤس ، وعلى الدين والخفض بعد الشدة والشغل ؟ كل شيء كان رضا ، وكل شيء كان انسواءً ، إلا هذه القلوب الخبيثة التي لا تعرف الصفو الخالص ولا النعم النقي لبريء ، وإنما تقصد كل شيء بما تدبر من كيد ، وما تصمم من شر ، وما تنظم من مكروه . فلم يكن جميع الذين هبطوا من السفينة يستقبلون حياة نقية بقلوب نقية . كان فيهم من يفكر تفكيراً بريئاً في راحة بريئة ، وكان فيهم من يفكر تفكيراً خبيثاً في راحة خبيثة كان فيهم من يبتغي حياة هادئة وادعة في لبان الهادي الوديع ، وكان فيهم من أعد للشر عدته فهو يريد أن ينتفع هنا وهناك ، يريد أن يبيع ويشترى ، يريد أن يسرق ويحتلس ، يريد أن يغير نقداً بنقد ، وأن يفيد من هذا التغيير قليلاً أو كثيراً ، يحوّل بذلك حيناً ويخاف به حيناً ويخفيه في أعماق نفسه في أكثر الأحيان . وكذلك اندفع أهل السفينة إلى الأرض ، وتلقاهم أهل بيروت ، وحرّت الأمور بين أولئك وهؤلاء كما تجري بين الناس حين يلتقون في كل مكان .

مزاح من الخير والشر ، وخليط من الطهر والائتم . والأبرياء والغافلون يرون هذا كله ولا يستطيعون له تغييراً ، بل لا يستطيعون حديثاً عنه أو خوضاً فيه ، وإنما يرون وينكرون ، ويقول بعضهم لبعض أو يقولون لأنفسهم إنما هي الحياة تجري كما تستطیع ، وإنما هي طبيعة الإنسان لا تستطيع أن تخلص للخير وحده ، ولا أن تخلص للشر وحده ، وإنما هي مضطرة إلى أن تضطرب بين هذا وذاك ، يدفعها العقل إلى الخير فتزغب فيه وقد تصيب منه ، وتدفعها الغريزة إلى الشر فتتورط فيه وقد تفرق فيه إلى الأذقان أو إلى الآذان .

وقد زرت بيروت مرات كثيرة ، ولكني لم أر أهلها يسمون للحياة في

صراحة، ويسعدونهم، في صراحة، ويستقبلونها في رضا ومن ومن، كما رأيتهم هذه المرة. ولم لا، لم يضرنا بما لم يضره كثير غيرهم من هذه الحرية السياسية، ومن هذا الاستقلال التام الذي تحلم به الشعوب المستضعفة وتحرق قلوبها شوقاً إليه؟ لم لا يستقبل اللبنانيون سفينتنا هذه مرحبين بها باسمي لها؟ ألم تلم بشغفه العظيم لتحلي الخليل عن أرض لبنان؟ ومع ذلك فقد كان ابتهاج اللبنانيين على عمقه وقوته هدناً كل الهدوء وقوراً كل الوقار متوثباً مع ذلك، يشعر بأن اقوم لا يستقلون استقلالهم على أنه لعمرة سيمت إليهم، ولا على أنه فوز كسبه بعد الجهد والجهد والعناء، ولكن على أنه المرحلة الأولى من طريق طويلة طويلة جداً، عسيرة عسيرة جداً، لأنها طريق الواجب الذي يفرض على الشعب المستقل أن يثق بنفسه وأن يعتمد عليها في احتمال لتبعات الثقل التي لا تحصى. فليس الاستقلال لعباً ولا لهواً، وليس الاستقلال منحة تهدي ولا لعمرة تتاح، وليس الاستقلال خلافاً إلى الراحة واستمتاعاً بالحياة، وإنما الاستقلال ثقة بالنفس واعتماد عليها، وبذل للجهد ونهوض بالعبء، وإقدام على العمل في غير أناة ولا تناقض ولا كل: إقدام على العمل لإسعاد البئس وإطعام الجائع وتعليم الجاهل، وإنصاف المظلوم، وإقرار العدل، وتحقيق المساواة. واللبنانيون يشعرون بهذا كله، ويقدرّون هذا كله، ويروضون أنفسهم على النهوض بهذا كله. وهم من حين ذلك لا يكتفون ولا يقاخرون، ولا يتحدثون عن الاستقلال حديث الغافل المتهاون، وإنما يتحدثون عنه حديث الرجل الذي يملأ قلبه الرضا ويملا قلبه الحزم والعزم والثقة، ويملا قلبه في الوقت نفسه الحذر والاحتياط. فهم يتحدثون إليك حديثاً فيه حلاوة لرضا، ولكن فيه مرارة الصرامة والجهد. وهم من أجل ذلك يلقون في نفسك صوراً جديدة غير التي ألفتها منهم حين كنت تزورهم قبل هذا العام.

آنست ذلك عند صفوتهم من الشيوخ والشباب، كما آنست ذلك عند عامتهم على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم، فلم أملك أن تمنيت لبسان كل ما يمتنى لنفسه، وأن تمنيت لمصر كما يتمنى لها لبسان هذا اليوم الذي تشعر فيه بالسعادة الراضية الحازمة، وبالأمل الوائق المطمئن.

وقد أشفقنا في بيروت نومين لقينا فيهما من أهل لبنان ما تعودنا أن نلقى من هذه الضيافة الحلوة المرححة الخصبية التي تشعر الضيف بأنه ليس ضيفاً، وإنما هو

رجل يعيش في وطنه وبين أهله ، لا يجد في ذلك مشقة ولا جهداً ، ذك إلى هذا
المتاع العقبى الذي يجده المصري المثقف حين يلتقي اللبنانيين المثقفين . وقد كادت
هذه الريرة تكون صفواً كليهما ، لولا أني سألت عن صديق لساني ذيب كانت له
في نفسي كما كانت له في نفوس الأدباء الشرقيين جميعاً مكانة ممتازة . سألت عنه
لأنني كنت أريد أن أسعى إليه . قلت لصاحبي : كيف حال الأستاذ هجر
فاحوري ؟ فقال في هدوء حزين : لقد دثناه أمس يا أستاذ . هالك أحد المدي
كله وجوم طويل لم تقل في أمثائه شيئاً ، وإنما قالت قلوبنا في أمثائه كل شيء .
وما عسى كما نستطيع أن نقول ، وقضاء الله قوياً ومصى وأصرم من أن
نملك أمامه شيئاً غير السكوت والإذعان ، وهذا الحزن الذي يعنى القلوب ،
ويضعف ثروة العقول . لم أقل شيئاً ولم يقل أصحابي شيئاً ، وإنما تحدث لهذا
الأديب اللبناني العظيم قبرا في ناحية من نواحي قباي ، كما اتحد اللبنانيون له
قبوراً في قلوبهم ، وكما احفروا له قبرا في مكان ما من أرض لبنان .

ط صبي

في افق السياسة العالمية

بريطانيا وحوض البحر المتوسط

لم يكن الإنجليز السكسون يوماً من الشعوب التي سكنت حوض البحر المتوسط ، وليس لهم في هذا البحر مصالح تفوق مصالح الشعوب الأوروبية أو الشرقية التي لها سواحل تلامس مياه هذا البحر ، ومع ذلك فقد حرصت بريطانيا منذ صار لها ممتلكات واسعة في الهند على أن تكون لها السيادة في هذا البحر . وليس معنى السيادة هنا أن تكون للدولة حيوش وأساطيل وقواعد ومطارات خُصب ، فقد توافر لفرنسا من هذه الوسائل في البحر المتوسط أكثر مما توافر لبريطانيا ، وكان لإيطاليا منها في بدء الحرب الأخير شيء كثير ، ولكن الدولتين لم تفيدا من ذلك فتيلاً . ذلك لأن للبحر المتوسط بوابتين رئيسيتين تحكمان غلافه ، إحداهما عند قناة السويس شرقاً ، والأخرى عند جبل طارق غرباً . وإنما تكون السيادة للدولة التي تملك مفتاحي البوابتين أو أحدهما على الأقل . ولكن بريطانيا لم تكف بالقبض على مفتاحي البوابتين ، بل أنشأت على طول طريق البحر محطات أو نقاطاً وليسية للحراسة تشرف منها على حركة الملاحة في البحر وتلوذ بها عند الحاجة . وفي امتلاك إنجلترا لـسكل من هذه المحطات دلالة على تطور خاص في سياسة بريطانيا إزاء الموقف الدولي العام . أما معقل جبل طارق فاحتلته إنجلترا سنة ١٧١٣ بمقتضى معاهدة «أترخت» التي انتهت بها حرب الوراثة الأسبانية . وكانت إنجلترا قد خشيت عاقبة انضمام قوات فرنسا وأسبانيا ضدها ، بعد أن صار فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على أسبانيا فسارعت باحتلال هذه النقطة الحصينة ، إمعاناً في إبلام عدوتها أسبانيا من جهة ، ولكي تشرف منها من جهة أخرى على طريق الملاحة إلى الشرق : طريق البحر المتوسط ، وطريق رأس الرجاء الصالح . وكانت إنجلترا في ذلك الوقت قد بدأت تنشر نفوذها في الهند ، فأنشأت شركة الهند الشرقية وبانت لملاحة بين إنجلترا وأملاكها في الشرق تتطلب الحماية والتأمين .

وأما احتلال مالطة فكان في سنة ١٨٠٠ وكان بالمليون يونانرت قد لفت بحملته على مصر أنظار الدول إلى أهمية موقع مصر الحربي والجغرافي ، وإلى عظم شأن الطريق الذي إلى الشرق . فرأت انجلترا أن تكون لها قاعدة متوسطة بين جبل طارق ومصر ، ولم يجد صعوبة في الاستيلاء على الجزيرة من يد الفرنسيين ، وكانوا قد احتلوها وهم في طريقهم إلى مصر . وقد تأيد امتلاك انجلترا لمالطة في مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ .

ولما افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٦ وتحولت إليها طرق الملاحة المهمة بين الشرق والغرب ، لم تر انجلترا بدءاً من إنشاء محطة قريبة من منطقة القناة اشرف منها على أملاك تركيا في شرق البحر المتوسط . وكانت روسيا تعمل حاهدة في ذلك الوقت على إضعاف تركيا وطردها من أوربا ، فانبرت انجلترا للذود عنها في مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وكان نصيب انجلترا في مقابل ذلك أن تزل لها تركيا عن جزيرة قبرص .

ثم وقعت الأزمة المالية في مصر في أواخر عهد الخديوي إسماعيل ، وقامت الثورة العراقية ، فدخلت انجلترا في شؤون مصر المالية أولاً ، واشترت نصيب مصر في أسهم قناة السويس ، ثم ما لبثت أن انفردت باحتلال البلاد سنة ١٨٨٢ وظلت من يومئذ تسيطر على القناة .

ولما سهرت في عقاب الحرب العالمية الأولى بوادر الوعي القومي في شعوب الشرق الاوسط العربي ، رأت انجلترا أن تحتفظ بفلسطين وشرق الأردن باسم الانتداب ، لتقوى مركزها في الدفاع عن القناة من جهة ، ولترقب من جهة أخرى حركة التقدم العربي عن كثب .

والسياسة التقليدية التي سارت عليها انجلترا فيما يخص حوض البحر المتوسط أن تحول دون قيام دولة بحرية قوية تهض النفوذ البريطاني في ذلك البحر . وعلى هذا الأساس ظلت انجلترا طوال القرن التاسع عشر تعرقل مساعي روسيا في التسلط على المضائق والتسرب منها إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط . ولم تفر عزيمته انجلترا وتسترخ قواها إلا في إبان الحرب العالمية الأولى حين راد الحلفاء أن يضمّنوا بقاء روسيا إلى جانبهم ، ففتتها انجلترا وفرنسا بالفلسطينية والمضائق إذا ما انتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وحلفائها ، وكان ذلك بمقتضى

معاهدة سرية عقدت في لندن بين الدول الثلاث سنة ١٩١٥ . وقد جاءت الثورة البلشفية بعد ذلك ففتحت فيها تحت هذه المعاهدة وكل أثر للسياسة القيصرية العتيقة .

وعلى هذا الأساس أيضاً حالت إنجلترا دون تسلط فرنسا على الجزء الشمالى الغربى من مراکش ، حتى لا يتعرض مركزها في جبل طارق لآى خطر ، وفصلت أن تكون أسبانيا الدولة الضعيفة نسبياً هي صاحبة النفوذ في تلك المنطقة التي تواجه جبل طارق ، وفيها ثغران خطيران ، هاسبنة وطليجة . وقد أقبلت إنجلترا في جعل طليجة ميناء دوائياً محايداً لا يجوز تحصينه أو تسليحه . وتطبيقاً لهذه السياسة أيضاً كانت وقعة إنجلترا في الماحى إلى جانب تركيا ضد محمد علي الكبير حين آلت منه رغبة في محالفة فرنسا ، وكن لمحمد على من القوة البحرية ما يجعله عاملاً خطيراً في تهديد مركز بريطانيا في البحر المتوسط لو انضم إلى فرنسا . واقتضت هذه سياسة أيضاً أن تعمل إنجلترا قدر طاقتها على إضعاف النفوذ لفرنسى في مصر والقناة ، حتى لا يفلت من يدها مفتاح لبوابة الكبرى التي اصطنتها الهندسة الفرنسية وتحكمت بها في الملاحة بين المحيطين الاطلنطى والهندي . وما فتئت إنجلترا تعمل والظروف تتأزرها حتى أبعدت فرنسا عن الميدان ، وما لبثت هذه أن ارتسخت مع إنجلترا في سنة ١٩٠٤ بالاتفاق الودى الشهير ولو أن اتفاقاً مثل هذا كان قد تم في القرن التاسع عشر بين فرنسا وروسيا بدلاً من إنجلترا لتعرضت سيادة إنجلترا في البحر المتوسط لأعظم خطر .

وكانت هذه السياسة التقليدية التي اتبعتها إنجلترا في حوض البحر المتوسط إنجيلاً آمنت به جميع الحكومات الانجليزية التي تعقبت على الحكم على اختلاف آراء رجالها ومذاهبهم السياسية . ففي عهد حكومة « الهوخ » أو الأحرار القدماء أيام الوزير بالمستون استولت إنجلترا على ميناء عدن وعلى جزيرة يريم ، وكلاهما تتحكمان في مدخل البحر الأحمر من ناحية المحيط الهندي ، وما البحر الأحمر في حقيقة الأمر بعد شق قناة ، إلا امتداد للبحر المتوسط . وفي عهد حكومة المحافظين أيام الوزير دزرائيلى (بيكنسفيلد) احتلت إنجلترا جزيرة قبرص . وفي عهد وزارة الأحرار برئاسة غلادستون احتل الانجليز مصر ، وأخذ المصريون يجنون عن السودان تمهيداً لإعادة فتحه بأيدي المصريين والانجليز معاً .

وظلت إنجلترا معززة مركزها في البحر المتوسط ، لا يؤثر فيها شيء فاشي ولا تقص . متحججه كايوس تاري حتى وشك بحر القرن العشرين أن يدمج ، وعمدته احتج الخطر الروسي الذي كان وحده الشغل الشغل لسياسة الانجليزية . فقد انهرمت روسيا أمام اليار برا وبحرا ، في سنة ١٩٠٥ وانعقدت المحالفة لروسية الانجليزية سنة ١٩٠٧ وبدأت ألمانيا سحدي إنجلترا وحل محل روسيا في مدهصام ، للسيدة البريطانية . وحاول الإمبراطور وليم الثاني أن يمكن لألمانيا في جزء من مرا كش أسوة بفرنسا أو إيطاليا التي كانت تنصب شاكها وقتئذ لاحتلال طرابلس ، ولكن السياسة البريطانية كانت وقفة بالمرصاد ، حطمت مساعي ألمانيا ولم تعد شيئاً من ريادة الإمبراطور ليمياء طمحه عام ١٩٠٥ ، ولا من إرسالها يحدى سفنها الحربية أمام ميناء أغادر سنة ١٩١١ . وكادت الحرب تشت في هاتين الأرميتين بين ألمانيا وفرنسا لو لم تسارع إنجلترا إلى تحدة فرنسا وإعلان عزمها صريحاً على مع ألمانيا من التزول بقوتها في أي جزء من أرض إفريقيا الشمالية . ولما أخفقت سياسة ألمانيا في البحر المتوسط اتجهت نحو الشرق وركزت جهودها في إحاز مشروع الزحف إلى الشرق من برلين إلى بغداد ومنها إلى الخليج الفارسي ، وكادت ألمانيا تصل إلى مستغها لو لم تشت الحرب العالمية الأولى

ولما قامت الحرب العالمية الأولى لم يكن يهدد مركز بريطانيا في البحر المتوسط سوى خطر سلاح لغوصات الألمانية . وكان خطراً داهماً حقاً فاجأت به ألمانيا العالم لا في لبحر المتوسط وحده بل في المحيط الاطلنطي أيضاً ، وحيثما وجدت الغواصات مسالك لها في عرض البحار والمحيطات وقد اضطرت الحائرا أمام هذا الخطر أن يحول ملاحتها من البحر المتوسط والقناة إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وأن تشدد المكبر على ألمانيا وحلفائها بما فرضته من الحصر البحري على موازنها .

وكان خطر سلاح لغواصات من جانب ألمانيا وتنفيذ ممد الحصر البحري من جانب بريطانيا على البحارين والمحيطين جميعاً من أهم المسائل التي استرعت اهتمام ولسون رئيس الولايات المتحدة ، لما كادت تشتأ النصر تروح في جانب الحلفاء على أثر الضمام أمريكا إلى صفوفهم حتى أعلن على رؤوس الملاء مبادئة

الأربعة عشر الشهيرة . وكان ثم أعدته في المقصود الثلاثة أن حرية الملاحة مكفولة للجميع في الحرب وفي السلم إلا إذا كان الحصر البحري نتيجة فرار من هيئة دولية لتنفيذ ميثاق دولي .

ومع أن هذا المبدأ لم يواجه أي قيد أو علة من حيث الحقائق عند ما كانت ربح الحرب تدور ، فإن شروط الصلح قد عصته في بشرائه شيء ، وذلك لتسلك إنجلترا بذلك الحق الذي تستمد من تفوقها البحري الذي يتيح لها في زمن الحرب فرصة متسابقة أعدائها لعدم وصول المؤن والدعائم أي رد إليهم من حلفائهم أو من الدول المحايدة .

ولما كانت إنجلترا حريصة على التسلك بهذا الحق ، لاعتمادها - ككل في موارد غذائها على واردات مستعمريها و"ملاذ الأحمية" ولاسفرارها في مقابل ذلك إلى تصدير مصوغاتها إلى الخارج ، ولأن الأسطول هو الوسيلة الوحيدة لربط شتات أجزاء إمبراطوريتها الواسعة - فإن الدول المجمعة في مؤتمر السلم لم تحدد مسوغاً للإثارة الخلاف بين بعضها وبعض استلزام حرية البحار لا سيما أن تقرير مبدأ حرية البحر لا يهمل الدول إلا في أثناء الحرب ؛ وعلى ذلك وضعت معاهدة قرساي وليس فيها قيد يحد من سيادة بريطانيا البحرية لا في البحر المتوسط ولا في غيره من البحار .

وخرجت إنجلترا من الحرب العالمية الأولى وقد ردت مسؤوليتها في البحر المتوسط زيادة كلفتها دماً غالياً وبعثات ثائرة في سبيل صيانة ولدود عنه ؛ فقد حملت على عاتقها مهمة لاندب حتى فلسطين رغم اعتقاد شؤونه بسبب مشكلة الوطن القومي لليهود ، وجعلت من ميساء حيفا وضرائب مهابين لأمانيت لتتول الذي تنحج العراق من بحر الموصل وكر كوك - الأولى لإمداد السفن الانجليزية ، والثانية لإمداد السفن العربية ، وكان هذا أهم ما فده إنجلترا من انتدابها في المشرق .

مافما عدا ذلك فلم تحن إنجلترا من فلسطين سوى الحوادث الدامية والثورات المتعاقبة وقيام مشكلة قومية بعد من عقد وأشد ما واجهه لعالم من مشكلات الشرق الأوسط . ونوقد بر الحلفاء بعودهم للعرب في أثناء الحرب العالمية الأولى وقاموا اتحاداً عربياً مستقلاً يجمع بين فلسطين وغيرها من الدول العربية المحاورة ، لما تفاقم خطر مشكلة الصهيويين إلى الحد الذي نراه الآن ؛ لأن

اليهود الذين عاشوا في العرب حبراً وأصداء قروا حوية كانوا يستضيفون
يتفاهموا مع العرب رأساً في شروط إقامتهم دون حاجة إلى حشرهم حشراً في ذلك
الإقدام السبق المحدث من الأرض ، حتى صحت فلسفين ضعف وأخطر حلقه في
مجموعة دول الشرق الأوسط .

وكانت الحال كذلك في حوض البحر المتوسط حتى كفهز حو السياسة
الدولية سنة ١٩٣٥ وقامت إيطاليا الفاشية تتحدى بريطانيا وعصبة الأمم
مهاجمها على إثيوبيا ، وباتت الحرب متوقعة بين إيطاليا وبريطانيا . ولكن
موسليني كان على يقين من بريطانيا وحدها لن تستطيع التعرض لإثارة حرب
أوربية لم تتحد لها عدتها ، وبأن الرأي العام البريطاني الخاضع إلى السلم لا يرضى
أن يخوض عمار حرب ضاحكة من أجل سبب ثانوي في همينه كالحبشة .
وعلى ذلك مضى موسليني في مشروعه غير مكترث بتوقيع العقوبات
الاقتصادية ولا بالتهديدات الحوكة التي كانت تتناقلها الصحف إذ ذلك ، كجشد
الأسطول الإبحاري في ميناء الإسكندرية ، وإمكان إغلاق القناة في وجه إيطاليا .
وقد اضطرت بريطانيا وسائر الدول في النهاية إلى الاعتراف بالأمر الواقع وقيام
الإمبراطورية الإيطالية في الحبشة .

ولكن الأزمة الحبشية قد فتحت عيون الإنجليز على أهوايه التي تردت
فيها سياسة التأمير احمى اتى اتدعها عصبة الأمم ، ودركوا أنه لا سبيل إلى
تفادي الحرب المتوقعة حتماً إلا بالاستعداد لها ؛ فقد كشفت لأزمة الغطاء عن
ضعف بريطانيا وعظم استعداد إيطاليا وخاصة في الجو والبحر ؛ إذ تصاعف عدد
غواصاتها إلى أربعة أمثاله ، كما تصاعفت عدد مدافعها ، هذا فضلاً عن السفن
الحربية الصغيرة الخفيفة التي أنشأها إيطاليا بكثرة خصيصاً للعمل في المحار
الضيقة ، وفصلاً عن تحصينها جزيرة بينتلاريا بن مالطة وصقلية وساحل تونس .
وردت الحال حرجاً في البحر المتوسط عند ما قامت الحرب الأهلية في
سبانيا بين الواسمين المؤيدين لإيطاليا وألمانيا ، وجمهوريين تشد أروحه فرنسا
وروسيا ، وكان البحر المتوسط مسرحاً لعبت فيه القوى المحاربة دوراً هاماً ،
فاستطاعت إيطاليا أن تحتل جزيرتي ميورقا وإيبرة من حرر المليار التابعة
لإسبانيا . وقبل في ذلك الوقت أنها تعمر الاحتفاظ بميورقة حتى تقطع على فرنسا

خط مواصلاتها مع أملاكها في إفريقيا الشمالية . وكذلك احتلت ألمانيا ميناء
فروول في شمالي إسبانيا الغربي ، وحصنت ميناء سبته على ساحل مراكش
الاسبانية في مواجهة جبل طارق .

وعلى ذلك لم يبق شك في أن توازن القوى في البحر المتوسط قبل الحرب
الاحيرة قد اختل ، وأن سيادة بريطانيا في هذا البحر وعلى الأقل في القسم
الغربي منه قد أصبحت مهددة بعظم الأخطار . ولم يعد شك في أنه إذا قامت
الحرب ، فإن فرنسا ستشغل بعصيرها في أوروبا وترك بريطانيا وحدها بصطلة بمهمة
الدفع عن مركزها في البحر شرقا وغربا . وهبها للاستولاء البريطاني وحده
أن يبدل من قوى المحور محتمة في بحر صيق كالمحور المتوسط .

وفعلما ما كادت تبدل نيران الحرب وتمضم إيطاليا إلى حليفها ألمانيا بعد
كارتة فرنسا حتى أصبح حوض البحر المتوسط في عزلة شبه تامة وخاصة في
قسمه الغربي ، واضطرت بريطانيا أن تحول خطوط ملاحيتها حول رأس الرجاء
الصالح ، واستمرت كذلك حتى خرجت إيطاليا من نطاق المحور في صيف
سنة ١٩٤٣ ولقد كان لانهزام فرنسا ، وقيام حكومتها فيشي بالانفاق مع ألمانيا أثر
كبير في ضياع النفوذ البريطاني في حوض البحر المتوسط ، إذ خسرت بريطانيا
استول حليفها القديمة فرنسا وأصبح الطريق إلى مصر واليونان ممهدا أمام
إيطاليا . وما لبثت ألمانيا أن انقضت على لندن فاكستحت مامها يوغوسلافيا
واليونان ، ثم هاجم جودها كريد من الجو واستولوا عليها فجدة بفضل تفوقهم
في الطيران ، وباءت بريطانيا بخسائر فادحة رغم انتصارها البحري الموقت على
الاستول الايطالي في موقعي تارنتو وماتبان .

واستغل الألمان تفوقهم الطاهر في البحر المتوسط ونزلوا على سواحل ليبيا
مطاراتهم ودباباتهم وحيوشهم وعتادهم ، وزحفوا شرقا مطاردين أمامهم القوات
الانجليزية . وكانت آلهة النصر في ذلك الوقت تؤثر الألمان وتفرق فوق
رءوسهم وتقودهم من فتح إلى آخر حتى وقف هتير وسط هالة من التجدد يفاضل
بين خطتين كمتاهة تدفعه إلى عرش السيادة العالمية ، إذ كان عليه أن يختار بين
اختراق تركيا إلى آسيا ، ومهاجمة روسيا من الغرب .

وشاءت الأقدار التي لا تغلب أن يختار روسيا — تلك التي دلت نابليون من قبل ،
ومر في ٢٢ يونيو سنة ١٩٤١ أن تضرب روسيا على جهة يبلغ طولها ألف ميل .

ثم تم عقد ذلك إلا شهر حتى دحات مركا الحرب ودارت معركة
العمين ، وكاتب الحدا الفاصل بين الهراء والمصر ، فبرلت جيوش الخلفاء جثة على
سواحل إفريقيا الشمالية من كاسا بلانكا ورباط على الأطلسي ومن وهران
والجرائز على البحر المتوسط ، وضاعفت مركا و تاجر سماتها في إنتاج
الطائرات و لانات وفي مكاشة الغوصات حتى في ساحول ما كات تستطيعه
ألمانيا وأتباعها ، وكانت الحرب قد سلخت قرابة أربعة أعوام .

ثم حارب فترة حشى معب الحدا ، أن اتبع ألمانيا بدها على الأسطول الفرنسي
لراض أمام ميناء تولون في البحر المتوسط . وخلة انقلب أمير البحر الفرنسي
دارلان على حكومة فيشي فمريض الأسطول إلى حاب الحدا ، وأمكن الصباط
المواصل ترددوا بين سياستين كسبه شر ، و تروا موت على العر والاستسلام ،
وأغرقوا الأسطول .

وبذلك استطاع الحدا ، أن يوالوا استماراتهم على طول ساحل إفريقيا
الشمالية ، فكان يزور الأمريكى القائد الألى لجيوش الحدا ، يقف من مرا كس
شرقا وألكسندر ومو متحمري يطوين في في طرابلس غربا ، حتى قسوا في انهاء
على قوات المحور عند تونس و سرت ، وأصبح الوثوب إلى جزيرتي ية تاريا
وصقلية ومنها إلى إيطاليا حقيقته متوقعة ، وقد كان منذ شهر قليلة حاما
لا يصدقه الميان .

وقد كشفت الحرب الأخيرة عن أمرين على حاب عظيم من الأهمية : ولهما أن
الجزر في البحر المتوسط معقل وحصون لا تغلب ، وأن حصنها أمر مخوف
بأشد الأحظار وبلغ منتهى الصعوبة ، فقد ثبتت جزيرة مالقة أمام هجمات
الأعداء المتوالية ، كما ثبتت الألمان في جزيرة كريد ، والطليان والألمان في جزر
الدوديكانيز ، ولم يستطع أحد الحائين بلوغ مأربه حول هذه القلاع الرواسى .
أما الأمر الثانى فاستخدام الطائرات لتكامل عمل الغوصات ، فقد ظهر أن تنسيق
الجمع بين السلاحين في بحر ضيق المسالك كثير الخللان كالبحر المتوسط لا بد
أن يتيح لصاحبه تفوقا ظاهرا بذت آثاره حلية في أثناء الحرب . وكان تفوق
انجلترا في شرق البحر المتوسط من أهم العوامل التى ساعدت الحلفاء على
الاحتفاظ بسواحل بلاد الشرق وإحباط مساعى الألمان في آسيا .

من ذلك كله يتضح أن القول بأن البحر المتوسط مع قياة السويس هو بمنزلة

اشتهر بأن للإمبراطورية البريطانية وصف مبالغ فيه كثيراً؛ فالشريان إذا انقطع أو بتر العدمت الحياة. وقد برهنت الحرائق العالميتان المصيتتان على استطاعة الإمبراطورية البريطانية أن تعيش وتقوى رغم استغنائها عن استعمال هذا شريان مدة مئة في الحرب الأخيرة أكثر من أربع سنوات. ذلك لأن هناك طرق أخرى تروى التحللاً بملاكمها وحلفائها وأهمهم طريق رأس الرجاء الصالح، وهو لا يستغرق من الوقت الآن أكثر مما كان يستغرقه طريق البحر المتوسط في بدء افتتاح القناة.

وتلخص لصعب إلى تواجدها بريطانيا في حوض البحر المتوسط، علما ما ذكرنا، في أن أسباباً لم تنس حل طارق، وأنه رغم مرور أكثر من قرنين ونصف قرن على حلال المجترة لهذه القلعة الحصينة، فإن الشعور الوطني في بريطانيا لا يستسيح الاحتلال الأجبي لجزء من أرض الوطن. ولا بد أن تظهر آثار هذا الشعور يوماً ما.

أما قناة السويس فإن عقد الشركة سينتهي في سنة ١٩٦٨ وحينئذ تصبح القناة ملكاً لمصر صاحبة الفضل وسيدة الأرض التي حفرت فيها. ومع أن القناة طريق بحري حر لجميع لدول في السلم وفي الحرب، فلا بد من تقرير هذه القاعدة في معاهدات الصالح التي ستتم قريباً حتى يرول أثر المعاهدة المصرية الانجليزية المتعقبة سنة ١٩٣٦ والتي انفردت فيها بريطانيا بمجرده الدخول عن القناة إلى جانب مصر. على أنهم مع ذلك رعمون أن بريطانيا تفكر في حفر قناة أخرى تصل بين العقبة في شرق الأردن وغزة في فلسطين، حتى لا تتعرض مصالحها للخطر متى آلت القناة لمصر. وإنا نستبعد مكان تحقيق هذا الرعم، لا لصحامة المشروع وطول القناة وعظم نفقاته من غير مسوغ، بل لأن الحلفاء مقيدون بتنفيذ المادة السابعة من ميثاق الأطسلى التي تقول إن الصلح كقيل أن يمكن لناس جميعاً أن يجتاروا البحار والمحيطات بدون عائق. ومعنى هذا أن نكون المصايق والمسالك المائية جميعاً تحت رقابة مجلس الأمن، فلا يعتد أن تحفر قناة عالمية جديدة لتكون تحت سيطرة دولة بعينها. على أن مصر ستكون متى آلت إليها القناة حارسة لها توصية من مجلس الأمن وبرصاء بريطانيا وسائر أعضاء هيئة الأمم المتحدة.

وايس في . انه لآ ثر لحرکه الى کانت ترمى الى لانضمام الى ايطاليا .
وما في حريرة قبرص ولسکان موالون للإتحیز ، ولكن الکثرة اعظمی منهم
بود الانضمام الى اليونان منهم الکبرى . وکذلك الشأن في رودس وجزر
الدوديکانير التي ٥٠٠ تابعة لایطاليا ، ففيها أقلياب من الأراک ، ومعظم السکان
يونانيون جنساً ولغة وديناً .

والکبر يبدو أن روسيا منذ احتل المورن السماسي في حوض بحر
المتوسط بخروج اقليد من مضار التمس البحرى ، قد بدأت تحاول تصحيح
الميزن وبصالح لنفسها ، فلو عد في البحر المتوسط ، فقد صاقت روسيا ذراعها
تحمدهميه نجر المحزنة في معظم شهور السنة ، ويريد أن يكون لها منفذ
في البحر المتوسط وقو عند في بحيف ثخاء باسمها ، واسم حليقاتها . فإذا تشبثت
وکیا بفتح المواية الجانية عند الدردیل وصمم الحلقاء على قضاء روسيا عن
لوماية في ليبيا و رودس و حرر الدوديکانير ، فأکبر الطن أن روسيا ومعها
مربکا والدول الصغرى لن تهد لها ثائرة حتى ترى مفاتيح بوابات هذا البحر
قد حطمت ، ومساعدتها قد أصبحت محايدة وحررة لجميع في السلم وفي الحرب .

محمد رفعت

المعاهدات وميثاق الأمم المتحدة

ميثاق الأمم المتحدة هو الدستور المحدد لعلاقات لدوله الذي صدر بمدينة سان فرانسيسكو في اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو لسنة ١٩٤٥ بتوقيع مندوبي إحدى وخمسين دولة بعد مناقشة دامت ثلاثة أشهر لمقترحات ديمبارتون أوكس التي كان قد أعدها مشاور الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي وأصبح خلال مباحثات حرب قرب مدينته واشنطن بين الحدى والعشرين من أغسطس والسابع من أكتوبر لسنة ١٩٤٤ .

وهو مكون من مئة وإحدى عشره مادة ، ورغب في تسعة عشر فصلا تتقدمها ديباجة . وقد تضمنت الديباجة تقرير إنشاء هيئة دولية تسمى الأمم المتحدة " كما تضمنت عهوداً قضائية الموقنون عن شعوب هذه الأمم " في أنفسهم إقداً للأحبال المعلقة من ويلات الحرب ، وتوكيداً للإيمان بالحقوق الأساسية للإنسان وكرامة الفرد وذاكره وبما لرجال والنساء والأمم كبرها وصغيرها من حقوق متساوية ، ودفعاً بالرقى الاجتماعى فديماً ، ورفعاً لمسوى الحياة في حوز من الحرية ففسح ، ونخذاً للأففس بالتساوى والعيش معافى سلام وحس جوار ، وصفاً لقوى في سبيل الاحتفظ بالسلم والأمن الدولى ، وكفلاً لعدم استخدام القوة المسلحة في غير المصلحه لمشاركة ، وتوحيد الجهود في سبيل ذلك جميعاً . وعالجت الفصول مقاصد الهيئة ومبادئها ، وعقودها ، وفروعها ، وجميعها العامة ، ومجلس الأمن ، وحل المنازعات حلا سميئاً ، وما يتحد من الأعمال في حالات تهديد السلم والاحتلال به ووقوع العدوان ، والتسلمات الإقليمية ، والتعاون الدولى لاقتصادى والاجتماعى ، والمأس الاقتصادية والاجتماعى ، والأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتى ، ونظام الوصاية الدولى ، ومجلس الوصاية ، وبحكمة العدل الدولية ، والأمانة العامة ، وأحكام متنوعة ، وتدابير حفظ الأمن فترة الانتقال ، وتعديل الميثاق ، وتوقيعه والتصديق عليه .

وينطوي الميثاق في عمومته على فكرة التصامن العالمي في سبيل إقرار الصمائية والطرد المتقدم عن طريق التزامات رتبط بها أعضاء الهيئة الدولية الجديدة. وقد تم نقاش في لجنة المشا كل القانونة مؤتمراً سان فرانسيسكو حول الاسم الذي يطلق على. لأدوات التي تحدد تلك الالتزامات، وإن كان الأمر قد أصابها عن طريق غير مباشر؛ لأن النقاش كان قد دار لمدة تسجيل المعاهدات وأشرها، وكان قد دار حول تحديد المعاهدات التي يجب تسجيلها. وأشار البعض إلى وجوب قصر التسجيل على المعاهدات السياسية. وأخذ على ذلك أن كثيراً من المعاهدات التي تدور في مآثرها اقتصادية محضة تنطوي على أغراض سياسية. و انتهى رأي اللجنة إلى الامتثال في وصف المعاهدات، وفصلت اللجنة عبارة «المعاهدات والالتزامات الدولية». وهذا الشمول في التعبير هو الذي سنأخذ به نحن أيضاً في هذا البحث.

واقدر ورد ذكر المعاهدات والاتفاقات في أكثر من مادة من مواد الميثاق، وفي أكثر من فصل من فصوله؛ لأنه نظر إليها من عدة نواح؛ فلاحت فيه متنوعة. وصححت دراستها بالنسبة لأحكامه محل تسويق وبوب وثرائه تكون طريقة عرضي لهما هي طريقة التمييز بالموضوع.

ولواقع أن ميثاق الأمم المتحدة قد ميز بين المعاهدات والاتفاقات الدولية من حيث مواضعها وورعها على ستة أنواع: — الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية، والاتفاقات الخاصة بأعمال زاء الدول المصدية، واتفاقات الوصاية، واتفاقات حفظ السلم والأمن الدولي، واتفاقات التفضيلات الإقليمية ومعاهدات الدفاع عن النفس.

أما لاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية، وهي التي يضعها المجلس الاقتصادي والاجتماعي مع التوكيلات التي تدعو هيئة الأمم المتحدة ذاتها إلى إجراء مفاوضات بين الحكومات التي تصطلع بمقتضى نظمها الأساسية تمتعات دولية واسعة في الاقتصاد والاحتماع والثقافة والتعليم والصحة وما يتصل بذلك من الشؤون قصد إنشاء تهيئة شروط الاستقرار والرفاهية الضرورية لقيام علاقات سلمية ودية بين الأمم تقوم على احترام المبدأ الذي يقضى للشعوب بحقوق متساوية ويجعل لها تقرير مصيرها، وذلك بتحقيق مستوى أعلى للعيشة، وتوفير أسباب الاستخدام المنصل لكل فرد، والمهوض لعوامل التطور والتقدم الاقتصادي

والاجتماعي . وتيسير الحلول للمشاكل الدائمة الاقتصادية والاجتماعية والصحية وما يتصل بها ، وتعزيز التعاون الدولي في شؤون الثقافة والتعليم ، وبشر احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع ، لا تميز بسب الجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الرجال والنساء ومراعاة تلك الحقوق والحريات فعلا .

وقد قضت المادة السادسة والخمسون من الميثاق بتعهد جميع الأعضاء بأن يحذرو ما يجب عليهم من عمل مفرد أو مشترك بالغ من مع هيئة الأمم المتحدة لإدراك المقاصد التي تعقد تلك الاتفاقات الاقتصادية والاجتماعية لأجل العمل في سبيل تحقيقها ، كما نصت المادة الستون على أن مسؤولية تحقيق هذه المقاصد إنما تقع على عاتق الجمعية العامة كما تقع على عاتق المجلس الاقتصادي والاجتماعي في ظل سلطان هذه الجمعية العامة بمقتضى أحكام وارده في الفصل العاشر من فصول الميثاق .

وما لاتفاقات الخاصة بعملاء الدول المعادية وهي تلك التي تقرر إجراء أو تدابير تتخذ ضد دولة كانت في الحرب العالمية الثانية من أعداء دولة موقعة على الميثاق . والواقع أن أحكام الميثاق قد طمعت هذه التدابير من القيود الخطرية ، فصوتت المادة السابعة بعد المئة على أنه ليس في الميثاق ما يبطل أو يمنع أي عمل إزاء دولة كانت في أثناء الحرب العالمية الثانية معادية لإحدى الدول الموقعة على هذا الميثاق إذا كان هذا العمل قد اتخذ أو رجح به نتيجة لتلك الحرب من قبل الحكومات لمسئولة عن هذا العمل ، كما استثنت المادة الثالثة والخمسون من عدم جوار قيام المنظمات الإقليمية بعمل القسر بدون إذن مجلس الأمن « التدابير التي تتخذ ضد دولة من دول الأعداء » والتدبير التي تكون في المنظمات الإقليمية قد قصد بها مع سياسة أعدون من جانب دولة من تلك الدول » ، وإن كان هذا الاستثناء قد قيد باعتباره موقوت ، إذ نصت المادة تقول : « وذلك حتى يحين الوقت الذي قد يعهد فيه إلى الهيئة بناء على طلب الحكومات ذات الشأن بمسئولية مع أي عدوان آخر من واحدة من تلك الدول » .

واتفاقات لوصاية هي التي تخص بمقتضاها أقاليم معينة لنظام الوصاية الدولي الجديد الذي يهدف أساسيا إلى العمل على ترقية أهالي تلك الأقاليم في شؤون السياسة والاجتماع والاقتصاد والتعليم وإشراكهم في الحكم الذاتي أو

الاستقلال حسباً يلائم الظروف الخاصة لكل إقليم وشعوبه ويتفق مع رغبات هذه الشعوب التي تعرب عنها بكل حريتها وطبقاً لما قد ينص عليه في شروط كل اتفاق من تلك الاتفاقات ، وكذلك إلى كفالة المساواة في المعاملة في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والتجارية لجميع أعضاء « الأمم المتحدة » وأهل الإقليم المشمولة بالوصاية . على أن تكون هذه الأقاليم واحدة من ثلاث فئات : المشمولة الآن بالأسداب ، والتي قد تقطع من دول الأعداء نتيجة للحرب عملية لنائبه ، والتي تضمها في الوصاية بمحض اختيارها دول مسئولة عن إدارتها ، والتي لا ينطبق نظام الوصاية على الأقاليم التي أصبحت أعضاء في هيئة الأمم المتحدة ؛ إذ يجب — من حد نص المادة الثامنة والسبعين — أن تقوم العلاقات بينها على احترام مبدأ المساواة في السيادة .

ويجب أن يشمل اتفاق الوصاية ، في كل حالة ، الشروط التي يدار بمقتضاها الإقليم المشمول بالوصاية وأن يعين السلطة التي تدير الإدارة فيه . ويجوز أن تحدد في أي اتفاق من اتفاقات الوصاية مساحة استراتيجية قد تشمل الإقليم الذي ينطبق عليه نظام الوصاية بفضله أو كله ؛ على أن تحقق الأهداف الأساسية لهذا النظام بالنسبة لشعب هذه المساحة ، وعلى أن يباشر مجلس الأمن ذاته جميع وظائف « الأمم المتحدة » بالنسبة للمناطق الاستراتيجية بما فيها الموافقة على شروط اتفاقات الوصاية وتغييرها أو تعديلها مستعيناً في ذلك بمجلس الوصاية . أما فيما يخص المساحات التي لم ينص على أنها مساحات استراتيجية فإن الجمعية العامة هي التي تتولى مباشرة وظائف « الأمم المتحدة » بالنسبة لها مستعينة بمجلس الوصاية في ظل سلطانها .

ومن أهم أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية بالنسبة لميثاق هيئة الأمم المتحدة هو نوع اتفاقات حفظ السلم والأمن الدولي . وهيئة الأمم المتحدة إنما تتميز عن « عصبة الأمم » باستنبهها لوسائل الفعالة لحفظ السلم ولأمن الدولي الذي عهدت به للأمم فرع من فروعها وهو مجلس الأمن .

وقد نصت الفقرة الأولى من المادة الرابعة والعشرين من ميثاق « الأمم المتحدة » على أن أعضاءها يعهدون إليه « بالتصامات الرئيسية في أمر حفظ السلم والأمن الدولي ، وبوافقهم على أن هذا المجلس يعمل نائباً عنهم في قيامه بواجباته

التي نعرضها عليه هذه التبعات « . كما نصت المادة الخامسة والعشرون على تعهد أعضاء «الأمم المتحدة» بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها . وحرمت المادة الثانية عشرة على الجمعية العامة دماً أن تقدم أية توصية في شأن نزاع أو موقف يكون منظوراً أمامه إلا إذا طلب هو منها ذلك .

وقد نظم الميثاق التبعات الملقة على مجلس الأمن ، إذ جعله «مسئولاً بمساعدة لجنة أركان حرب عن وضع خطط تعرض على أعضاء الأمم المتحدة لوضع منهاج لتنظيم التسليح ، وإذ جعل له أن يمحسب أي نزاع أو موقف قد يؤدي إلى احتكاك دولي وقد يثير نزاعاً لكي يقرر أمن شأن استمرار هذا النزاع والموقف .» تعرض للخطر حفظ السلم والأمن الدولي ، كما جعل لكل عضو من الأمم المتحدة أن يسيبه إلى أي راع أو موقف من هذا النوع ، بل جعل «لكل دولة ليست عضواً في الأمم المتحدة أن تنبيهه إلى أي نزاع تكون طرفاً فيه» ، وإذ خصه بأن يوصي بما يراه ملائماً من الإجراءات وطرق التسوية في أية مرحلة من مراحل النزاع والموقف المشبه به ، كما ركز له هو بنص المادة التاسعة والثلاثين من الميثاق أن «يقرر ما إذا كان قد وقع تهديد للسلم أو إخلال به أو كان ما وقع عملاً من عمل أعدوان» ، وحوله بمقتضى المواد التالية دعوة المسازعين للآخذ بما يراه ضرورياً أو مستحسنًا من تدابير مؤقتة ، أو تقرير ما يجب أخذه من التدابير التي لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته ، أو أن يتخذ كما ورد في نص المادة الثمانية والأربعين — إذا رأى أن هذه التدابير لا تفي بالغرض أو ثبت أنها لم تف به — «بطريق لقوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدولي وإعادةه إلى نصابه» ، على أن يكون وضع الخطط اللازمة لاستخدام هذه القوات المسلحة من نصيبه هو بالذات بمساعدة لجنة أركان الحرب « وهي لجنة مؤلفة من رؤساء أركان حرب الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن - الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي وفرنسا والصين — ومسئولة تحت إشراف المجلس عن التوجيه الاستراتيجي لأية قوات مسلحة موصوغة تحت تصرفه ، ولها في سبيل هذا التوجيه لاستراتيجي أن تنشئ لجناً فرعية إقليمية إذا خولها ذلك مجلس الأمن بعد التشاور مع التوكيلات الإقليمية صاحبة الشأن » .

وهذه القوات التي توضع تحت تصرف مجلس الأمن هي محل هذا النوع من

للمعاهدات وميثاق الأمم المتحدة

معاهدات والاتفاقات التي سميها « اتفاقات حفظ السلم والأمن الدولي » ، وقد نظمت مبادئها وأوضاعها بمقتضى أحكام المواد الثالثة والأربعين والتاسعة والأربعين والخامسة والأربعين والرابعة والأربعين والسدسة بعد المئة

وقد قررت الفقرة الأولى من المادة الثالثة والأربعين مبدأ تعهد « جميع أعضاء الأمم المتحدة في سبيل المساعدة في حفظ السلم والأمن الدولي أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن طبقاً لاتفاق أو اتفاقات خاصة ما يلزم من القوات المسلحة والمساعدات والتسهيلات الضرورية لحفظ السلم والأمن الدولي ، ومن ذلك حق المرور » . وفرضت المادة الخامسة والأربعون أن يكون « لدى الأعضاء وحدات حوية أمنية يمكن استخدامها فوراً لأعمال الفس الدولية المشتركة . ويحدد مجلس الأمن قوتها ومدى استعدادها وخطط لأعمالها المشتركة ، وذلك بمساعدة لجنة أركان الحرب وفي الحدود الواردة في الاتفاق أو الاتفاقات الخاصة المشار إليها في المادة الثالثة والأربعين » . وقد نصت الفقرة الثالثة من هذه المادة الثالثة والأربعين على أن « تجري المفاوضات في الاتفاق أو الاتفاقات المذكورة بأسرع ما يمكن بناء على طلب مجلس الأمن ، وتبرم بين مجلس الأمن وبين أعضاء « الأمم المتحدة » أو بينه وبين مجموعات من أعضاء « الأمم المتحدة » ، وصادق عليها لدول الموقعة وفق مقتضيات أوضاعها الدستورية » . كما وضعت المادة السادسة بعد المئة نظاماً مؤقتاً يعمل به « إلى أن تصبح الاتفاقات الخاصة المشار إليها في المادة الثالثة والأربعين معمولاً بها على الوجه الذي يرى معه مجلس الأمن أنه أصبح يستطيع البدء في احتمال مسؤولياته » ، وهو نظام التشاور يجري فيما بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين وفرنسا ويجري « بين وبين سائر أعضاء الأمم المتحدة » ، كما اقتضت الحال للقيام ببيان عن الهيئة بالأعمال المشتركة التي قد تنزم لحفظ السلم والأمن الدولي » .

وبإلى جانب هذه الأحكام فإن المادة التاسعة والأربعين تنص على أن يتضامن أعضاء الأمم المتحدة على تقديم المعونة المتبادلة لتنفيذ التدابير التي قررها مجلس الأمن » ، كما تنص المادة الرابعة والأربعون على ما يتبادل مع مبدأ التضامن هذا من ضرورة دعوة العضو ، الذي يطلب إليه مجلس الأمن - إذا ما قرر استخدام القوة - تقديم القوات المسلحة وفاء بالالتزامات التي ارتبط بها عن طريق اتفاق من اتفاقات حفظ السلم والأمن العالمي ، إلى أن يشترك في القرارات

التي يصدرها المجلس في ذلك الصدد إذا لم يكن العضو المذكور ممثلاً فيه
ثم تجيء التنظيمات الإقليمية، ولا يحول الميثاق دون معالجتها ومن الأمور
المتعلقة بحفظ السلم والأمن لدول ما يكون العمل الإقليمي صالحاً فيها ومناسب
مادامت هذه التنظيمات وأنواع نشاطها متلائمة مع مقاصد « الأمم المتحدة »
ومبادئها. ولكن الميثاق حدد هذه المعالجة التي يعترف بالتنظيمات الإقليمية بالقيام
بها، إذ قصرها على « تدبير الحل السلمي لمنازعات المحلية » قل عرض هذه لمنازعات
تجسس الأمن، سواء أصدرت لك المعالجة من تلقاء نفس المنظمة أو بناء على
طلب المجلس، وإن كان قد احتفظ لنفسه بحق استخدام تلك تنظيمات في ظل
سلطانه كلما رأى ذلك ملائماً في أعمال « قس » مع حرص المادة الثالثة والخمسين
من الميثاق على النص على أنه « لا يجوز القيام بأي عمل من أعمال « القس » يقتضي
لتنظيمات الإقليمية أو من بد التوكيلات الإقليمية بدون إذن مجلس الأمن » إلا
في حالة التدابير التي تتخذ صد دولة من دول لاعداء على حد ما شره إليه من
قبل، وذلك كله على أن يحظر مجلس الأمن في كل وقت خاصة مهمة بما يجري
من الأعمال أو رجع القيام به منها تقتضي تنظيمات إقليمية أو بسطة توكيلات
إقليمية لحفظ السلم والأمن الدولي » كنص المادة الرابعة والخمسين.
على أن الانشابات الإقليمية التي ورد الميثاق بخصوصها تلك الأحكام الوصية
الدقيقة في مواده لا تحظى بتعريف يحددها ويعين معالمها. وقد لاحظت مصر
هذا النقص، فصممت ملاحظاتها على مقترحات دمبرتون أوكس مطالبة بالإصلاح
ما يجب أن يتوافر في التنظيمات الإقليمية من عنصرى التحاور الجفرفى واشتراك
المصالح، وتقدم وفدها في مؤتمر سان فرانسيسكو فعلا باقتراح إضافة فقره
جديدة إلى فقرات المادة ٥٢ من الميثاق يكون نصها:

« تعتبر تفقات إقليمية الهيئات الدائمة التي تضم في منطقة جغرافية معينة
عدداً من لدول تجمع بينها روابط التحاور والمصالح المشتركة والتقارب الثقافي
والنفوى والتاريخى والروحى، وتتعاون جميعاً على حل ما قد ينشأ من منازعات
حلا سامياً وعلى حفظ السلم والأمن في منطقها وحماية مصالحها وتنمية علاقاتها
الاقتصادية والثقافية »

ولكن لم يحظ هذا التعديل بموافقة اللجنة المختصة. وحتى دول أمريكا

اللاييمية التي كانت قد قدمت اقتراحاً في نفس المعنى نزلت عنه وصوتت ضد الاقتراح المصري وكانت حجة لولايات المتحدة في دفع هذا التعديل أن كل تعريف نصيبق ، وأنه مع السلم بما في التعريف المصري من الضبط ودفع اوصف فإنه يحشى أن يخرج من التنظيمات الإقليمية ما قد يجب أن يدخل فيها . ويتصل باتفاقات حفظ السلم والأمن لدونى والاتفاقات لتنظيمات الإقليمية أوثق الاتصال نوع أخير من أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية ، هو نوع معاهدات الدفع عن النفس التي ورد ذكرها في المادة الحادية والستين من مواد الميثاق ونصها :

« ليس في هذا الميثاق ما يرد أو ينتقص الحق الطبيعي للدول ، فرادى أو جماعات ، في الدفع عن أنفسهم إذا عتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة ، وذلك أن نجد مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن لدولى . ويبلغ مجلس فوراً التدابير التي اتخذها الأعضاء بمباشرة حق الدفاع عن النفس . ولا تؤثر تلك التدابير على حرة في سلطة المجلس ومسئوليته المستمدة من أحكام هذا الميثاق ، في أن تجدى في وقت ما يرى ضرورة لاتخاذ من الأعمال لحفظ السلم والأمن لدولى أو إعادته إلى نصابه . »

وقد كان هذا النوع من المعاهدات هو الآخر محل مناقشة في لجان مؤتمر سان فرانسيسكو ، وكان لمصر موقف بصدده كذلك . ذلك أن حق لدفع اجماعى قد استلزم المناقشات على موثيق المعاونة العسكرية ونوجه خاص على المعاهدات المعتودة بين الاتحاد السوفيتى وكل من فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا . فطلبت مصر إيضاح مدى حق الدفاع اجماعى ، وبيت أنه إذا كان هذا الحق يشمل التحالفات العسكرية فإن من الضرورى أن يقصر نطاقه على موثيق لمعاونة العسكرية التي تعقد بين دول متحدة ليصبح عليها وصف التنظيمات الإقليمية . وهنا صرحت لولايات المتحدة أنه كان المقصود أصلاً أن حق الدفاع اجماعى لا يصرف إلا إلى التنظيمات الإقليمية بالمعنى الصحيح . إلا أنه أثناء المفاوضات بسط اتفاقها بحيث تشمل التحالفات العسكرية التي تقرر الهيئته الجديدة أنها تتلاءم مع الميثاق .

وتقريب هذا البيان الذي تقدمه حريصاً من تقرير وزارة الخارجية المصرية عن أعمال مؤتمر الأمم المتحدة للتشريع الدولي المنعقد في سان فرانسيسكو والمقدم للبرلمان المصري في شهر ديسمبر لسنة ١٩٤٥ ، بتقريب هذا البيان من نص المادة الحادية والخمسين من مواد الميثاق تكون معاهدات الدفاع عن النفس خاضعة صحتها لتوافر الشروط التالية :

- أولاً - أن يكون موضوعها الدفاع عن النفس لا الهجوم ولا الدفاع عن الغير .
- ثانياً - لا تكون أحكامها نافذة إلا في حالة الاعتداء لفعلي بقوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة .
- ثالثاً - أن يكون تنفيذ أحكامها عمد ففادها موفوقاً إلى أن تتخذ مجلس الأمن التدبير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي .
- رابعاً - أن يطلع المجلس فوراً المتداير حي يتخذها المعاهدون دعماً عن النفس .
- خامساً - أن تقرر هيئة الأمم المتحدة أن المعاهدة تنالء مع الميثاق .

تلك هي أنواع المعاهدات والاتفاقات الدولية المتعددة - هيئة الأمم المتحدة ، وتلك هي أحكام ميثاق الأمم المتحدة في صدد قيامها وصددها . وإن هذه الأحكام تنطبق بالاتجاه الدولي الجديد ، اتجاه التعاون العالمي والتدفق في سبيل المشاركة السامية عن طريق الهيئة الجديدة وتحت إشرافها ، وحضار العلاقات بين الشعوب والأمم فرادى وجماعات لاعتماد التفاهم المتبادل الخالي من كل ضغط في الحظيرة الدولية ، وعدم الانفراد في معالجة غير اشؤون الداحية لاحتة ، وعلى حد تعبير الفقرة السابعة من المادة الثانية من الميثاق « عدم تدخل الأمم المتحدة في الشؤون التي تكون من صميم السلطان الداخلي لدولة ما » ، وكذلك عدم السماح لدولتين أن تحكما بينهما علاقات تتصل بالسلم والأمن الدولي في غير نطاق الميثاق ودون علم مجلس الأمن ، وبعض الأحيان دون إذنه . وهي لا تعترف مثلاً بمساحات استراتيجية تتصل بها أكثر من دولة واحدة إلا في الأقاليم المشمولة بالوصاية ليس غير ، وهي أقاليم يطبق عليها نظام دولي تشرف عليه « هيئة الأمم

المتحدة . ومنصوص على عدم تطبيقه على أعضاء هذه الهيئة المتساوين في السيادة .

وقد شاء الميثاق أن يؤكد ذلك الاتجاه الجليد ويقضى على ما قد يقوم بين الالتزامات الناشئة عنه والتزامات غيره من الأدوات الدولية من تعارض ، كما حرص على أن يراقب ما قد يعقد بين بعض الدول من اتفاقات تخالف أحكامه ، فنص في مادته الثالثة بعد المئة على أنه « إذا تعارضت لالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام الميثاق مع أي التزام دولي آخر يرتبطون به ، فأبعده بالتزاماتهم المترتبة على هذا الميثاق » . ونص في مادته الثانية بعد المئة على أن كل معاهدة وكل اتفاق دولي يعقده أي عضو من أعضاء الأمم المتحدة بعد العمل بالميثاق يجب أن يسجل في أمانة الهيئة وأن تقوم بنشره بأسرع ما يمكن . وليس لأي طرف في معاهدة أو اتفاق دولي لم يسجل أن يتمسك بتلك المعاهدة أو ذلك الاتفاق أمام أي فرع من فروع الأمم المتحدة » .

وكانت مصر قد تقدمت في صدد تعارض الالتزامات باقتراح النص في صلب المادة المتعلقة به على « أن المعاهدات السابقة التي تتنافى مع الميثاق تعتبر ملغاة أو واجبة التعديل » . واحتدمت المناقشة في هذه المسألة وطالت أكثر مما حدث في غيرها من المسائل ، وانتهى الأمر بصياغة المادة الثالثة بعد المئة على ذلك النحو الذي يؤدي في عموم أسلوبه إلى تحقيق الاقتراح المصري في خصوصه « وما دامت العبرة بالالتزامات المترتبة على الميثاق فإن ما يتعارض معها من التزامات سابقة أو لاحقة لا يكون له شيء من الاعتبار » .

على أن مصر لم يفتها عند مناقشة اختصاصات الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة أن تثير الموضوع عن طريق اقتراح تخويل هذه الجمعية حق التوصية بناء على طلب أي عضو لإعادة النظر في المعاهدات التي أصبحت غير قابلة للتطبيق . وانقسمت الآراء أزاء الاقتراح المصري بين مؤيد ومعارض ومحيد . وحاولت الولايات المتحدة إقامة التوازن بين اتجاhey التأييد والمعارضة ، وأعلنت أن النص على تسوية أي موقف تسوية سلمية أيأ كان منشؤه يجب ألا يحمل على معنى نفى حق الجمعية في إعادة النظر في المعاهدات ، بل إذا نشأ عن قيام معاهدة ما موقف ترى الجمعية أنه يضر بالرفاهية العامة أو يعكر صفو العلاقات الودية بين الأمم فلاجمعية أن تشير بما تراه في هذه الظروف . وطلبت بلجيكا إثبات هذا

للمعاهدات وميثاق الأمم المتحدة

التفسير في المحضر ، وأيدتها مصر في هذا الطلب الذي يحقق ما طلبت على اعتبار أنه يكفل إعادة النظر في المعاهدات .

وبعد ، فلعلنا بهذا البحث أن نكون قد ساهمنا في إنارة لطريق أمام الذين يتأسسون الآن وهم القواعد التي تقوم عليها معاهدة في نطاق ميثاق الأمم المتحدة .

محمد عزمي

أحلامي الضائعة

أين أحلامي التي أهدعتها
قد تهاوت كورود غضة
فاذا الدنيا - وكانت جنّة -
يا لها من عنّة قاسية
من هوى نفسي ، وأشواق فؤادي ؟
ألقت الريح بها في كل واد !
أصبحت صحراء غرقى في السواد
أذهلت قلبي وألوت برشادي !

أنظري أحلام قلبي ... إنني
في ربيع العمر ... في فجر الصبا
وأصاب العقم نفسي ! ويحها
ليت شعري ما بقائي ، وأنا
صرت أحياء بين آلامي وحيدا
قد دفنت الأُنس في قلبي وليدا
لا أراها تُبدع اليوم جديدا !
لم أزل أحياء على الدنيا شريدا ؟

كيف أحياء بعد أن ضاعت سُدى
إنها صورة دنيائى التي
صاغها الشوق ، وجلأها الهوى
ليت شعري كيف أرجو بعدها
هذه الأحلام من عمرى الحزين ؟
تحلم النفس بها في كل حين
فاللها أبد الدهر حنيني
فرحة اليأس ، وآفاق السجين ؟

رُبَّ ليل قد طواني موجه
لم أجسدي عاصما من أمره
مثما يطوى مُنى النفس الفناء
غير أحلامي بافاق السماء

فتساميت إليها شاكياً
فإذا دنيا كما شاء الهوى
وحشة الليل ، وأحزان المساء
كلها نور ، وأنس ، وغناء

ونهار ترمي ضوضاؤه
لذت منه بكمال مفرد
يتسلى عن ضلالات الأنام
فهو للحب مشوق مستهام
كلها صفو وأمن وسلام
فإذا دنيا كما شاء الهوى

أعز لي يا روح أيامى كما
وارفعى شكواك لله الذى
تقول الرجى ، ورضيتى بالنحيب
جئ الدنيا بأحلام القلوب
فهو يحيا فى ضلوعى كالغريب
إذ يعيش القلب فى ليل المشيب ؟
كف يحيا الجسم فى فجر الصبى

آه كم يغلبنى الحزن ! وكم
حيث أمضى مع الناس سدى
تستبد الوحشة الكبرى بحتى
وإذا أبقيت وحيداً مع نفسي
وغريباً بين آلامى ويأمنى
ثم ألقى فى مهاوى العمر كاسى
ليتنى أجرع حزن مرة

إيه أحلامى ! وداعاً ، وغداً
حين يبدو حقل عمرى مقفراً
نلتقى ... لكن متى ؟ ... بعد الحصاد !
بارد الأيفاع ، مقرر الوهاد !
أبتغى دفئاً لروحي وفؤادى
فتهاويت بقلبي فى الرماد !
فتلفت بقلب مرعش
وترايت رماداً دافئاً

وسألتك إذا حان الردى
وإذا الناس - وأهلى فيهمو -
ففریقٌ عند رأسى جازعٌ
وتراءيت خيالاً شاحباً
فههنا قلبي ، وامتدت يدي
ثم حالت بيننا أيدي الردى

فقدما يُحصر بالآتقاس صمري !
أصبحوا - في الموت - يُعْتَنُونَ بأمرى
وفريقٌ في الثرى يحفر قبري !
فكأنى لا أرى إلا بفكري
علماً تُدنيك من خفاق صدرى
نم ماذا ؟ لست أدري ! لست أدري !

إبراهيم محمد نجا

رسالة لم تنشر للجاحظ

هذه الرسالة التي يراها الفارسي بعد مظهر واضح حتى من مظاهر التطور الذي أتيج للنثر العربي ، وتم تمامه على يد الجاحظ في القرن الثالث للهجرة ، إذ اقتحم على الشعر أبوابه ، وشاركه في ميادينه ، وجعل يتافه عليها منافسة قوية رائمة . وقد ظل الشعر زماناً متأثراً بالمعاني الفنية ، منفرداً بالتعبير عنها ، إذ كان اللغة الفنائية الوحيدة التي يتغنى بها الرجل في آلامه وآماله ، وفي حبه وبغضائه ، وفي نشواته المصيبة الملتفة ، لا نثر كما في ذلك لغة غيرها ، حتى تم للنثر ذلك التطور .

وليس بنا الآن أن نبين كيف حدث هذا التطور ، وكيف انتهى إلى غايته ، فلسنا هنا إلا بصدد المقدمة لهذه الرسالة ، والاشارة إلى بعض وجوه الخطر التي تمثلها — هي ونظائرها — في تاريخ « العبارة الفنية » في اللغة العربية ، وكيف استطاع الجاحظ أن يقل موضوعات الشعر إلى النثر ، وأن يفتح — بذلك — لهذه الموضوعات أفقاً أرحب ، وعبارة أسمح ، ومجاوباً مع النفس العربية الجديدة — التي صقلت الحضارة وأرهنها الترف ومدت من جوانبها المعرفة — أدق وأصدق . وبذلك كان الجاحظ يمثل تطور العقل العربي حين لم تعد تكفيه وتقتنع رغباته الواسعة تلك المعاني المقصورة ، وتلك الصور المركزة ، وتلك العبارات المقتضبة الموجزة ، فاستطاع أن يستجيب لهذا الانحياز ويعبر عنه ، حين أمكنه أن يقيم ذلك النحو من « العبارة الفنية » المتوسطة بين الشعر والنثر : تقف بينهما ، وتصلطع خصائصهما ، على النحو الذي نراه في هذه الرسالة التي كتبها في « ربه » صديق له .

والرثاء فن شعري ، استأثر به الشعر حتى هذه الفترة . ولكن الرثاء في هذه الرسالة متأثر — بطبيعة الحال — بروح النثر ، ومن هنا كان مختلفاً عما نعهد منه في قصائد الشعراء . فهو يحكي هنا في سياق صورة مفصلة لشاب اخترم في عنفوان شبابه ، يصور فيها الجاحظ « الموت » في جميع حالاته وملابساته ، منذ أخذت بوادره تتدسس عليه إلى أن غيب في قبره . ومن ذلك كانت إنثارته « الحزن » بما يرسم أمام الخيال من صورة الموت ، وهي تنطوي بطبيعتها على العناصر الأصلية للحزن . أما رثاء الشعراء فهو — في كثير من حالاته — أشبه شيء ببذب النوادب ونواح النوائح ، وكذلك ما يثيره من الحزن ، إنما يحكي من هذه الناحية ويصدر ذلك المصدر . وكذلك نرى الأمر مختلفاً بين الرثاء هنا والرثاء في الشعر ، في ناحية « التبيين » أو تمجيد الميت . فالجاحظ إنما يصور ما أثره وفضائه في خلال تلك الصور ، فيجئ بها متلبه ، انتحلت الحداد والتفت بالسواد . لا مستقلة منزوعة من ذلك الجو ، كما هو الشأن — كثيراً — في الشعر ، مما حمل بعض لقاد على تقرير الفرق بين المدح والرثاء ، بأن الأول ذكر المآثر الحاضرة ، والرثاء ذكرها مقرونة بصيغة الماضي .

رسالة لم تنشر الجاحظ

وقد أحده هذه رسالة من كتاب : « مختار من كلام أبي عثمان الجاحظ » ، وهو
نسخه محمود في مكتبة برلين . وقد وردت فيه خبر معنوية ، كما هو الشأن في محتويات
هذه كتاب . وقد تكون هي الرسالة التي يذكرها ياقوت في فهرست كتب الجاحظ باسم :
« رسالة في موت أبي حرب الصفار البصري » .
وما هي سوى . حمد أو سمحاً نصها جهد الطاقة . وقد مر ما تأذن الروح العلمية في
النشر والتدقيق .
طه الزاهري

ورد عني — أسعدك الله — كتابك ، تذكر فيه برءك من شكوك ،
وتسترياني في ترك لكتاب إليك ، وأنت غافل عما جرت به الأقدار ،
وأصاب به الدهر ، وقرعت به المنون ، وذُرقت به الحوادث . ولم أبطئ
بكتابي عنك — أكرمك الله يا نخي — غفلاً لحقك ، ولا قلة منازعة من
نفسى المحورثك ؛ ولكنه شغل البال ، ورَّيب الخدَّان ، ونقلُّب الأرماني .
فإني قد أصبحت كما قال الشاعر :

لم يترك لدهر لي علقاً حصن به إلا اصطفاه بموت أو به جران

وقد هاجني على الكتاب إليك معتلجات الهموم ، مُسْتَأْثِرٌ لك بعض ما في
صدرى ، استراحة المكروب ، ونفث لمصدر ؛ فقد أصبحت رَصِداً
لهمالك ، وبمدرجة المطب ، وبمشرب السُّموم ، وبمُحْسِن الموت . وأحسب
« هُلكَ » أبي فلان — رحمة الله عليه ورضوانه ، وآتاه الله الرفعة والشرف الأعلى
لديه — قد كُنِيَ إليك وبلغك . وإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ تأديباً بأمره ،
وتعرضاً لموَعوده . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد رأيت تعريفك كنه خبره ، فافهم — رحمك الله — واجتهد في أن
تكون السعيد الموعوظ بغيره .

وقد كنت عاينت شكوه ، وفارقتك عليه في غرة شهر رمضان ثم تزيد
في جهد العلة وفي حداثتها ، وكان اليأس منه والخوف عليه ، أقوى من الرجاء
له والطمع في سلامته . ثم انحدرت العلة ، وطمع في الإفاقة ، وتزيد في
الإطعام ، وتحلَّ السُّقم وشدة المرض ، وستبشر ، ومؤملوه العافية له ببرئه .
فلم يزل يتزيد في صلاح الحال ، ورجوع القسوى ؛ حتى إذا أكل ما اشتهى ،
وركب ومشى ، وخرج إلى البستان ، وثابت نفوسنا من لا إشفاق ، وزال

عنه القلق والحدار ، وعاوده الأمل والاغترار ، وقال لى فى بعض مباحثه .
واستجلابه العافية ، و ستلذذه معاودة الصحة : « إحالتنى قد نجوت ،
وأرائى قد أفلت » مبتهجاً مسروراً ، كما قال الشاعر :

إذا بل من دأبه خال أنه نجى ، وبه الداء الذى هو قاتله

على أنه — يرحمه الله — فى ذلك كمد اللون ، نحيف الجسم ، مضطرب
المزاج ، متغيب عن الاعتدال ، وهو مع ذلك يخرج إلى مسجده ، ويجلس
بقنائه .

ثم تغيرت به العلة ؛ فدخلت عليه ، فإذا نفسه قوية ، وطبيعته حيدة .
وعلته غير منكورة ؛ فسألته ، فردّ جواب فسيح الأجل ، قوى الرجاء ، بغير
انكشاف بال ، ولا وحل من وشك ارتحال . وظلّ يومه ذلك على حاله من
الصلاح . فلما أصبح دعا بسواكه ، فاستقرّ به ، فبينما هو يعرب بالسواك على ثغره
أنكرت أمه ضعف يده ، فقالت : « مالك ؟ » ، فقال : « ما أدرى ! إني
لمنكرت نفسى . بادرونى بالنزول » ، فبودر به . فلما صار على الدرج منحدراً
على قدميه ، عن له الموت مطلاً ، وطرقه ما كان يهرب منه طويلاً ، وفاجأه
الذى راغ منه مجتهداً ، وبقيته ما لم يجد عنه مؤثلاً . فسقط سقطه لم تكن
بعدها إقالة ، فشخص لها بصره ، واضطربت جوارحه ؛ واحتمل إلى قرار
منزله على تلك الحالة الهائلة ؛ لا يسمع الدعاء ، ولا يحفل بالبكاء ؛ ولا يردّ الجواب ،
ولا يعبأ بالأحباب . فدخلت عليه ، وهو كما قال مطيع بن يباس :

وينادونه ، وقد صمّ عنهم ثم قالوا — وللنساء نحيب —
« ما الذى عاق أن تحير جواباً أيها المقول الخطيب لأريب ؟ »

فبُعِثَ إلى أهل الطبّ والمعرفة ؛ فأتوا ، فأروا . حالاً فأتت التلاقي ،
وخرجت من العلاج ، وسبقت الاستدراك ؛ فملأوهم ونصرفوا ، ولم
يقضوا فيه قضاءً

وهو فى ذلك مشغول بجهد نفسه ، وكرب غيره ، وكزع وشدة نفسه ،
والموت يقبضه ويبسطه ، كالثوب عند الطيّ والنشر ، صريعاً مستهدماً ،
أسيراً منحدراً ، قد خذله الوالد والوالد ، والحميم والصديق ؛ فأكثر ما عندهم

الحمرة والنهش، والاستكانة والنشيج . فكثت يومه ذلك ؛ ثم لحم حمى
مدنية، وفاظ في آخرها ، وورد حيث وعد ، وزهق البطل . فمَجَّجُوا
وضَجَّجُوا ، وهتفوا وولولوا . جهدٌ لعمرك قليل الرد .

ولئن مرجع الموتى حنين المساء

فيا لله معتبلاً ما أغص وطرى ، وأى فتى رحل عنا ، كما قال الهدلى :
فراق كقيص السن ، فالصبر ، إنه لكل أناس عشرة وجبور
ثم دخلنا لنفسه ، وهو يشلّو على سريريه ، طرخ على مفتسله ، لقى
لوحه ، تقلبه الرجال بأ كفها طهراً لبطن ، كما قال يزيد بن خنسي :

ورحلوني ، وما راجلت من شعش وألبسوني ثياباً غير أخلاق
ورقعوني . وقالوا : أيما رجل وأدراجوني كأني طي رخرار

ثم أخرج — والله — من طارقه وتليده صفراً ؛ ولو ردّوه ما كان له فيه
غنى ، ولا قبيل عنه فدا . ثم أدرج في لفائمه ، وحمل على نعشه ؛ ينقله إخوانه
وحلصانه ، وأحبّاءه وأصفياءه ، وأنا أحدهم يا أبا محمد ؛ فإرايت كذلك
المنظر منظر ، لو اعتبر به الناس جميعاً لكدن عندي عى ، فكيف بنا ونحن أهل
خاصته ومودته .

ولو رأيت أمة البائسة مرفوعة الحجاب ، ظاهرة لأرجال ، قد عزّها الجزع
فما أبقى ، ورماها فاشوى ، وجل الخطب أن تتعزى ، حيرى شكلى ، أم
واحد ، ومفجوعة ما قد ؛ لأنه — رحمه الله — كان من أشد الناس عليها حنواً ،
والطفهم بها رآ ؛ حتى لو عدته لملاً الكتاب ، ولما استكثر معه بر طاق بن
حبيب ، ولا ير محمد بن طلحة السجّاد بأبيه .

ولو رأيت حرمة اللائى كان يسترهن : من جارية نفيسة ، وممة محبوسة ،
وحرمة مقصورة ؛ قد هتكن أسترهن ؛ وبدت إخدامهن ؛ كقوم حل بهم
السّباء ، وكُتب عليهم الجلاء ؛ كما قال الربيع بن زياد :

قد كن يخبان الوحوه تستراً فالآن حين برزن للنظار

رسالة لم تنشر العجاظ

ولو رأيت ابنه بها ذلّ ليتم ، وخشوع الاسكانة ، مبتذلة غير مصونة .
مكشوفة غير محجوبة ، ظاهرة الوجه والقدمين .
ولو رأيت أباه ، وإن دموعه لمراقة ، وإن يديه لترعد ، كأن به فكلاً من
شدة الجزع ، فأما علة قلبه ونار صدره ، فلا أحسبها تطفأ غار الأيام : ولو لم
يكن ذلك لاولد ، لكان لقائه والحزم في أمره ، والصيانة والبر به .
ولو رأيت ابنه رأيت عبرة لا ترقأ ، ودموعاً لا تفيض ، سخين العين ،
حرّان الصدر ، فأض الدمعة ، مسلوب الصبر ، ما يحارلس دموعه ، ولا
يتجلد للشامتين .
ولو رأيت كدماه ومؤملديه حيارى لا يدرون على أيّ خلاله يأسفون .
على أحسن عشرته وكرم مجلسه ، أم على طيب خلقه وصدق صفاته ، أم على
نجدته وشهامته ، أم على مداراته ومروءته ، أم على رحلته ومودته وأدبه .
وما رأيت سريراً شيعه من المترحم والباكي ، والمتفجع والداعي ،
والمؤين والمثنى ، ما صاحبه ؛ حتى أسهل على بعض الحزن ما سمعت من
حسن الثناء ، وطيب الثناء ؛ فمن بالك على شبابه ونضارة لونه ، وجمال وجهه ،
وامتلاء جسمه ، وحداثة سنّه ؛ ومن ملئت بالحنين ، مكروب بالأسف ،
مشتجى بالفصه ، غصان بسرعة الاخترام ومعالجة المنية .
وما سمعت مراجعاً خبره بعد موته في مثل سنّه ، جمع لكلّ مكرومة ،
وأخذ لكلّ صالحة ، وضمّ لكلّ شاردة ، وأحفظ لكلّ ضائعة ، ورعى
لكلّ مهملّة ، وأضبط لكلّ منفلتة ، من الأخلاق البوارع القواضل ، والأفعال
النفائس الجسيمة ، منه . وكذلك كان - رحمة الله تعالى عليه - فصى .

كأنّ لم يقل يوماً مقالا فتشئتني إلى قوله الأسماع وهي رواغم

ثم وضع سريره فغناء مسجد الوصي ، فصلى عليه جعفر بن القاسم ، ومن
حضره من السّاك والعباد والأشراف ، تحفّزهم علل غير واحدة ، أصغرها
الرحمة له . ثم انطلق بنعشه إلى حفرته ، خوارج العود ، قليل الامتناع ؛ كما
قال مالك بن الربيع :

خذاني فجراني سبردي إليكما فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا

ثم نُصِدَ عَلَيْهِ لِسِينٌ ، وَوُصِدَتْ حِلَالُهُ ، وَهِيلَ مِنْ جَوَانِبِهِ لِرَبِّهِ ، بِعَيْنِ الشَّفِيقِ ، وَحُجَّةِ الْوَادِعِ ، وَحَسْرَةِ الصَّدِيقِ ، وَحُضْرَةِ الْوَارِقِ ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثُوا أَنْ وَدَّعُوهُ وَانْصَرَفُوا .

وَقَالَ قَائِلُهُمْ حَتَّى مَتَى تَقِفُ .

وَأَنَا أَقُولُ قَوْلًا أَخْرَجَ مِنَ النَّوْحِ بِهِ ، وَلَا خَشْيَ الْكَذِبِ مِنَ الْإِغْرَاقِ فِيهِ .
لَئِنْ كَانَتْ الْمَايَا جَعَلَتْهُ غَرَضًا لِلاتِّصَالِ ، لَقَدْ جَعَلَ الْقِيَامَةُ غَرَضًا لِصَاحِ
الْأَعْمَالِ . وَلَئِنْ أَصْبَحَ شَمْلُهُ مَبْدَأًا مَقْسَمًا ، لَقَدْ أَصْبَحَ شَمْلُ حَمْدِهِ مَجْمُوعًا . وَلَئِنْ
كَانَ ابْتِكْرُهُ الْإِزْعَاجَ ، لَقَدْ ابْتَكَّرَ الْهَمَمُ الرِّفْعَةَ بِالْإِتِهَازِ وَالْإِبْتِدَارِ . وَلَئِنْ
شَهْرُ مَوْتِهِ فِي الْمِصْرِ ، لَقَدْ شَهَرَتْ مَكَارِمُهُ فِي الْجَمْعِ . وَلَئِنْ خَفِيَ جِسْمُهُ فِي
الْتُّرَابِ ، لَقَدْ خَفِيَ نَظِيرُهُ فِي الْأَرْضِ . وَلَئِنْ اعْتَبَطَهُ الْمَوْتُ ، لَقَدْ كَانَ وَدَّهَ
لِصَدِيقِهِ غَضًا . وَلَئِنْ وَابَّهِ الْمَوْتُ مُغَارِضًا ، لَقَدْ وَابَّ الْمَعَالَى مُفْتَرِسًا . وَلَئِنْ
انْقَطَعَ أَثَرًا مِنْ زِيَارَتِهِ ، لَقَدْ بَقِيَ عِنْدَنَا مِنْ ثَرِ نِعْمَتِهِ . وَلَئِنْ كَانَ عَلَى قَلْبِ الصَّدِيقِ
خَفِيفًا ، لَقَدْ كَانَ عَلَى كَاهِلِ عَدُوِّهِ ثَقِيلًا . وَلَئِنْ خَرِبَتْ مَجَالِسُنَا مِنْ شَخْصِهِ ،
لَقَدْ كَثُرَتْ قُلُوبُنَا بِذِكْرِهِ . وَإِنِ انْقَطَعَتْ مَسَائِلُنَا لَهُ ، مَا انْقَطَعَتْ مَسَائِلُنَا
فِيهِ . وَلَئِنْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ لَا جَدْنَ مَبْكِي ، وَلَئِنْ احْتَسَبْتُ لِي مِثْلَهُ يُحْتَسَبُ .

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِيَ دَمًا لِبَكَيْتِهِ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

وَلَئِنْ قُصِّرَتْ مَدَّةُ الْإِمْتَاعِ بِهِ ، مَا قُصِّرَتْ مَدَّةُ الْحُزْنِ فِيهِ . وَلَئِنْ ارْتَمَحَ عَنَّا
وَشِيكَ ، لَقَدْ ثَوَى فِي قُوبِنَا الْأَسْفُ طَوِيلًا . وَلَئِنْ كَانَ عَرَضُنَا لِلصَّبْرِ بِمَوْتِهِ ، لَقَدْ
عَرَضْنَا لِلشُّكْرِ بِحَيَاتِهِ . وَلَئِنْ كَانَتْ مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ ، وَقَرُبَتْ مِنْ جَنَابِهِمْ ، تَسْلِيًا
عَنْ بَعْضِ الْكَمَدِ ، وَتَشْفِيسًا عَنْ حَرَارَةِ الْعَلَلِ ، إِنِّي فِي ذَلِكَ لَكَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

فَإِنْ أَعْنَشَ قَوْمًا بَعْدَهُ أَوْ أَزُورُهُمْ فَكَالَوْحِشٍ يُدْنِيهِمَا مِنَ الْأَنْسِ الْمَحْلُ

وَلَئِنْ أَشْرَ الْبَاغِي ، وَفَرَحَ الْعَدُوُّ ، وَسُرَّ الْحَاسِدُ ، وَظَفَرَ الشَّامِتُ ، وَحَذَلَ
الْمُبْغِضُ ، وَاسْتَبْشَرَ الْقَالِي ، مَا تَعَزَّيْنَا فِي ذَلِكَ إِلَّا بِقَوْلِ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعْزِرُ بِالْهَدْمِ ، أَنْتَ الْمُبْرَأُ الْمَوْفُورُ ؟

ولئن تجلدت للشامتين ، وتزَّيَّنتُ للعيون . ووصلحت من شعري
وثيابي ، وركوبتي ولباسي ، فكما قال الأول : ١

وإني ، وإن أظهرتُ صبراً وحسبةً وصانعتُ أعدائي ، عليك لمؤجج

ولئن رُمينا من الدهر بأجلجلى ، لقد سهَّلت علينا مؤونة الصغرى ؛ فنحن
في فقدنا له كما قال الأول :

وكنْتُ أعيرُ الدمعَ قبلك من بكى فأنْتَ على من مات بعدكَ شاغلته

ولئن قلت : إنه قصرَ الجناح ، وجذمَ اليد ، وقطعَ الظهر ، وقصمَ الناب ،
وحطمَ الصُّلب ، وفلَّ الحُدد ، وأوهنَ المنَّة ، وأضرَمَ الأحشاء ، وعقَل
اللسان ، وأهاجَ المتبلد ، وأعاشَ الحَييرة ، وأماتَ الذكاء ، وتزعَ الرغبة ، وأورث
السُّلوة ، وبرى اللحم ، وهاضَ العظم ، وأورثَ الكمد ، وأعقبَ الأسف ، وهاجَ
السَّكابة ، لأصدُقَنَّ ، بل لأقصِّرَن عن نهاية ما بلغ .

فأخذُ الله ثم الحمدُ لله على نوائبِ الدَّهر ، ومكارهِ الأيام ، ومرارةِ العيش ،
وتجرُّعِ الشَّكل ، واعتراضِ الشَّجا ، اضطرابِها واستسلامِها ، ورجوعِها إلى أمرِ الله ،
ونعسِها بمراشده .

فإن تكنِ الأيامُ فرَّقن بيننا فقد بانَ محمودا أخى يومَ ودَّعا

يا أبا محمد أصلحك الله ففيم التربص والانتظار ، وعلامَ الفسَّحة ؟ إنما الدنيا
كأهل دار متى نَفَرَ أوَّلهم تلاحقوا ، فلم يبق بها أنيس . فما تعلم أن الرَّكبَ
وقوف : من أتته دابته ارتحل ، غير أن الإياب إلى الله ! أو ما تعلم أننا رهائن
بأنفسنا ، فكيف لانسعى في فكَّاها ! أو ما تعلم أننا منتدربون لحاسبة التشمير ،
فما الوقي والتأخير ! فنشدتك الله تعالى وتغنى في التشدد والتخوف .

فما نحنُ إلا مثلهم ، غير أننا أقما قليلا بعدهم وترحلوا

بين العلم والأخلاق ؟

اشتدت الحملة على العلم في عصرنا هذا بين كثيرين من المفكرين من غربيين وشرقيين . ولعل السبب في تلك الحملة العنيفة هو ما شاهده الناس من آثار العلم في الحربين الأخيرتين : ذهبت ملايين النفوس ضحية في ميسادين القتال ، وفي معسكرات الاعتقال ، في المراكز الصناعية ، وفي المدن الآمنة ، في الجو وفي البحر ، وأخيراً بالقنابل الذرية التي تحمل إلى الناس أضمن موت في أوسع مدى ، من غير تمييز بين المحاربين وغير المحاربين ! فكان طبيعياً أن يتساءل الناس عن المسئول عن تسليح الشعوب بأسلحة الفتك هذه . وكان طبيعياً أيضاً أن يكون أول ما يخطر ببالهم ، جواباً عن هذا التساؤل ، أن القتل والدمار على اختلاف أنواعه ، إنما تم بفضل العلم وببركة جهود العلماء .

فإذا اعترض البعض بأن الحرب أمر شاذ في تاريخ الإنسانية ، وأن زمان السلم مبرراً من ويلاتها ، نهضت الوقائع لتفنيد هذا الرأي : فهذه الآلات التي تزيدها جهود العلماء كل يوم دقة وابتداعاً لم تقدم إلى المجتمع الإنساني حياة السعة والرفاهية والاطمئنان التي طالما وعدوه بها . ويظهر أن في وضع السؤال نفسه سخريّة مرة . فالعمل في المصانع ، ذلك العمل الذي لا يكاد يترك للعامل وقتاً للتنفس ، إنما يعقب ، في الآونة الحاضرة ، التشرّد والبؤس والبطالة في أرجاء العالم ، حتى ليخطر ببال من ينظر في حال بعض العمال في الغرب أن الإنسان أصبح ، بفضل التقدم العلمي الصناعي ، عمداً للآلة ، بدلاً من أن تسخر الآلة في خدمة الإنسان . ولم يفك حكماء الشرق والغرب أن يلاحظوا هذه الظاهرة العجيبة ؛ فهذا رابندراناث تاجور يقول : « إن الحياة المادية القائمة على العلم تحلو لبعض الناس ؛ لأن لها كل صفات الرياضة البدنية : تتظاهر بالجهد ، ولكنها خلو من العمق ، وهي لا تحسب للطبيعة الإنسانية العالية حساباً . » وهذا أبشتين لا يقل قسوة في الحكم على العلم عن حكيم الهند ، إذ يقول :

« لم يستخدم العلم حتى اليوم إلا في استعباد الناس : ففي زمن الحرب يستخدم العلم في تسميمنا وفي تشويهنا ، وفي زمن السلم يحسن حياتنا قنعة مرهقة . كنا نتصور أن يستعين الناس بالعلوم للانصراف إلى الأعمال العقلية ، فبنوا بذلك أكبر قسط من الحرية . ولكن بدلا من ذلك صيرتهم لعنوم عميداً للآلة . إن السواد الأعظم من العمال ينفقون نهارهم الطويل الرتيب الخالي من البهجة ، وهم في أشد حالات التبرم والضجر ، ولا يمنهم ذلك من الارتعاد خوفاً على أجورهم الضئيلة . »

ذلك هو الاتهام في قوته . وخلاصته أن العلم مخالف للأخلاق ؛ لأنه يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء ، ويجعل الإنسان عبداً للآلة . ويزود الخنقة والبغضاء بأخطر سلاح .

إننا جميعاً نكره هذه الآثام التي تقترب باسم العلم ، ونمقت آثار الحرب والموت التي تجهز في ظل المعامل والمختبرات العلمية ، ونشعر بمعض شديد كلما فكرنا في تلك المدنية المادية المنسوبة إلى العلم ، تلك المدنية التي تجعل غاية الإنسانية أن تظفر بالمتع المادية ، وأن توفر لها وسائل الراحة الرخيصة والترف الغليظ . ولكن هل العلم مسئول عن كل ما يندب إليه ؟ إن الآثام التي اقترفت باسم العلم حق لا ريب فيه . ولكن العلم ليس مسئولاً عنها . والذي يوقع الناس في الخطأ بهذا الصدد هو أنهم يخطئون غالباً بين العلم ذاته وبين التطبيقات المستفادة من العلم . ولكن العلم ، لحسن الحظ ، شيء آخر غير التطبيقات العلمية .

العلم الصحيح هو البحث عن الوقائع والقوانين بحثاً بريئاً مترها عن كل غرض سوى المعرفة . ومهمة الباحث ، في علم الطبيعة أو في علم البيولوجيا وفي علم الاجتماع ، مقصورة على جودة التحصيل للوقائع وإقامة القوانين منها . فهمته مهمة عقلية محضة ، وليس له من قصد إلا تقدم الذهن الإنساني تقدماً غير محدود . وجماع حياة العالم في كلمة المعرفة ، والمعرفة لا أكثر ولا غير .

صحيح أن الغالب في مجال العلم أن يكون الرجل الذي يعرف هو نفسه الذي يعمل ، وأن الذي يكتشف هو عين الذي ينتفع من الاكتشاف . ولكن الحقيقة أنه متى تم للعالم أن يركب جهازاً أو آلة من أجل غاية تتجاوز المعرفة المحضة ، فقد

خرج من محال العلم ولو لم يخرج من المعمل ؛ لانه إذا تغير قصده تغيرت عقليته أيضاً ، وأصبح إنساناً له أهواؤه وآراؤه ومصالحه ؛ فليس عجيباً أن يسخر معرفته لخدمة هذه الأهواء والآراء والمصالح .

لكن مما يؤسف له أن الكشوف العلمية التي يزيد عددها منذ قرن من الزمان ريادة رائعة ، إنما بزغت في مجتمعات لم تتوث من الحكمة إلا حظاً يسيراً ، فنتج عن ذلك أنها لم تسخر تلك الكشوف دوماً في غايات سليمة كريمة ، وإنما استخدمتها في الخير حيناً ، وجعلتها في خدمة الشر والعدوان أحياناً . ولكن ليس الذنب في ذلك ذنب العلم ولا ذنب الكشوف العلمية ، وإنما هو ذنب المجتمع الإنساني الذي يحمل في نفسه جرائم سوء . قد يستكشف البيولوجي أثر مادة ما في بدن الإنسان ، فيستخدم الطبيب ذلك في العلاج ، ويستخدمه المجرم في القتل . ويستكشف عالم الطبيعة القوانين التي تقوم عليها السينا والراديو ، فيستخدمها بعض الناس لإذاعة الحق والخير والجمال ، ويستخدمها بعضهم لنشر الأكاذيب والآثام وإشفاق . وقد استكشف العلماء وسيلة لتحطيم الذرة وحبس طاقتها ، فاستخدمها بعضهم لصنع القنبلة الذرية ، وقد استخدمها آخرون غداً لرفع مستوى الحياة الإنسانية .

وإذن فليس من الإنصاف أن يُرمى العلم بما رُمي به من آثام ، وأن يحمل عبء ما اقترف باسمه من آثام ، بل الأقرب إلى الإنصاف أن تلقى جميع هذه التبعات على الإنسان .

الحق أن العلم الصحيح يحمل في نفسه مثلاً أعلى ومذهباً أخلاقياً رفيعاً ، لو اهتمدنا إليهما ، واستوحيناها في حياتنا ، لأوتينا نبلاً وسعادة . يتضمن العلم ثلاثة معانٍ أخلاقية جلية هي قانونه وحياته : الأول هو أن إقدام الفكر وجرائمه الفاتحة هما صميم الكرامة الإنسانية . ذلك لأن العالم الصحيح باحث مبرأ من الأغراض كما قلنا ؛ لا يعنيه ، حين يواجه مشكلة ما ، أن يعرف هل يكون حلها نتاج عملية أو لا يكون ، ولا يبالي إلا بأن يستعيض عن جهل بعلم . ولعل أجمل وأروع الكشوف العلمية ما تم منها في علم الفلك . فهذه الكشوف نماذج للانتصار العلمي ؛ لأنها غيرت فكرتنا عن الكون ، ولأنها جعلت الغلبة للعقل في مجال كان يبدو بعيداً عن متناول العقول . ومع ذلك فلم

ينتج عن هذا الكشف الفلكية تطبيقات عملية من شأنها أن تبدل أحوال معاشنا .
ومتى كانت الكرامة الإنسانية في ذلك الجهد الموصول لمعرفة فإن
مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكون للناس جميعاً نصيب في هذه الكرامة ؛
فنيشروهم أن يتعمموا في كل سن ، وفي كل طبقة ، وفي أي جنس ، ونهيئ
لهم السبيل إلى أن يتذوقوا الأمور الروحية والذائد العقلية ، وأن يقدرُوا
الحقائق التي قام عليها الدليل .

والمعنى الثاني الذي ينطوي عليه البحث العلمي هو العمل على جمع السكامة
والإتلاف من طريق ذبوع الحقائق العلمية ، وقبول الناس إياها لا باعتبارها
حقائق خاصة بطائفة من الطوائف ، أو بوطن من الأوطان ، أو بجنس من
الأجناس ، بل باعتبارها نورا يهدي جميع أفراد الإنسان في هذه الدنيا . ذلك
أن للعلم ميزة انفرد بها ، وهي أنه و حد في كل مكان وعند جميع الناس ؛ فجميع
٢ و ٣ = ٥ سواء كنا في القاهرة أو في لندن ؛ ولا يخطر ببال عاقل أن ينزع
في هذه الحقيقة الرياضية . وكذلك في العلماء إسرائيليين ، وفيهم مسيحيون ،
وفيهم مسلمون . وفي العلماء عرب وأمريكان وروسيون . ولكن لا يستطيع
أحد أن يزعم أن تكون هناك هندسة إسرائيلية مخالفة للهندسة المسيحية أو
الاسلامية ، ولا علم طبيعة عربي متميز من علم الطبيعة الأمريكي أو الروسي ...
ذلك أن الحقائق العلمية يمكن أن يقوم عليها البرهان . والبرهان القائم على العقل
والتجربة هو الذي يخلق الوحدة والاتفاق بين الناس ، ويدعو إلى الإتلاف
ضخواً ومن غير إكراه .

مما يؤسف له أن الناس لم يتفقوا إلى الآن إلا على قليل من الحقائق العلمية
متصلة بالمادة وبالحياة . ومن نكد الحل أنهم فيما عدا ذلك يجدون أنفسهم
مضطرين إلى البت في مشكلات لم يحسمها العلم إلا مسأراً قيقاً . ومن أجل هذا
أصبحوا متفقين في بعض الأمور ، ومختلفين أشد الاختلاف في أمور أخرى .
ولكن أقل ما يقال إن المثل الأعلى الذي يترسمه العلم يدنا على الطريق الذي
ينبغي أن نسلكه لتلطيف حدة هذا الاختلاف ، وهو أن نزيد عدد الحقائق
اليقينية ، وأن نعمل على إذاعتها في الناس ، وأن نطلب إلى العقل في جميع
المناظرات مبدأ الوئام والاتفاق .

والمعنى الثالث الذي يتضمنه العلم هو احترام حرية الفكر ، والاعتقاد بأن

الحرية هي الشرط الضروري لكل تقدم . ومراقبة نعم أنه حتى دائماً يعلمنا عن روح الضمير والاضطهاد ، وأنه جعل الحرية قانونه ، واعترف بها للجميع من غير استثناء . كثيراً ما نرى من أصحاب العقائد الدينية أو المذهب السياسية من لا يترددون في استعمال العنف في الدعوة إلى آرائهم أو النيل من خصومهم . كم من نفوس أزهقت من أجل « الصليب » أو من أجل « الأهلل » ! ولكن هل أزهقت نفس واحدة من أجل نظرية فيثاغورس أو قانون الأجسام الطافية ؟ وكم من دماء أهدرت من أجل « الفاشية » أو من أجل « الديمقراطية » ولكن لم تهدر قطرة دم واحدة من أجل قانون الجاذبية أو قانون السبية .

ذاك أن بين العلم والحرية وحدة لا تنقسم عراها . فبينما نرى العقائد والمذاهب تعتمد في الغالب على العنف والاكراه ، نرى العلم يظل دائماً نقي البدين من الدم المراق ، ونراه مستغنياً عن تأييد السلطات أو ماصرة الأغلبية ؛ لأن له من فصائله الخاصة ما يكفل له الغلبة والذوب ولو بعد حين . وإذن فكرامة الفكر والوثام والحرية هي المبادئ الثلاثة التي تقوم عليها أخلاقيات العلم . ولو أنصت الإنسانية لهذه المبادئ لذهبت الحروب ، ومُتْلَم الاجتماعية ، واستغفل الإنسان للإنسان ، ولقضى على عهد المؤس والجهل ، ولانتهت جميع صروب الطغيان التي تزهق حياة الأفراد وحياة الشعوب .

ومن أجل هذا وجب أن نتساءل : ألمضى في استخدام العلم في محاربة العلم ؟ أم نصت إلى ما يقدمه لنا العلم من هداية أخلاقية ؟ ويجب علينا أن نحترق الآن ؛ فقد اهتزت أرجاء العالم ولطخ بالدم أديمه في زلزال هو أشد هولاً من كل ما عرف من قبل . وما كادت الإنسانية المكروبة تنفخ من هذه الغمة حتى أخذت تنامس السيل إلى درء كارثة جديدة ، وهي عالمة أنه لا بد لتثبيت السلام الدائم ، وتنظيم التعاون بين الأمم ، من لاهدء إلى مبادئ أخلاقية يدين لها الناس جميعاً بالقبول . والعلم يكفل للناس هذه المبادئ التي توحهم إلى أرفع ضروب النشاط ، وتدعوهم إلى التسامح ، وتجعلهم إخواناً متحابين .

فهمه أمين .

جان پول سارتر ومواقفه الفلسفية

الخيال وموضوعاته

نشر سارتر في أبريل عام ١٩٤٠ في عدد خمس سنوات من ظهور كتاب «الخيال» بحثاً جديداً سماه «الخيالي»^(١). ويلاحظ مطالع هذا الكتاب اختلافاً واضحاً بينه وبين الكتاب السابق مع أنه جاء مكمل له : الأول يثير مشكلة والثاني يحلها . والاختلاف ظاهر لا في الأسلوب وحده بل في طريقة العرض أيضاً : في الأسلوب ، إذ بينما كان سارتر يعبر في «الخيال» كغيره من الفلاسفة تعبيراً فيه دقة عقلية وحذف مطلق ، نجد أسلوبه في «الخيالي» أقل دقة من الناحية المنطقية وأكثر تسكلاً من الناحية الفنية ، يعتمد إلى التشبيهات الجميلة وإلى ألوان مختلفة من الجناس والالطاف . ثم في طريقة العرض : في نوع الأمثلة التي يختارها ونوع الحجج التي يدلي بها سواء لدعم موقفه أو لزعزعة مواقف الآخرين ، وفي نوع السكتب التي ينتقدها أو يثني عليها : بينما كان «الخيال» يظهر إلماً دقيقاً بالمواقف الفلسفية الرئيسية قديمة أو حديثة إذا ما الكتاب الجديد يهمل تاريخ الفلسفة إهمالاً تاماً . وبينما كان سارتر في «الخيال» يسوق القارئ إلى نتائج نقده سيافة عقلية منظمة ، نجده في «الخيالي» يصل بالقارئ إلى نتائج لا يعده لها إعداداً كافياً .

التضح لسارتر ولغيره من الفلاسفة المعاصرين أن فئة ميداناً جديداً للبحث اكتشفته المدرسة الألمانية المعاصرة التي يتزعمها هوسرل : حمل ممثلو هذه المدرسة ، بعد تخطيط عام لموضوع الفلسفة ومنهجها ، على الدخول في تفاصيل دقيقة لطيفة أهمها ما يتعلق بفعل الإدراك الحسي ومشكلاته المختلفة ولا شك

L'Imaginaire (N.R.F., 1940). (١)

أن هذه الدراسة كانت حيرة ما يعمد البحث في الخيال ، سواء لتقارب مشكلاته من مشكلات الإدراك الحسى أو لما يبدو من التعارض الصريح القائم بين موضوعيهما . ولكن بالرغم من إشارات قيمة وردت بهذا الصدد عند هوسرل مؤسس « الفينومولوجيا » ، يلاحظ سارتر أن لا نجد عنده بحثاً مستفيضاً في مسألة الخيال ، يمكن موازنته بالدراسة التي قام بها للإدراك الحسى ، والتي جعلته جديراً عند المحدثين باسم فيلسوف الإدراك الحسى ، بل نجد بالرغم من الإشارات السابقة لا يتعدى في نتائج تلك التي وصل إليها المحدثون من ديكارت إلى برحسون ، وهي نتائج لا يظهر فيها بدقة كافية التمييز بين الإدراك الحسى والخيال ، مما يترتب عليه كما وضحنا ذلك في مقال سابق أن تبقى مسألة الحقيقة الخارجية بين المسائل المتعذر حلها . ويخلص سارتر في كتاب « الخيال » إلى أنه من الضروري القيام بوصف جديد لفعل الخيال وموضوعاته ، يحاكي في دقته وتفصيله الوصف الذى قام به هوسرل للإدراك الحسى . هذا الوصف الجديد هو موضوع كتابه « الخيالى » الذى ظهر شهراً واحداً قبل الهدنة .

نلاحظ أن سارتر في سبيل توضيح خصائص الخيال ، يعمل من ناحية على مقارنته بغيره من أفعال الشعور ، سواء ما كان بينها أدنى منه أو أعلى في مراتب الحياة العقلية ، ويعمل من ناحية أخرى على تعيين الكيفية التى تمثل بها الموضوعات للخيال ، أو بتعبير آخر ، يعمل على وصف خروج فعل الخيال عن الذات ، واتصاله بالموضوعات ، وتأثيره فيها ، وتغييره من معالمها ، بحيث تصبح متميزة تميزاً تاماً عن الموضوعات الخارجية المحسوسة بالمعنى الدقيق . وقبل أن نتبع سارتر في وصفه هذا يحسن بنا أن نقول كلمة عامة عما يعنيه بالخيال وموضوعاته ، لما كان لموقعه من الطرافة والجدة بالنسبة لمواقف الفلاسفة بهذا الصدد وعلماء النفس .

فمن شأنه إجماع عند الفلاسفة على اعتبار الخيال فعلاً تظهر في الذهن بمقتضاه نسخ الموضوعات المحسوسة ، ثم ترجع هذه له مرات كما لو كانت ترجع للذهن الموضوعات المحسوسة ذاتها . أما سارتر فيعارض هذا أشد المعارضة ، وهو في معارضته قريب جداً من موقف شائع عند الناس وخاصة بين رجال الفن والنقد العنى ، وهو أن الخيال يعدنا أشد البعد عن الحقيقة الواقعية ، وأن موضوعاته غير موجودة على الإطلاق ، تصدر في الذهن وحده ، عن قدرة الذهن ذاته ،

وإن كان لها من الخصائص ما يجعلها تحاكي موضوعات العالم ، ومن التغير في النفس ما يجعلها تفوق تأثير هذه الموضوعات في النفس .

وإذا كان سارتر كما ذكرنا في المثال السابق يعرف الخيال بأنه فعل بقصد الموضوعات المحسوسة من حيث إنها غائبة عنا ، فهو لا شك أقرب لهذا الموقف منه إلى موقف الفلاسفة ، ولا شك أنه يعنى بالخيال تيمراً من الواقع ، وبالخيال موضوعاً لا يختلف في شيء عن موضوعات القصص والأحلام . ولكن لا شك أيضاً في أنه يصل في وصفه إلى تنبؤ إن كانت متنافرة مع مواقف الفلاسفة ، فهي بعيدة أيضاً عما يصل إليه أو يتصوره عامة الناس . والخيال مركب في نظره من جملة عوامل تتحد فيها بينها على نحو غريب . ووصف سارتر لكل من هذه العوامل لا شك مبالغ فيه ، ولا يتفق تماماً مع ما نشعر به في حياتنا النفسية المعتادة . ويفترض الخيال موضوعات غريبة أيضاً . وقيل ما يمكن أن يقال عن الخيال أن له منطقاً غير منطق الانفعالات الشعورية التي نعرفها سواء كانت إدراكات حسية أو تصورات أو أحكاماً ، منطقاً يدخلها في عالم جديد غريب لم فيه الموضوعات معاملة غريبة شاذة ، بقدر ما كانت معاملتنا للأشياء الواقعية عادية خاضعة لمنطق هذه الموضوعات .

ولا شك أخيراً في أن وصف سارتر إن كان غير متفق مع ما نعرفه في أنفسنا أو عن الفلاسفة من الخيال ، فهو من ناحية وصف شائق له قيمته ، قيمة فنية أكثر منها علمية ، وله ما يبرره فلسفياً من ناحية أخرى ، من حيث إنه جزء لا يتجزأ من فلسفة لا يعرض لها سارتر في بحر « الخيالي » وإن كان يلمح لها تلميحاً في صفحاته الأخيرة .

وسنعرض الآن بإيجاز لمراحل وصفه هذا ، تاركين لقراءة أخرى النكاح مما يرتبط بهذا الوصف من النتائج الخاصة بطبيعة النفس وبمشكلات الفلسفة العامة .

الخيال والمعرفة

من البديهي أنه لا يمكن لنا تخيل ما نحمله بالمرّة ، بل لا بد من أن يكون لدينا عن موضوع ما ، علم معين قبل أن يصح موضوع حيالنا . ولكن لا بد

من ناحية أخرى أن يكون هذا العلم بحيث نأى عليه خيالاً ، أو بتعبير آخر بحيث ينتقل الدهن فيه إلى مرحلة يصبح فيها خيالاً أو على باب الخيال . وليس من الأمر الهين أن نأمر حالة مثل هذه ، حالة انتقال لا يكاد يقف عندها الدهن ولا يكاد يشعر بها ، ويعجز الوصف السيكلولوجي عن البلوغ إليها . وربما كنا أسعد حظاً لو عملنا على مقارنتها بما نعرفه عن أحوال أخرى مماثلها ، وهذا ما يقوم به سارتر في هذا الصدد عندما يقارن بين العلم الذي يسبق الخيال ويُعِدُّه ، وبين حالة من يطالع مثلاً قصة جديدة ممتعة تملك مشاعره .

نجد أن ما يرويه لنا القصص من الحوادث ، له علاقة وثيقة بعالم لا يصنفه لنا مباشرة ، وإن كان يشير إليه إشارة مستمرة . ويُشعرنا المؤلف لا بما يحدث لشخصيات القصة فحسب بل بتطورهم في عالمهم ، وما يعملون فيه من الأحداث مما يسبب في هذا العالم من تغيرات طفيفة أو جسيمة . زد على ذلك أن ألفاظ القصة وتعبيراتها تعني في الغالب حوادث واقعية لا ممكنات فحسب ، كما هو الأمر فعلاً في ألفاظ وعبارات منشور دوري وما شابه ذلك من الأوراق الرسمية : ففظة « منزل » مثلاً لها دلالة محتملة إذا ذُكرت في منشور لوزارة الداخلية خاص بأصحاب المنازل وحقوقهم وواجباتهم أمام القانون ، وإذا ذُكرت في بحر القصة في جملة مثل هذه « غادر المنزل في الساعة العاشرة » . فالاسم يشير في الحالة الأولى إلى علاقة ، أو علاقات كثيرة مختلفة ممكنة ، على حين ينطلق معنى الاسم في الجملة الأخيرة على شيء واقعي ، وإن كنا عاجزين عن إدراكه وتصوره . فثمة فارق واضح إذن بين العلم الذي ينقل من الاسم إلى دلالاته العامة ، والعلم الذي يعطي مباشرة للاسم دلالة واقعية .

ثم نلاحظ عند قارئ القصة أنه غالباً لا يكتفي بدلالة الاسم ، حتى دلالاته الشخصية الواقعية ، فنجد الاسم يمثل له شيئاً معيناً في قيامه الوجودي . أعني أنه يلتقي أثناء مطالعته ببعض عبارات تقوم دون غيرها بخدمة محسوسة جزئية . فمثلاً عند ما يقرأ « امرأة جميلة » فسكأنه يرى بالفعل امرأة جميلة ، وكأن الكلمة المطبوعة رسمٌ يدعو القارئ إلى توقع امرأة جميلة .

هذا شيء عن العلم الذي يسبق الخيال في نظر سارتر ، أو بتعبير أدق الذي يُعَدُّ الفكر في نشره لتصور الموضوعات تصوراً خيالياً . ولكنه ينهنا إلى أن هذا العلم السكامن ، أو على حد تعبير أرسطو هذا العلم « بالقوة » ، ليس ما نسميه

بالصبط خيالاً ؛ إذ قد ما تقوم في ذهن المطالع المنته لقصة صوراً خيالية على النحو المؤلف ، ولا تقرأ له صور الخيال إلا في الفترات القائمة بين مطالعات للقصة . أو عند من يطالع القصة بقليل اهتمام . وغلب الأمر أننا إذا عهدنا أثناء مطالعتنا إلى تصور ما يحدثنا عنه القصصى تصوراً خيالياً ، فلا بد لنا من ترك الكتاب جانباً والاسترسال في الخيال . ما الذى يطالع بانتباه فهو يعلم ما يقع من الحوادث علماً معيناً ، ويقف عند مرحلة معينة من هذا العلم ، ولو أنه قد يبتثق العالم عنده بعد ذلك في صورة خيال رائع أو حلم بعيد القوة .

وما ذكرناه الآن عن مطالع لقصة يطبق على حالات أخرى نعرفها . مثل تلك التى تكون عند ما يطالع جريدة أو عند ما يقص علينا صديق حدثاً وقع له ، أو عند ما نفكر فيما يجب عمله له ذية مهمة ما . وحياتنا العقلية والعملية تحمل ألوأنا من هذا العلم الوقعى الذى يختلف كل الاختلاف عما نحدثه في كتب الرياضيين و الفزيقيين من ناحية ، وفي منشورات الحكومة وقوانينها من ناحية أخرى . ولكن هذا العلم إن اختلف عن علم كله دلالات جبرية أو منطقية فله يصح بعد خيالاً بالمعنى الدقيق ، بل نحن فيه كما يقول سارتر « على حافة الخيال » أو كما يقول سباير Spair في « فجر الخيال » . ولا بد إذن من عامل جديد ينتقل بنا إلى التصور الخيالى الصحيح .

العاطفة

ما العامل الجديد ؟ ما الحد الأوسط بين نعم والخيال ؟ يرى سارتر أن ما يجعل من موضوع معلوم حسب موضوعاً حاضراً للذهن بقوته وحيويته دون أن يكون محسوساً ، هو عامل عاطفى . وليس بالأمر العجيب أن نقرر أن العاطفة تقوم بدور هام في تصورات الذهني المختلفة ونكسبها حرارة ونشاطاً غير عاديين . ولكن يذهب سارتر إلى أبعد من ذلك فهو يفترض أن العاطفة ذاتها تصور ، لها ما للتصورات الذهنية المختلفة من الاتجاه نحو الموضوعات ومن التعلق بالموضوعات .

نظر علماء النفس حتى السنين الأولى من القرن العشرين إلى العاطفة على أنها هزة داخلية حسب ، قد تفتأنا أحياناً تحت تأثير تصورات خارجية ، وننساباً

في أغلب الأوقات تحت تأثير عوامل باطنية حسيمة أو غير حسيمة . العاطفة حال فردية داخلية ، إن دلت على شيء ، فعلى طبيعة الشخص لا على أي موضوع خارج عنه . وقد قامت الفلسفة الألمانية المعاصرة مع هوسرل وشيلر وغيرها ضد هذا الرأي ، فاعتبرت أن العاطفة من حيث إنها مظهر من مظاهر الشعور تحمل ضرورة ما للشعور من الخصائص الجوهرية ، نهما أن كل شعور متعلق بموضوع ما ، وأن هذا التعلق ، أو هذا القصد intentionnalité يتغير حسب أفعال الشعور المختلفة ، لا إدراك الحسي إدراك لموضوع محسوس ، والحكم متعلق بموضوع محكوم عليه ، والرغبة بمرغوب فيه ، والإرادة بمراد . ومن ثم فالحب أيضا موجه إلى موضوع محبوب ، والبغض إلى شيء نبغضه . ولا يحد من بحث الفيلسوف في التمييز بين أفعال الشعور المختلفة ووصف ما تحمله من الخصائص الجوهرية ، بل عليه أن يصف مع فعل الشعور المقصود ، إدراكا حسيًا كان أو حكمًا ، كيفية اتجاهه نحو موضوعاته وخصائص موضوعاته من حيث تعلقها بالشعور ، أي كيف تمثل له وما يظهر له من خصائصها .

عني سارتر بدراسة العاطفة على ضوء المبدأ السابق ، نخصص لها كتيبًا (١) ظهر في سنة ١٩٣٩ ، سنة واحدة قبل « الخيال » ووضح في البحثين وجه العلاقة بين العاطفة وموضوعاتها ، وضرورة التمييز بين هذه العلاقة وبين المعرفة الجلية المتميزة للموضوعات . فالعاطفة تتطلب أن يمثل موضوعها لا من حيث إنه هذا الموضوع أو ذلك حسب ، بل من حيث إن الموضوع يؤثر في الشعور على نحو معين يجعله يحتمل الموضوع ذاته ألوانا مختلفة من العاطفة يعبر عنها بلفاظ كالحمل أو الرشق ، أو الجذاب أو المخيف . وتبدو لنا علاقة الخيال بالعاطفة وثيقة إذا نظرنا على ضوء ما ذكرناه الآن إلى بعض أحوال خاصة : قد نستيقظ في الصباح وبنا حاجة قوية لشيء لا يمكن أن نقول ما هو بالضغط : هل هذه الحاجة جوع أم ظمأ أم رغبة في رؤية شخص ؟ غير أن هذا العجز لا يمنعنا من توجيه ذهننا توجيهًا خاصًا . وبينما نحن شاعرون أن ما نرعى إليه ليس أمامنا ولا يمكننا الحصول عليه بالفعل ، نجد أننا نعمل على الحصول عليه بطريقة أخرى تحاكي وتنافي في الوقت ذاته طريقة الحصول على موضوعات

الحس تدريجية . يقوم إذن في مثل هذه الرغبات بمجهود نحو الحصول على موضوع خارجي ، بمجهود يقوى ويشتد بقدر ما يضعف أملنا في إدراكه على النحو الواجب ، أي في إدراكه إدراكاً حسيّاً ، ويتضمن إذن هذا المجهود لاستحضار الموضوع غياب الموضوع . وإن فكّرنا فيما عرّفنا به الخيال من أنه حضور موضوع مع غيابه وفي غيابه ، تحقّق لنا أن العاطفة من حيث ذاتها ومن حيث هذه القوة الداخلية التي تحملها وتجسمها وهي الرغبة ، هي دون شك عامل أساسي في قيام خيال في الذهن .

والأمر بديهي إذا فكّرنا في أن موضوعات الإدراك الحسي عند حضورها ، بالتعب مأمنا ، كثيراً ما تكتسب لواناً عاطفية تبقى ملازمة لها في الذهن بعد غيابها عن حواسنا ، حتى إن عودة العاطفة وحدها تبدو بشيرة بعودة الموضوع ، بل تحمل الموضوع ذاته دون أن يتبينه الشعور في وضوح تام . وإذا كان رجوع العاطفة الأصلية على نحو لا يعوق انتباهنا لما في النفس من أحوال ولما يظهر فيها من موضوعات ، انكشف لنا الموضوع الغائب ودخلنا من ثم في مرحلة الخيال ، بالرغم من أن ما يحضر لنا من الموضوعات في هذه الحالة ليس من الوضوح بحيث تتميز عناصره وتنفصل أجزاءه أمام الذهن ، أو بحيث يتميز خيال معين عن غيره من الخيالات . وقد يبقى الكثيرون في هذه المرحلة الخيالية تتحد فيها تصوراتهم بعواطفهم ، دون أن يشعروا بشبه ما بين موضوعات خيالهم وبين موضوعات العالم الواقعي التي تظهر لهم وللآخرين على حد سواء . ويقول ستندھال في هذا المعنى : « أرى صوراً و تذكر تأثيرها في قلبي ، أما عن علمها وشكلها فلا أعرف شيئاً . أرى سلسلة من الصور دقيقة جداً ، ولكن لا شكل لها غير ما ظهر لي ، بل لست أرى هذا الشكل إلا عن طريق ما أحدثت ذكره من الآثار في نفسي . »

منطق الخيال

إن عملنا التفكير في الخيال وفي كيفية مثول موضوعاته في الفكر ظهر كأنه يتضمن تناقضاً صريحاً : يبدو من ناحية أن موضوعاته لا تحمل إلا خصائص حسية ، ويتضح من ناحية أخرى أن ما تتخيله لا تذكره الآن بحواسنا . بديهي

أن موضوعاً ما إما حاضر أو غائب ، ولكن الموضوع الخيالي حاضر غائب ،
مثل أمام لذهن بالرغم من غيابه بل في غيابه . إن عملنا البحث في معنى هذا
التناقض وحدنا أنه يرجع إلى ما ذكرنا عن العاملين السابقين وإلى التفاوت القائم
بينهما : عامل معرفة وعامل عاطفة ، ما يرمى إليه الذهن وهو على «حافة الخيال» ،
نعم ما يحضر له بمقتضى الرغبة والعاطفة .

لنوضح ما نقوله هنا بمثالين أو ثلاثة : بناء « البانتيون » لمن يدركه الحس
مركب من عدة أجزاء لا يمكن للإنسان أن يدركها دفعة واحدة ، وتتطلب
لا لحظات زمنية مخلقة بحسب بل تعدداً لمواقف المتفرج بالنسبة للبناء . ولبناء
حصائن حسية كاللون مثلاً تتطلب هي أيضاً تعدداً لمواقف المدرك ، وتحمل
في ذاتها اختلافاً بحسب تغير موقفه : فمثلاً إن كانت أعمدة مقدم البناء تبدو
لداخل ذات لون رمادي قائم فهي تظهر له من الخلف رمادية ضاربة إلى البياض
وهكذا . . . أما ما يمثل للخيال من البناء فغير هذا كله . نعم أريد تصور البناء
المدكور كما ذكرت ، لكن شيئاً من تفاصيل ما أدركته لا يمثل لي في الخيال .
نعم ، قد أتصور مقدم البناء وأعمدته ، ولكني لا أعرف عدد هذه ، ولا
أستطيع تقدير المسافة بين كل منها والآخر ، بل لا أستطيع أن أؤكد أن بينها
مسافة . أما عن اللون فهو رمادي متجانس لا أميز فيه بين لون الأعمدة من
الأمم ولونها من الخاف . ثم لا تتطلب العناصر المذكورة فعلاً خيالية متميزة ،
كما تطلبت فيما سبق إدراكات حسية مختلفة ، بل المقدم والأعمدة والبناء كله
خارج وداخله ، الخلف والجواب ، كل هذا يظهر للذهن خالياً من التفاصيل ،
فقيراً في المميزات ، ولكنه يظهر دفعة واحدة وكلاً متكاملًا .

أريد أن أتخيل صديق فلان كما هو في منزله الريفي ، ولكنني ألقاه في
ذهني ، لا في الريف ، ولا في المدينة كما رأيته فيها منذ أسبوع ، ولا في غرفته
الخاصة ، إنما ألقاه جامعاً لما كان عليه في الأمكنة الثلاثة ، حزيناً كما كان منذ
أسبوع يتنزه في حديثه الريفية ، وهو لا يسرداء الداخلي . هناك إذن بين
ما أريد تصوره في الخيال وبين ما أنصوره بالفعل تناقض يفسره التفاوت بين
عمي بالموضوع قبل الخيال وحضور الموضوع في الخيال .

وقد تذهب غرابة الخيال إلى أبعد من هذا ، فكثيراً ما نتخيل شخصاً
لا نستطيع تعرفه مباشرة : هل هو الموظف الكبير الذي قابلناه أمس بمكتبه

لأول مرة؟ أم هل هو رجل الـ «وايس» الذي وقف سيراكسا في الطريق؟ لاحظنا بعد التفكير أن الموضوع الخيالي مزيج من الاثنين. وكثيراً ما نرغب تصور الأول فيتمثل لنا الثاني، دون أن نرى لذلك سبباً، وإن كان الأمر يرجع في الحقيقة لعوامل عاطفية لا تنبئ لها في حينها.

يتضح إذن من هذه الأمثلة ومن غيرها أن الخيال يجمع على نحو لا يفهمه العقل بين حصائص منفصلة في الحس لا يمكن إدراكها دفعة واحدة. فإن آثارنا إلى قمع الخيلة استرعى نظراً لقطع من حسنة لأسطواني أو بطله المقعر، ولكن يتمثل القمع في الخيال أسطوانياً في الظاهر والباطن، عميق القناع في الوقت نفسه. ولكن بين ما يعرض له سارتر مثالان أو ثلاثة على الأقل يذهب به تخيله لها إلى مقارنة موضوعات الخيال بموضوعات الفكر البدائي الذي كان وما زال يؤمن بقوى سحرية قائمة في العالم. وسكاد الناس في هذه الأمثلة أدلة قوية على أن العقل الإنساني في ناحية من نواحيه على الأقل لا يختلف عن العقل البدائي ولا يمتاز عليه. فإن كما ننظر للوحة ريتية لمصور شهير تفتش رجالاً عاش منذ قرون، فسيستجبه ذهننا أحياناً من الصورة إلى نموذجها الشخصي، وقد نسي إذ ذاك أن هذا الوجه وتقاسيمه وما ينبعث منها من قوة عجيبة، وأن هاتين العينين اللتين تصويان لنا نذرة حادة، قد نسي أن كل هذا يخص جسماً قد ووري التراب منذ أمد بعيد، فيبدو لنا أن نموذج الصورة أمامنا رجل «يزور» صورته ويملؤها حيوية. ويذكرنا هذا الموقف بما كان يعمل به أعداء المسيحية، في القرون الأولى من انتشارها، من ضربوب الشعوذة سواء بتدنيس الصور المقدسة أو بتكسير الأصنام، ويذكرنا أيضاً بما يقوم به بعض قدامى الهنود الأمريكيين في سبيل نجاح الصيد من أعمال غريبة كرحل صور الحيوانات الموحشة على جدران أكواخهم.

ويحدثنا سارتر عن مسرح في باريس ينتشر فيه مقلد عجيب للمغنى ونهرج الفرنسي الشهير موريس شقالييه يحيل للمتفرحين عند رؤيته أنهم أمام شقالييه ذاته، كأنه يستحضر شقالييه، كما يستحضر السحرة رواح لغائبين، وكما لو كانت شخصية شقالييه قد «زارت» المقلد دقائق قليلة. موقف غريب للخيال لا يختلف كثيراً عن موقف البدائي الذي يعتمد في بعض الحفلات على ضرب عادة من التقليد، بغية أن يستحضر أرواح حماة القبيلة.

جال بول سارتر ومواقفه الفلسفية

هذا شيء من طرائف الخيال يدلنا على أنه يختلف اختلافاً واضحاً عن أفعال
الشعور الأخرى وعن الإدراك الحسى والتصورات العقلية ، له منطق ، منطق
أشبه بقواعد السحر والشعوذة منه بقواعد المنطق الذى يخضع له العقل السليم ،
وبقواعد المنطق الواقعى الذى تخضع له موضوعات الإدراك الحسى . إن فعل
الخيال على قول سارتر « رقية يسادى بها الذهن موضوعاته فمناقداً له كما تنقاد
الصبية لعبها . »

نجيب بامرى

بين جيتي ونابليون

قال المتنبي في القصيدة التي ودع بها ابن العميد بعد أن أضافه في رُجّان :

تفضلت الأيام بالجمع بيننا فلما حمدنا لم تدمنا على الحمد

وكما تفصلت لأيام بالجمع بين شاعر العربية الكبير أبي الطيب المتنبي والوزير الكاتب الأديب ابن العميد ، فكذلك تفضلت مرة أخرى — على نخلها وشحها — فجمعت بين جيتي كبير شعراء الألمان والشخصية الشاحمة المنيفة في أدبهم ، ونابليون بونابرت أعظم عمقيرة عملية عرفتھا العصور الحديثة في تقدير الكثيرين . ولم يسفر تلاقى هذين الرحلين العظميين عن تتأع ذات نال ، ولم يأت بخير يذكر ، ولكن مجرد تماس هذين العالمين الضخمين من عوالم لروح : عالم لفكر الواسع ودنيا الخيال الرائع ، وعالم الواقع الخاف ودنيا الأعمال الجلييلة ، مما يسترعى النظر ، ويشير الفكر ، ويحرك خيال ، بل هو حادث لا نسخر به الأقدار إلا في الفلتات النادرة ، وربما لم يكن له نظير منذ تلاقى الإسكندر وديوجانس .

كان جيتي حينذاك يهدف للستين وقد علت مكانته الأدبية وسارت شهرته مسير الشمس ، وكان نابليون في الأربعين من عمره وقد بلغ ذروة القوة والنفوذ . وكان جيتي على شهرته وسمو مكانته الأدبية أحد أفراد شعب مغلوب على أمره ، مصدوع الوحدة ، ممزق الاوصال ، ولكن مجده الأدبي كان ثابت الدعائم موطن الأساس ، وكان نابليون في ظاهر الأمر سيد الموقف ، ورجل الساعة ، قد انتصرت جيوشه المظفرة على الألمان ، وأذاقتهم ذل الهزيمة ، واستباححت حمام ، ولكن رغم ذلك المظهر الخلاب ، والجاه العريض ، والنفوذ المتراخي ، كان يساور نفسه قلق داخلي ، وكان يعلم في أعماق سريرته أن إمبراطوريته قائمة على كتمان من الرمال ، وأنه يبتنى القلاع في الهواء ، وأن القدر قد يستقبله بمعضلات

بمعززه علاجها . ولم يكن نابليون بحكم طبيعته العملية كثير الإعجاب برجال الأدب ، وكان يعرف صانعهم ، وقرط إعجابهم بأنفسهم . وقد كتب مرة إلى أخيه جوزيف ملك روما : « أنت تكثر من الاجتماع برجال الأدب والاطلاع ، وهم كثرو الدلال ، ويحب على الإنسان ألا يحلم بأن يتخذ منهم زوجة أو وزيراً » . ولكنه كان في موقف يستدعي الاستعانة برجال الأدب لملء الفراغ ، وتزجية الوقت ، وهكذا يستذل الحرس على الدنيا أعناق الرجال ولو كانوا من طراز نابليون . وكان جيتي يحترم لجندية ويكبر من شأن الرجال العمليين ، ولم يكن جيتي بحكم عمله في وعمار من المنصرفين عن الدنيا ، المنقطعين لحياة الفكر والتأمل ، ولكنه برغم ذلك كان رجل دراسة واطلاع وتروية وتفكير ، فهو يحترم رجل العمل ويعتبره أسمى منه شأنًا . وقد دفع المتنبي اعزازة بنفسه الى أن يقول :

شاعر المجد خذته شاعر اللقب — حفظ كلانا رب المعاني الدقائق

أما جيتي فكان يرى أن شاعر المجد — وهو هنا نابليون — أجل شأنًا من شاعر اللقب ، وأن مكانة السيف أجل وأخطر من مكانة القلم . وقبل أن ذكر رواية جيتي عن هذا اللقاء سأشير إلى بعض الملابسات الخاصة التي أحاطت به ، وسيعيننا ذلك على تبين حقيقته وتفسير غوامضه . كان نابليون في تلك الفترة يلقي الشدائد من مقاومة الإسبانيين له ومردم عليه ، وقد اضطره ذلك إلى الاحتفاظ بجيش حرار في إسبانيا ، وكانت مقاومة الإنجليز له تزداد عنفاً واتساعاً وإصراراً وعناداً ، وقد اجتذبوا الأتراك إلى صفوفهم ، وبدأت تنتقص عليه هولندية وإيطاليا وسويسرة ، وشرع النمساويون يستأنفون استعدادهم الحربي . وكان نابليون يشعر بأنه في حاجة إلى الإيمعان في استرضاء قيصر روسيا — الإسكندر الأول — والتقرب منه وتقوية اتفاق تلت ، وكان يرمى إلى هدفين : إخافة النمسا ، والاستيثاق من ولاء الإسكندر ، وقد عجم عوده في تلت فوجده صلباً لا تلين قناته ، وكان يكفيه منه أن يلتزم الحياذ فلا ينحاز إلى صفوف الأعداء . ولكن هل يصارحه بهذا الغرض المتواضع والمطلب اليسير ؟

استدعى نابليون نابليون قبل ذهابه إلى إرفرت - مسرح هذا اللقاء التاريخي - وقال له .

« إعتقد لي معاهدة ترضى القيصر الإسكندر وتكون موجهة قبل كل شيء ضد إنجلترا ، وعليك أن تذهب إلى إرفرت قبل قدومي بيوم أو يومين ، وأن تزور القيصر مباشرة ، وعليك بوجه عام أن تكثر من زيارته أثناء وجودنا بإرفرت ، وأنت تعرفه معرفة جيدة ، وتفهم كيف تعامله ، وأطلع معه الحديث عن تحالفنا ، وكيف يمكن أن يلمح فيه أصبع العناية التي تعمل لإيقاد الإنسانية . واحمله بى أننا نحن الاثنين - الإسكندر وأنا - قد أعدنا القدر لحفظ النظام فى أوروبا . وعليك كذلك أن تتحدث إليه عن رأى العام وكيف توجهه حتى يرى أن اتفاقنا لا يثير الخوف بل يخففه ويلطفه . ثم قل شيئاً عن تحسين أحوال القارة عامة وعن بركات السلم ، وأشر فى خلال ذلك إلى اليونانيين الذى يتطلعون إلیا لتحريرهم . فهذه أفكار إنسانية يجب - كما تعلم - أن يسمعها وأنا أفوض إليك الأمر يا نابليون تفويضاً تاماً فقم به خير قيام . »

وأراد نابليون أن يظهر فى إرفرت بمظهر حاذق الرويق بالغ أقصى حدود الفخامة والروعة ، وكان لا يفتأ يقول لمستشاره : « يجب أن تكون رحلتى لماعة ألفة ، وأن أقيم فى كل مساء بإرفرت حفلة تمثيلية . وبنى ريد أن يهر نظر ألمانيا وأخلىب لبها بالروعة والجلال والفخامة . »

وجمع حوله قواده المعروفين الذين اشهر أمرهم بين الألمان ، وسائر دعاة دولته وحمة ألويته . وكان يعتقد أنه متى وفق فى إحداث التأثير اللازم فإنه يستطيع بعد ذلك أن يفعل بأسبانيا ما يريد ، ثم يفرغ لمجاهدة الإنجليز وكسر شوكتهم . وقد دخل نابليون إرفرت يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٠٨ فى الساعة العاشرة صباحاً ، فاستقبلته المدينة استقبالاً فخماً ، ووقفت الجوع المتراسة فى الشوارع والطرقات وفى الميدان الذى كان به انقصر المعد لتزوله ، وكان كل إنسان يريد أن يملأ عينيه ما وسعه الإمكان من هذا الزجل الذى ثل العروش ، ولعب بالتيجان ، وقهر الحبايرة ، ودوح الجيوش ، والذى أصبح فى يده مصير أوروبا وخيرها وشرها وسعدها وشقاؤها .

ولم يعجب هذا لمظهر داهية لسياسة الباقعة ناليران فكاتب عنه في مذكرته يقول : « لم أرى إرفرت كيف يتملق الدهاء والأوشاب رحل القوة وصاحب السطوة ورحقون مومه في التراب حسب ، وإنما رأيت كذلك كيف ينزل الأمراء الدين لالرون على عروشهم عن كبريائهم ، ويسفون ويهبطون إلى الملق الرخيص صوياً لعرشهم ، وإبقاء على سلطانهم ، وكيف يقبلون اليد التي قد تمتد في أي يوم من الأيام إلى تحطيمهم والقضاء عليهم . »

ومهما يكن رى السياسي المتشكك الساحر ناليران ، فإن المظهر في إرفرت كان ناهراً بديعاً ، فقد اجتمع هناك إمبراطور فرنسا وقيصر روسيا وأربعة ملوك وأمراء مقاسعات الزين وكثير من الدوقات والكونتات ، وكان الجميع يرفلون في وشى الدمقس ، ويخطرون في أجل البرود ، وقد ازدانت صدورهم بالأوسمة اللامعة ، وحملت المدينة الجمد في حلالهم المديحة ، وستراتهم البراقة المزخرفة ، وانتشر رجال الحرس الإمبراطوري وورق الفرسان والخيالة ، وفتح مسرح إرفرت ، وكان يقوم الممثل المشهور بلما وورفته تمثيل أجل المأسى القروسية في حضرة العواهل والملوك والأمراء ، وكان لا يرى في صحن المسرح سوى الأوسمة والنجوم والنياشين ، وقد وقفت على باب المسرح فرقة من الحرس الملكي ، وكلما قدم أحد الإمبراطورين يقرع الطبل ثلاث مرات ، وكلما قدم أحد الملوك يكتفى بقرع الطبل مرتين . وقد اتفق أن حضر ملك ورتمبرج في مركبة مطهمة فارغة ، فغر الحارس مظهره فأمر بدق الطبل ثلاث مرات ، فصاح به الضابط المشرف غاضباً : « اسكت فليس هذا سوى ملك ! » .

ولم يكن جيتي راغباً في الذهاب إلى إرفرت ، فقد بلغه قبل ذهابه إليها بأيام ساء وفاة والده ، ولكن دوق ويمار الذي أطلت حيتي سماؤه وحاطه برعايته ، استدعاه . ورى حيتي من واجبه أن يكون إلى جانبه في أزمته الحازبة وطروقه الخرجة ، وقد وصل إلى إرفرت يوم ٢٩ سبتمبر وحصر في المساء تمثيل رواية « أندروماك » .

وقال نابليون لتاليران بعد اجتماعه الأول بالقيصر في إرفرت : كل شيء على ما يرام ، ولا يجب أن تتعجل ، ولا تنس يا ناليران أن لتأخير في مصلحتنا ، فنمهل جهد الطاقة ، ويجب أن تفتن عظمى القيصر الإسكندر وتذله ، وستسير المفاوضات بعد ذلك في طريق سهل ممد . وكان نابليون يؤمن أنه ربما استطاع

أن يستعمل القيصر وبجمله على مؤازرته في رهيب النسا . ولكن مثل هذا الطلب الهين اللين لا يعبر عنه البسط ، وإنما يمكن تحقيقه بالمشاهد البارعة ، والمرأى الوضاعة في إرفرت . وكلما طال العرض وامتد الوقت تكاثرت مخاوف النمساويين الذين أبعدهوا باحتقار مهين عن حفلات إرفرت ، واعتقدوا أن هناك مخالفة جديدة بين الإسكندر ونابليون . وكان لابد من إنق الوقت وتنظيمه ، وتحاشى نابليون في الأيام الأولى الخوض في المناقشات السياسية ، وكان يطيل مدة تناوله فطوره ، ويستقبل خلال ذلك مختلف الأشخاص البارزين ويجاد بهم الحديث في عناية واهتمام .

وفي يوم ٢ أكتوبر استدعى جيتى للاحتفاء بالإمبراطور نابليون . وقد روى جيتى عن هذا اللقاء ما يأتي : « دعيت إلى المثل بين يدي الإمبراطور حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً ، وطلب إلى خادم بولندي قوى البنية أن أنتظر ، ثم دعيت إلى الجناح الذي يشغله الإمبراطور ، وفي ذلك الوقت ستأذن داري وسمح له بالدخول مباشرة ، وكان عني من أجل ذلك أن أنظر ، ثم أذن لي بالدخول مرة أخرى ، فدخلت ورأيت الإمبراطور جالساً يتناول طعام الفطور على مائدة كبيرة مستديرة ، وكان تاليران واقفاً إلى يمينه على مسافة قريبة من المائدة ، وكان داري واقفاً قريباً منه إلى اليسار ، وحلفه برتييه وسافاري ، فأشار إليّ الإمبراطور بالاقتراب فخلت واقفاً على مسافة مناسبة منه ، وبعد أن أتمت في قلريه قال : « أنت رجل » فأنخيت شاكرآ . فسألني : « كم عمرك ! » فأجبت : « ستون سنة » فقال : « أنت لا تزال محتفظاً بوناقة بيتك » . وسألني : « هل كنت ماسي ؟ » فأعطيته المعلومات الكافية في إيجاز . وهما تدخل داري في الحديث ليتملق الألمان بمعرفته لأدهم ، وقد تحدث عني كحديث أصدقائي في برلين ، وشرع نابليون يتحدث عن ورتز ورواية محمد والدراما الفرنسية ، ثم سألني هل أنت متزوج وهل لك أولاد ؟ وسألني عن بعض تفصيلات أخرى شخصية ، ثم سألني عن علاقتي بالبيت الحاكم وعن الدوقة آمالي وعن الأمير والأميرة وما إلى ذلك وأجبت الجواب الطبيعي ، وبدأ لي أنه قد سر بحديثي . « وفيما يحرص بحديثه عن ورتز قال جيتى : « بعد أن أئدى ملاحظات شديدة صائبة أشار إلى فقرات منها واستفسرني لماذا كتبها هكذا ، وإن ذلك مخالف للطبيعة ، وبسط رأيه في وضوح تام ، وأصغيت إليه في هدوء وأجبتة منتصاً إلى لم أسمع هذا الاعتراض

من قبل ولكي نراه حقاً . والعقرات التي أشار إليها في لواقع غير ضيعية ،
والسكن ربما يتسامح مع الشاعر إذا احتل حيلة تمسكه من الوصول إلى غرضه
« تسر السبل ، ثم عاد إلى موضوع الدراما ، وبدى عدم ارتياحه للأجزاء التي
يلعب فيها القدر دوراً » .

واستمر اجتماعها حوالي ساعة ، ويقال إنه لما برز جيتي الحجر المصب « ميون
إلى برتبه وداري وكرر قوله « هذا رجل » . ولم يسر نابليون في خلال الحديث
أن يقول له : « أطل يا مسيو جيتي أنك لا ترى بأساً في حضور تمثيل المأسى
الفرسية أثناء وجودك هنا » ، وأعد له تاليران في المساء محلاً مناسباً خلف الصف
الأول حيث كان يجلس حملة التيجان وعلية الأمراء

وتختلف رواية تاليران لهذا اللقاء الأول عن رواية جيتي ، ولم رد بها ذكر
مسألة « هذا رجل » التي أكثر من ترديدها الألمان مستدين بها عن قوة
شخصية جيتي وفساسة نابليون وألمعيته . وتاليران يقول : « في ذات صباح
تناول الإمبراطور قائمة الأحابي الدين قدموا ووقع على اسم جيتي ، فأصدر أمراً
بإستدئائه . فمادح جيتي دعاه الإمبراطور قائلاً : « يسرني أن أراك يا مسيو
جيتي » فجاهه جيتي : « يدهشني أن حلالكم وأنتم مسافرون تمدون متسعاً من
الوقت للالتفات إلى هذه الأمور الصغيرة » . وقد روى جيتي أن تاليران السحب
فقبل انتهاء الحديث . وربما يرجح هذا الرواية القائلة إن قول نابليون « هذا
رجل » كان في حاشية الحديث لا في أوله . ومن الغريب أنها لم رد كذلك في
رواية وللم فور هبولدت ، وقد أفضى إليه جيتي بما دار من الحديث بينه
وبين نابليون عقب الصرافه من حضرته . ويرى ورتر هيجيان — في كتابه
انقم عن نابليون — أن بيتشه وحندلف وإميل لدفع قد حملوا هذه الكلمة
كثير مما تحتمل ، وتأولوها تأويلاً بعيداً ، وإذا كانت قد قيلت حقاً فهي ليست
أكثر من قولنا « هذا رجل طيب » أو — إذا أردنا المداعبة في الثناء —
« هذا رجل شقي » أو « هذا غفريت ! » ويرى بعض الخبثاء أن نابليون قال هذه
الكلمة قبل أن يولد له ولي عهد بعدهم ، وكان حينذاك حريصاً على أن يسو عن
نفسه تهمة ضعف الرجولة

وخرج جيتي من لندن نابليون فرحاً مسروراً ، فكتب إلى كونا مباشرة
يقول : « يسرني أن أقرر أنه لا شيء أحل وأسعى أو أبعث عن الرضا والارتياح

يمكن أن يحصل لي أكثر من المثول بين يدي إمبراطور المرسيس . وبدون أن أذكر تفاصيل ما دار بيننا من الحديث أستطيع أن أقول إن الإمبراطور قد تلقاني بحفاوة لم أحظ بمثلها من أي أمير ، وكأنه كان يعطيني ما أستحق إذا أجرت علي أن أقول ما في نفسي .

وبعد ذلك بأيام قلائل دخل نابليون وبار وقيمت له احتفالات باهرة ، ومنلت علي مسرحها رواية « موت قيصر » وقم بتعميل دور برونس الممثل تالما ، وفي أثناء حفلة الرقص تحدث الإمبراطور طويلا إلى جيتي وويلاد الناقد الألماني المعروف ، وعرض نابليون الأدب القديم والحديث ، ولمس موضوع شكسبير لمسا يسيرا ، ولم يكن يميل إلى ذبه ، وقد قل لجيتي : « يدهشي أن رجلا راجع العقل مثلك لا يميل إلى صحب الآراء الحاسمة والألوان الوضحة » . ولم يرد جيتي علي ذلك ، واسترسل الإمبراطور بعد ذلك في الحديث عن المأساة وحث جيتي في النهاية علي أن يكتب مأساة عن « موت قيصر » يكشف فيها عن الخلل العظيم التي كان يرد قيصر تنقيدها لو مد في عمره ، واقترح علي جيتي أن يصحبه إلى باريس ، وذكر له أن مجال المشاهدة بها أوسع ، وأنه سيحدث هناك مادة عظيمة لخلقه الشعري .

ولم يكن جيتي قد رأى عاصمة كبيرة مثل باريس ولندن ، وكان في دعوة نابليون له ما يغريه بقبولها . ويروي المستشرق فون ميلار أن جيتي سأله عن التفقات اللازمة لهذه الرحلة ، وعن العادات المتبعة في باريس ، ولكن مشقة مثل هذه الرحلة - في تلك الأيام خفية - وسنه المتقدمه حالها دون الاستجابة لهذه الرغبة .

وفي يوم ١٤ أكتوبر تاتي هو وويلاد الإيعام عليهما بوسام الشرف الفرنسي ، وبرح الإمبراطور والقيصر إرفرت .

وقد التزم جيتي الصمت التام بخصوص ما دار بينه وبين نابليون . ولما سجل المحادثة بعد ذلك بأعوام طويلة سجلها موجزة ، وكان كل سئل عن الفقرات الواردة في ورتز التي أشار إليها نابليون وزعم أنها مناقضة للطبيعة الانسانية أجاب إجابة ماكرة عابثة ، وطلب إلى السائل أن يستعمل ذكاهه ، ويجرب براعته ، في الكشف عن هذه الفقرات ، ولم يكشف النقاب عن هذا السر البائع حتي لصاحبه وصفه إكرمان . وكان يروق جيتي في شبحو حته أن يحبط نفسه بالخفاء .

والعموس ، ويحمد متعة في الإشراف على المعجيين به وهم يحاولون حل لغازه
وجلاء مسائره . وقد رفع الغطاء عن حقيقة المسألة المستشار فون ميلر ، والنقد
الذى وجهه نابليون إلى ورتز هو نفسه النقد الذى أثاره هرذر حينما راجع
ورتز ، ومضمونه أن حزن ورتز الذى تَدَى به إلى الانتحار لا يمدو في القصة
أنه منبعث من الحب الخائب وحده ، وإنما قد اشترك معه الإخفاق في الطموح
وقد ذهب هرذر إلى أن هذا عيب فتى ، وثلث نابليون أن ذلك مخالف للطبيعة
الإنسانية ، وقد وافق حتى الرجلين على ما ذهبوا إليه . ويرى لويز مترحم حياة
حتى المعروف أن الثلاثة لم يصبوا مقصع الحق ، فإن ورتز كان يشقى من الطموح
الخائب المعطل وكذلك من الإخفاق في الحب ، وورتز صورة متزعجة من
الواقع ، وقد صورته جيتي على مثال المدعو خير وسلم الذى كان يألم من الطموح
لحقيق ومن الحب الخائب ، وقد نقل جيتي ما رآه في عالم الواقع إلى عالم الفن
وأنا أشابع لويز على هذا الرأى ، وهو يرينا القيمة الحقيقية للنقد في بعض
الأوقات ؛ فهنا ثلاثة من عليّة الرجال نداء عنهم الحق ، وخطأهم التوفيق في النقد
ويزعم كتاب الألمان أن جيتي ترك في نفس نابليون أثراً عميقاً . وأرجح أنهم
سالمون في ذلك ؛ فقد استندعاه نابليون نزولاً على حكم الضرورات السياسية التي
كان نابليون يجيد معرفتها . و نابليون حتى ما يفهم قد نسى الشاعر الكبير بعد
ذلك لسيماً يكاد يكون تاماً ، ولم يحرص على استدراجه إلى باريس كما حرص
فردريك الأكبر على اجتذاب فولير إلى برلين . وفي مايو سنة ١٨١٢ - قبل
غزو روسيا - جمع نابليون حوله الأمراء الألمان في مدينة درسدن ، وحصر
للاحتناع به من برلين ملك روسيا فردريك وليم وجاء من فيينا الإمبراطور
فرانز ، وكان الاحتفال باهراً مشرقاً ، وحصر هناك شارل جطس مع جيتي ،
ولكن نابليون لم يكن في حاجة إليه هذه المرة ، فلم يجتمع به ولم يجاذبه الحديث
وفي عودته من روسيا خائباً مدحوراً مرت به العربية بويمار ، فلما خرج رأسه من
المركبة وسأل : « أين نحن ؟ » وقيل له : « في ويمار يا سيدى » قال : « كيف حال
الدوقة ؟ وكيف حال الهر جيتي ؟ » ولعله قال ذلك ليثبت لمن معه معرفته المحلية
لويمار كما يقول السائح الأمريكى لزوجته إذا مر بفراנקفورت : « هذه مدينة
فراנקفورت المشهورة بالمقات ١ » وقد أقام نابليون في سنت هيلانة سنوات
وكان الملل يجعله يتحدث عن أشياء كثيرة ويكرر ذكرها ، ومع ذلك لم يذكر جيتي !

أما حيتي فكان شديد لا يحب نابليون كثير التحدث عنه ، وكان زهوا
بالوسام الذي أنعم به عليه نابليون ؛ وفي سنة ١٨٠٩ كتب وليم فون همبولدت
إلى روحته يقول : « لا يظهر حيتي إلا حاملا وسام اشرف فرنسي ، وهو يقول
في حديثه عن الشخص الذي حماه به (إمبراطوري) . ولما اضطر إلى أن يتخلع
هذا الوسام بعد هزيمة نابليون في ليرج سعى في الحصول على وسام من
الحكومة المساوية ليحمله بدلا من الوسام الفرنسي ، وهو مظهر ضعف في
هذا الرجل العظيم يؤسفني أن أقرره . وقد كان في حيتي تعلق غريب بالسميات ،
وحرص شديد على ترضي أصحاب السلطان : وقصته مع يهود ذائعة معروفة
لا يفيض حقيقتها الدفاع المتهافت الذي رأى لويز كاتب سيرته ومؤرخ حياته أن
يلزم به نفسه إلزاما ليس له ما يسوغه ؛ فإن علينا أن نفهم الناس كما هم لا كما يحب
أن يكونوا . والحياة أعرف مما نأمنها ؛ فهي تجمع عليهم ما نشاء من الصفات
والمواهب ، وتجردهم مما نشاء الحكمة قد يحباها . وقد ذهب مرة لزيارة حيتي
لثيف من صفار العساط الناشئين ، فتلقاهم بحفاوة نالمة كادت تسف إلى الملق
والعبودية . ولما تفصل بزيارته ملك بافاريا كاد نحن من نشوة الفرح حتى
قال : « يلزم الإنسان مجهود لكي تحتفظ توارثه ولا يأخذ الدوار » . ولم يكن
هذا الرجل سوى الملك لويز المعروف بالشدود وغرابية الاضوار ، والذي كان
دريئة لسخرية الشاعر هيني . وقد تلقى الملك لويز هذا عرشه من فتات مائدة
نابليون ، فليس كثيرا على حيتي الذي كان يفخر منزله بزيارته أن يفرط في
الإعجاب بنابليون ويتمن في الولاء له وهو قاهر بلاده وسالب حريتها . والواقع
أن حيتي كان في حاجة إلى حرقه من كبرياء المتنبي واعتزازه بنفسه تلقاء أصحاب
السلطان وحمة التيجان ، وقد صحبهم وكاد ينفي عنهم . أما المتنبي فقد قال بعد
صحبتهم لهم في شيء كثير من المرارة والغضب :

صحبت ملوك الأرض مغتبطاً بهم وفارقتهم ملآن من حق صدرنا

على أُرهم

الملكة شجرة الدر^(١)

٨

كانت قولبة شجرة الدر ملك حركة جرئة ولكن حظيرة في نفس الوقت . ذلك أنه بالرغم من كل ما عرف عن الملكة الجديدة من أصالة في الرأي ، وقوة في الحلال ، ومقدرة في تدبير الشؤون ، وبالرغم مما أسدته إلى المملكة من حليل الخدمات ، وما حررت من بحاح في إجلال الفرنج ، فإن فريقاً كبيراً من الأمراء والعلماء في مصر والشام لم يثقوا بهم أن يستقروا بنواء امرأة ، وسرعان ما ظهرت بوادر الانشقاق الأولى في الشام حيث أتى نائب السلطنة في دمشق الأمير جمال الدين بن بقمور وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة للملكة الجديدة ، ورسوا إلى صاحب حلب الملك الناصر صلاح الدين يوسف حفيد السلطان صلاح الدين الأيوبي يطلبون إليه القدوم إلى دمشق ، واستجاب لدعوتهم وقدم إلى دمشق وتسميها ، وقبض على الأمراء الصالحية أنصار شجرة الدر . وكان لهذه الأسماء في بلاط القاهرة عمق صدى . خدد الأمراء والمليك عهد الطاعة لشجرة الدر وعز الدين أيمنك ، وبادروا إلى تجهيز لقوات لإرسالها إلى الشام . ولكن شجرة الدر أخذت تشعر بحرج الموقف ولضعفها كأميرة ، ورأت أن تزوج من الأمير عز الدين أيمنك فتتوى بذلك مركزها كملكة . وتدعم عصمتها وهيبتها كأميرة . وتم هذا الزواج بالفعل في ١٩ ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ . ولكن لظاهر أن هذه الخطوة لم تحدث أثرها في تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الباقين . فعمدئذ رأت شجرة الدر أن تقدم على الخطوة الحاسمة ، وأن تقتدي بسلام المملكة ووحدة ذلك العرش الذي رفعها القدر إليه ، فاتفقت مع الأمراء المعاليك على أن يجمع نسميها . وأن يتولى العرش

(١) الكاتب المصري عدد ٧ (أبريل ١٩٤٦) ، عدد ٨ (مايو ١٩٤٦) .

مكافأ زوجها الأمير عز الدين أيوب . ونفذ هذا المشروع في نهاية ربيع الثاني ، وجلس عز الدين أيوب على عرش مصر باسم الملك المعز ، وانتهت بذلك سلطنة شجرة الدر ، وكانت قصيرة المدى ، ولم تدم أكثر من ثمانين يوماً من عشر صفر إلى آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ .

ورأى المماليك فوق ذلك إرصاداً لثني أيوب وتهدة لثورتهم ، أن يضموا إلى جانب المعز على العرش شخصاً من بيت الملك ، فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف موسى من عقب الملك العادل ، وهو يومئذ طفل في نحو السادسة ، وأخذت له البيعة في اليوم الثالث من جمادى الأولى . وبذا جلس على عرش مصر ملكان ، وخرجت الأوامر والمراسيم باسم الملكين الأشرف والمعز ، وكانت تحمل صورة التوقيع الآتي : « رسم بالأمر العالي المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى » .

على أن كل هذه الخطوات لم تحقق الغاية المنشودة ، فلم تهدأ نائرة المعارضين ولم يعترف أمراء بني أيوب بالملك المعز ، واستمرت الخصومة حول عرش مصر على اضطرابها ، وسير الملك الناصر صلاح الدين صاحب دمشق جنده إلى مصر بمحاول انتزاعها من المماليك . فسار إليهم الأمير فارس الدين أقطاي في قوة منتخبة من الجند المصريين ، وشنت عليهم بالقرب من غرة ، وعاد إلى القاهرة طافراً (٥ رجب ٦٤٨) . ولكن هذا الإخفاق لم يثن الملك الناصر عن مشروعه ، فجمع قواده مرة أخرى ، وسار بنفسه إلى مصر ، ومعه عدة من أمراء بني أيوب ، وذاع خبر مسيره في القاهرة ، فاضطرت الأمور وقبض على كثير من المعارضين وانصار بني أيوب ، وسار الأمير فارس الدين أقطاي للقاء الملاحمين ثم تبعه المعز في بقية العسكر ، والتقى الفريقان على مقربة من مدينة الصاحية ، ونشبت بينهما معركة كبيرة ، رجحت فيها كفة الشاميين أولاً ، ولكن المماليك ثبتوا ودارت الدائرة في النهاية على الشاميين فوزوا هزيمة شديدة ، ومزقت قواتهم ، ووقع عدة من أمراء بني أيوب في الأسر ، وكان ذلك في أوائل ذي القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

فعاد الملك الناصر منهزماً بفلوله إلى دمشق واعتصم بها . واستقر الملك المعز في ملك مصر ، وأخذ يعمل على توطيد عرشه ، واستقرت الأمور نوعاً ، ثم عقد الصلح بينه وبين خصمه القوي الملك الناصر في سنة ٦٥١ هـ على أن يستقل المعز

بالديار المصرية وغزة وبيت المقدس ، واستقل الماصر بما بقى من أراضى المملكة المصرية في الشام و لمشرق ، و فرج المعز عن ولاد الماصر ، وسائر الأمراء الأيوبيين المأسورين لديه . وصفت العلائق بما بين القاهرة ودمشق ، واستطاع المعز أن يتفرغ للشئون الداخلية .

ماذا كان موقف شجرة الدر خلال هذه الفترة المضطربة ؟ لقد عادت شجرة الدر بعد أن خلعت نفسها من الملك امرأة وروحاً فقط ، ولكنها لمثلت كما كانت أيام زوجها الأول الملك الصالح سيدة القصر والملاط . وكان المعز أميراً عاقلاً حصيف الرأى والحلال ، طامعاً صوماً في الوقت نفسه ، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التي رفعته إلى الملك ، وبذعن لأمرها ووحبها ، وكانت شجرة الدر من ورائه تحميه وتحبى عرشه من كيد خصومه الأقباء . وكان الملك المعز يعيش في توجس دائم من دسائس زعماء البحرية زملائه السابقين ، ويخشى من غدرهم على نفسه وعرشه . وكان الخطر ماثلاً في الواقع ، وكان ثمة عدة من هؤلاء الزعماء ، وفي مقدمتهم الأمير فارس الدين قنطاي وبيبرس السبكداري وقلاوون الألفي ، يترصدون به ويطعنونه بلا انقطاع ، وكان فارس الدين قنطاي يترجم هذه الكسبية الخطيرة من حصونه الملك المعز ويساونه كلما سنحت الفرص ، وكان كلما فسد إلى القلعة سار إليها في موكب عظيم من الفرسان كأنه ملك متوج . وحدث أن حطب فارس الدين قنطاي أمة صاحب حماة ، وظل إلى الملك المعز إسكانها في القلعة في جناح من القصر الملكي ، لأنها من سلالة ملوكيه ، فخشى الأمر عاقبة هذا الطلب ، وتظاهر بالموافقة عليه ، ولكنه اعزم في الواقع أن يتخلص من هذا المنافس الخطير ، وإنما كانت العروس في طريقها إلى مصر . موكبها الفخم دور الملك المعز أمره واستدعى الأمير فارس الدين قنطاي ذات يوم إلى قلعة ، وأعد له في الوقت نفسه كميناً لقتله ، وجاء قنطاي إلى القلعة مطمئناً ، وما كاد يجور الأبواب حتى أغلقت ومنع مماليكه من اللحاق به ، وانقض عليه القتل ، وفي مقدمتهم المملوك قطز الذي تولى ملك مصر فيما بعد ، وقتلوه وألقوا رأسه من فوق السور إلى مماليكه الذين احتشدوا أمام القلعة لحايتها (٣ شعبان سنة ٦٥٢ هـ) . فمارى عيان البحرية ذلك خشوا أن تدور الدائرة عليهم فركنوا إلى الفرار ، وسار بعضهم إلى الشام وقصد بعضهم إلى قيصر الروم ، وتفرق بذلك جمعهم ، وأمن الملك المعز شر الفتنة إلى حين .

ونعم الملك المعز بعد ذلك إلى جمع ملك الأشرف موسى، وهو الملك الطفل الذي أراد أن يتدرع بتوليته في وحه بني ثوب وأرله من القلعة وورده إلى منزله السابق بين أهله، واستقل المعز بتوقيع الأوامر والمراسيم.

وهكذا عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئاً فشيئاً، ولاح له أنه من شر حصومه من الحجرة بعد أن مرق جميعهم وحطم شوكتهم، بيد أن الخطر كان يجثم في ناجية أخرى وكان أقرب إليه مما يتصور.

٩

كانت شجرة الدر خلال ذلك هي الروح المسيطر على كل شيء في السلاط والدولة، وكان الملك المعز يعاني من هذا الطغيان الأدنى المرهق، ولا يرى سبيلاً للخلاص منه. وكانت شجرة الدر بالرغم من هذا السلطان القاهر تحبش بكل ما تحبش به المرأة من صنوف الضعف والأهواء الخطرة، وكانت قد جاورت يومئذ طور الشباب المصروع وشرفت على احتساب من عمرها، ولكنها كانت مع ذلك تصطدم بنار الغيرة المحرقة، ولم يهدئ من ثورة غيبتها أنها أرغمت المعز غير بعيد عن طلاق روحه لأولى وأم ولده على، ومبعثته من زيارتهما أو الاتصال بهما^(١) بل استمرت المناظر العاصفة تحدث بين الزوجين لأقل كلمة أو بادرة، حتى عند القصر وغدت الحياة المشتركة، في نظر الملك المعز جحماً لا يطاق.

وهكذا لبثت الوحشة بين المعز وشجرة الدر في ازدياد. ولما سئم المعز هذه الحياة الروحية السكدة فكر في أن يصع لها حداً، واعتزم أن يحتارله روجة أخرى، وبعث بالفعل إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحطب نفسه وكانت رائعة الحسن. ولعله لم يكن في الوقت نفسه بعيداً عن التفكير في التخلص من شجرة الدر والتحرر من نيرها المرهق بإزالة شخصها من الوجود. وتحدثنا الرواية في هذا الصدد بأنه كان لملك المعز مجسم خبزه أنه سيموت قتيلاً على يد امرأة، فلم يشك في أنها هي شجرة الدر، وفكر في أن يكون المادى بالفعل. ولكن شجرة الدر كانت ساهرة ترقب حركاته ومشاريعه. وحدث حادث

(١) السلوك في دول الملوك ج ١ (٢) من ٤٠١.

ترتب عليه امصباح المعز . ذلك أنه مض ذات يوم على عدة من المماليك البحرية وسيرهم إلى القلعة لاعتقالهم في « الحب » وعلى رأسهم أيديكين الصالحى أحد علماء الملك الصالح ، وما وصلوا تحت الشباك الذى يحبس فيه شجرة الدر ، وكانت تحبس فيه عندئذ ، انحنى أيديكين احتراماً ، وصاح بالتركية « والله يا حونند ما علمنا أنما يوحى مسكننا ، ولكم لما سير يخطب أنت صاحب الموصل ماهان علياً لأختك ، يا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم . فما عقدناه تغير علياً وفعل ما نرينا . فأومأت إليه شجرة الدر بمديلتها عما معناه : « قد سمعت كلامك » . ولم زج أيديكين ورملاؤه إلى الحب قال لهم : « إن كان حسناً فقد قتلناه » .

وثارت شجرة الدر سحطاً وكبرياء ، وأدركت شاف فكراها وحبرتها بدسائس العصر . إذ لم تبادر إلى التخلص من روجها الملك المعز فإنه سيعاجلها بالتخلص منها .

وأرسلت شجرة الدر سرّاً إلى الملك الناصر صاحب دمشق بهدية ورسالة تنبئه فيها أنها اعترفت بالتخلص من الملك المعز ، وتعهده بالزواج منه ، وعلمته عرش مصر ، فلم يلمفت الناصر إلى عروضها لما يعلمه من روعة دسائسها وخطر الاتصال بها .

ووقف بدر الدين منك الموصل على هذا السر الرهيب ، وأرسل إلى الملك المعز يحذره من مشاريع روجه وغدرها ، ولم يكن المعز بحاجة إلى التحذير ؛ فقد كان يشعر في الواقع بالخطر الذى يترص به ، وكان يتحوط لنفسه من شجرة الدر وغماها أياً ذهب . وحيراً اعترم أن يخرجها من القلعة مبالغاً في الانمئنان ، وأن يسكنها في دار الوردية ، ثم غادر القلعة وأقام أياماً في مناظر اللوق بعيداً عنها يدير أمره وبعد لعدة لتنفيذ مشروعه الأخير .

وشعرت شجرة الدر من حاسنها أن الفرصة تكاد تفلت من يدها ، ونها إذا لم تبادر فوراً إلى العمل انهار مشروعه كله ، فلم تصح وقتاً ، ولجأت إلى دهاء المرأة وحديعتها ، وبعثت إلى الملك المعز في مقامه باللوق تتلطف به ، وتستحلفه الصفح والصلح ، وتدعوه إلى قصر القلعة ، وتؤكد له كل عهد بالولاء والاحلاس . فما الذى جال بخاطره عندئذ ؟ وهل كانت ما رآل تحذره خير تلك المرأة الساحرة بقية من صيانة لمضى ؟ وهل لسي عندئذ ما كان

يخالجه من ريب في نياتها الخطرة ؟ وهل آمن عندئذ بأنها سوف تعود حقاً إلى صوابها وولائها وتتخلى عن مشاريعها السوداء ؟ وعلى أى حال فإن الملك المعز لم ير بعد التفكير بأساً من أن يستحيب لدعوة زوجه المغرية ، وكان ذلك يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ ^(١) وقد أنفق المعز عصر ذلك اليوم في لعب الكرة مع بعض حاصته ، وما غرت الشمس حتى عادر المعز في ركه ميدان اللوق إلى القلعة ودخل القصر مجهداً متعباً .

فاستقامته شجرة الدر بحفاوة بالغة ، وعمرته بالابتسام والمداعبات ، فاستسلم المعز إلى حفاوتها الغادرة ، ولم يتخذ لنفسه أى تحوط . وكانت شجرة الدر قد قررت أمرها واختارت نفس الوقت والساعة لتنفيذ جريمتها ؛ وكأب قد رتلت لاغتيال المعز خمسة من غلمانها هم نصر العرري ومحسن الجوهري ومموك يدعى سنجر وخادمان من ذوى الناس والشدة . فاستراح المعز قليلاً ، ثم قصد إلى الحمام ليلاً ليغتسل وهو آمن مطمئن ، ولكن ما كاد يخلع ثيابه حتى انقض عليه الغلمان الخمسة وهو غار لينفذوا فيه حكم الإعدام الذى أصدرته شجرة الدر . وتنقل إلينا الرواية عن مصرعه روايات مثيرة ، فيقال إن القتلة أخذوا بأثنييه وخنقوه في نفس الوقت حتى زهق ، وفي رواية أخرى أن شجرة الدر أخذت تضربه بالقباب على رأسه وهو يستغيث حتى أجهزت عليه وتعييف الرواية إلى ذلك أن المعز حينما انقض عليه القتلة وشعر أنه هالك أخذ يستغيث شجرة الدر ويتضرع إليها أن تنقذه ، وأن شجرة الدر تأثرت بتصرعه وطلت إلى الغلمان أن يتركوه ، فصاح بها محسن الجوهري مفقساً : « إذا تركناه فإنه لا يبقى علينا ولا عليك » . وهكذا تمت الجريمة وقتل الملك المعز أروع قتلة تندير زوجته الغادرة الخوون بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين وكان قد شرف على الستين من عمره (١٠ أبريل سنة ١٢٥٧ م) وبادرت شجرة الدر في الحال إلى العمل لانتقاء عواقب الجريمة ، فأرسلت

(١) يقول لنا المقريزى إن ذلك اليوم وهو اليوم الذى قتل في مسائه الملك المعز كان يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ (السموك ج ١ ص ٢) (٢) ص ٤٠٣) ويقول لنا أبو الفداء (ج ٣ ص ١٩٢) وكذلك صاحب النجوم الزاهرة (ج ٦ ص ٣٧٥) إن ذلك كان يوم الثلاثاء ٢٣ ربيع الأول . وقد رأينا بعد مقارنة التواريخ والحوادث أن نأخذ بالرواية الثانية باعتبارها أقوى وأرجح .

يلاً إلى القاصي ابن مرروق واستشارته في الأمر بعد أن سمعته بموت الملك المعز ، فاعتذر ولم يبد رأياً . وأرسلت في نفس الوقت لعرض السلطنة على بعض الأمراء الصالحية مثل الأمير عز الدين أيك الحلبي ، وجمال الدين العزيزي ، فلم يرصها أحد منهم رهبة وروعاً . وهكذا أخفقت شجرة الدر في محاولتها أن تقيم على وجه السرعة في السلطنة أميراً تستر وراءه في الحكم . وأذيع في صباح اليوم التالي أن الملك المعز مات بالليل فجأة ، فحدث ألبها هرج واصطراب ، ولم يصدق معظم الناس هذا السأ ، وذاعت مختلف الإشاعات وكثرت الظنون والريب . وركب المهالك إلى القلعة وعلى رأسهم الأمير بهاء الدين الأشرفي مقدم الحلقة وحاصروا القصر ، وقبضوا على الخدم والحريم ، ففر بعضهم بحقيقة ما وقع . وفي الحال استدعى كبير الوزراء شرف الدين الفارزي (١) وبأدى الأمراء المعزية تنولية الملك المنصور عز الدين ولد الملك المعز على العرش مكان أبيه ، وكان يومئذ صدياً في نحو الخامسة عشرة ، ووافق الأمراء الصالحية على توليته اتفاقاً ، وأخفقت جهود الأمراء المتوثبين لاغتصاب العرش .

ورأى الأمراء المعزية القبض على شجرة الدر ، وكانت قد امتنعت بمحاجها في القلعة مع نفر من خدما وحواريها ، وحاولوا اقتحام الدار فتمنعهم الأمراء الصالحية ، وكادت تقع بين الفريقين فتنة لولا أن تعهد الأمراء المعزية آخر الأمر بتأمين شجرة الدر وعدم التعرض لشخصها . وفي اليوم التاسع والعشرين من ربيع الأول أخرجت شجرة الدر باتفاق الفريقين من جناحها الملكي واعتقلت مع بعض حواريها في البرج الأحمر لمنع أبراج القلعة يومئذ ، وكان يقع في الناحية الجنوبية منها ، وقبض على الخدم الذين اشتركوا في الجريمة ، وفي مقدمتهم محسن وسنجر وصلبوا على باب القلعة ، ولم يسمح منهم سوى نصر العزيزي الذي استطاع الفرار إلى الشام ، وقتل عدة كبيرة من الغلمان والطواشية ، وقبض على الوزير صاحب بهاء الدين رحنياً وزير شجرة الدر السابق بتهمة الاشتراك في الجريمة ، ولم يصر عنه إلا بعد أن اقتدى نفسه بمبلغ طائل . وأما شرف الدين الفارزي فقد قبض عليه بعد أن تولى الوزارة للملك

(١) هو الوزير شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفارزي ، وكان قبطياً فاسد وتقدم في وظائف الدولة حتى ولي رئاسة الوزراء للملك المعز ، وولى الوزارة من بعده تولده المنصور أباً قلائل ، ثم قس عليه وتولى قبلاً في حمادى الأولى سنة ٦٥٥ هـ

الجديد أياماً ، ثم قتل في سجنه بعد ذلك بسيل ، وأحاطت الممالك المعزية
بغير استئذان ، ووضعوا نديهم على جميع مدونه ، واقتسموا حوارى
شجرة الدر ومنعها ، وسدت في قصر وابلالط سباب الدار ولا إرحاف
مدى حين .

١٠

ولم تلبث شجرة الدر في معتقلها بالبرج الأحمر أياماً وهي تعانى من صروب
الموجس و لزوع . وقد كانت الارب تسهر تحصيلها المحموم . وأى مضير كان
ينتظرها سوى الموت في أعنف صورة ، ولم يلبث ثمة سبيل للفرار وأعين
المماليك المعزية ترفها عيسى الحدر . وكان المماليك المعزية يحشون هذه المرأة
الخطرة بالرغم من محنها واعتقالها ، ويعتقدون أنه لا ضمان لاستقرارهم في
العرش والسلطة سوى إرالتها من الوجود . وكان الملك الفقى المصور وأمه
يضطربان طمأ للامتناع من الراج القالة . وهكذا كان القدر العدم يترص
بشجرة الدر ويدبو منها سرعا ، وكان الأمراء المعزية يترقبون الفرصة للعمل
ويطالبون جهراً بتسليم شجرة الدر ومعاقبتها على ما تمت ، والمماليك الصالحية
من حابهم يحاولون إلقاء شجرة الدر وحميئها ، يد منهم كانوا الفريق الأصعب ،
فلم تمض أيام فلائيل حتى وهت معارضهم وأحسوا أمام العاصفة . وفى يوم
الجمعة العاشر من شهر ربيع الثانى (١) فقد المماليك المعزية إلى لبرج الأحمر بامر
الملك المصور وأمه ، وفصصوا على شجرة الدر وحملوها إلى أم الملك المصور
لكى تتولى عقابها بنفسها . وهما يقول لى المقرزى : « فصرها الجوارى
بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت وألقوها من سور القلعة إلى الخندق

(١) تختلف الرواية الإسلامية فى تاريخ مقتل شجرة الدر كما اختلفت فى تاريخ مقتل
زوجها ملك المعز . يقول لى المقرزى إنها قتلت يوم السبت ١٨ ربيع الأول أعنى بعد
مقتل المعز ثلاثة أيام وفقاً لرواية (السلوك ج ١ - ٢ - ص ٤٠٤) . ويقول صاحب
الجموع الزاهرة نقلاً عن أكثر من رواية إن مقتل شجرة الدر كان يوم السبت ١١
ربيع الثانى . وذلك لسمعه عشر يوماً من مقتل الملك المعز (ج ٦ ص ٣٧٧ و ٣٧٨)
ويقول أبو الفدا إنها قتلت فى يوم ١٦ ربيع الثانى . ويقول ابن إيس إنها قتلت فى يوم
٢٥ ربيع الثانى (ج ١ ص ٩٢) وقد أخذنا نحن رواية صاحب الجموع الزاهرة
باعتبارها أقوى وأرجح .

وايس عليها سوى سر اويل وقيس ، فميت في الخندق أياماً ، وأخذ بعض أرادل
أعمه الملك سر اويلها . ثم دفت بعد - أيام وقد أنتت وحملت في قفة - - تربيها
قرب لمشهد قيسى (١) ، ويريد الرواية على ذلك أن شجرة الدر حينما أيقنت
سها لها كان من قوة نفسها أن أخفت جملة من المال والجواهر ، وانتقت فوق
ذلك طائفة من الجواهر ولحي المميسة وحطمها وسحقها في الهاون حتى
لا تقع في أيدي أعدائها (٢) .

وهكذا رعت شجرة الدر أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية ، تلك التي
لبثت مدى أعوام صويلة رية البلاط المصري ، وصاحبة الحول والسلطان فيه ،
ورعت نفس الأسلوب المروع الذي رعت به زوجها الملك المعز ، وكان
اقتصاد مثيرا ولكن عادلا . وكان الفصل الأخير من مائة قصر متعددة
مقصود والوحي ، بذت رائعة باهرة ثم انحدرت إلى طلمات الجزيمة .

وكانت شجرة الدر ، بإجماع الروايات المعاصرة والمتأخرة ، شخصية عظيمة
تمتاز بخلال ومواهب غير عادية . وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها
وافترا كأمراة وحظية ، تتمتع بصمات باهرة فلما احتجج في حسناء وافترة السحر ؛
بعد كانت قوية النفس صارمه العزم وافترة الحرمة والحشمة ، تعيش في جو من

(١) دفنت شجرة الدر في التربة التي أنشأها لنفسها قرب مشهد السيدة عيسى في سنة
٦٤١ هـ (التجويد الزاهرة ج ٦ من ٣٧٤) وما ر . هـ التربة قائمة حتى اليوم . هي
، عند داخل مسجد صغير أمام مدرسة أنشأها شجرة الدر بخوار تربتها بشارع الخليفة .
تعرف اليوم باسم جامع شجرة الدر أو جامع خليفة . وهي التربة فيه من طراز عباسي
كتبت في جنباتها ما يأتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . عر السة الزعيم ، حجاب امير . عصمه الديب والدين ، والدة
ملك حليل بن مولانا السبط الملك الصالح نجم الدين أي المطر يوب بن مولانا الملك
سكامل ناصر الدين أي المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب حليل أمير المؤمنين قدس الله
روحه وصور صريحه ، التي حطت الأقاليم . ندب على منابر الطروس ، وشهدت ها المعاصر
محمد الثالث في أعلى العز بين الوري ، وأصحت نبوس الممكة ب طالعة ، وآراء الأسراء
لامرها مطيعة وسامعة ، وأعر الله أنصارها ، وصانف اقتدارها ، وأعلى منارها . وحمل
النير في الملاء الأعلى حدامها . ولم . مؤمنة مصورة على من اللبي والآباء محمد وآله
وصحه الطيبين الظاهرين الكرام . » (ورد هذا النص ضمن بحث عن العبارة الإسلامية في
مصر الآيو في الاستاذ حسن عبد بوهاب ونشر مجلة العروة عدد ٧ - ٨ لسنة ١٩٤٠) .

(٢) (السلوك ج ٢ من ٤٠٤ والتجويد الزاهرة ج ٦ من ٣٧٨) .

المهابة والجلال ، ولم تكن فقط حامية القصر الاثيرة تسيطر بأنوثتها ودلالها ولكنها كانت تسيطر بينما حلت بقوة عقلها ودكائها وروحها . وقد لبنت مد نولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر زهاء ثمانية عشرة عاماً أبرر شخصية في البلاط وفي الدولة ، يغلب رأيها كل رأى ويعودها كل نفوذ ولم يكن تبوؤها العرش لفترة قصيرة المدى إلا عنوان الدروة في هذا المحد العريق الذى شادته حولها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج . وقد كان لصائب رأيها وثبات حسانها وتوجيهها الجرى ، ثناء غزو الصليبيين لمصر أعظم الأثر في تقاد مصر من كارثة مروعة ، ونحويلها إلى نصر حاسم باهر . ولم تفقد شجرة الدر شيئاً من سلطانها لقاهر حينا خلعت نفسها وتخلت عن عرشها للملك المعز ، ولكنها لمثت من ورائه سيدة الموقف وصاحبة الرأى ، وكانت حتى في تلك الآونة التى بدأت تغالبها فيها الظروف ، وأحد يحسب نعمه المتألق ، أقدر من يسوس نوائف المماليك المنردة ويهذى ثورتها .

وكانت هذه المرأة العظيمة التى رفعتها القدر إلى عرش مصر تتمتع فوق ذلك كله بحلال شخصية جليلة فقد كانت بالرغم من جمالها وسحرها ، سيدة منية خلوق ، وافرة العفاف والصون ، تقية حيرة ، لعشق أعمال البر وتقف عليها لكثير من مالمها . وكانت الغيرة العنيفة هى أظهر ما فيها من ضعف المرأة ، وهى التى أضلتها ودفعتها فى النهاية إلى الخاتمة المؤسفة .

وجلس بعد الملك المعز على عرش مصر أحدث يافع ، هو والده الملك المنصور على ، ولم يكن أصلاً من يتولى الملك ، ولكنه كان مرشح المماليك البحرية ودرعهم لإقصاء بنى أيوب عن العرش . ومع ذلك فلم يهد الخواطر ولم تستمر الأمور بولايته ، ولبثت الدسائس والمنافسات بين مختلف الرعماء على اضطرابها وكانت مصر أثناء هذا المعترك الدموى حول عرشها تواجه فترة من أدق فترات تاريخها . وكانت غزوات التتار البربرية تنساب نحو الشرق بسرعة ، وصرح العالم الإسلامى القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً . وبلغ الخطر المروع ذورته حينا يقض التتار بقيادة عاهلهم هلاكو على بغداد واستولوا عليها ، وقضوا على الخلافة العباسية وقتلوا المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين بها ، وذلك فى صفر سنة ٦٥٦ هـ (فبراير سنة ١٢٥٨ م) وأخذ الشرق الإسلامى كله يرتجف فرقاً

لافتراق الخضر الاعم ، وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بالخطر ؛ لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق . وسرعان ما كشف هلاكو عن نياته نحو الشام ومصر ، فأرسل رسله إلى أمراء الشام يدعوهم إلى الخضوع والتسليم العاقل ، وأخذت جيوش التتار تعبر القرات متجهة نحو الشرق ، ولم يك نمة شك في النتيجة المروعة إذا سمح لهذا السيل المنحرب أن ينساب إلى ربوع مصر الخضراء .

في تلك الآونة العصيبة ظهر الأمير سيف الدين قطز أقوى الزعماء البحرية في ميدان الحوادث ، وكان يتولى نيابة السلطنة ويقوم لملك المنصور بتدبير شؤون المملكة ، وكان يقرب سير الحوادث في المشرق بجزع ، ويرى وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر في هذا الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانه ، فاتهم أول فرصة وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه وزحهم إلى برج القلعة ، ونادى نفسه ملكاً (٢٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧) ، وأعلن إلى زملائه الأمراء في صراحة أنه لا ينبغي الملك لذاته ، ولكنه يريد التناهب لرد التتار وإفقاد مصر من شرهم ؛ فإذا تم لقضاء على هذا الخطر فليهم أن يختاروا غيره للملك من شاءوا .

ووصل التتار إلى الشام في أوائل سنة ٦٥٨ هـ واستولوا على حلب وأعلنت دمشق خضوعها لهم . ولم تعض أشهر فلائح حتى سيطروا على سائر خضات الشام ، ثم انسبوا نحو الجنوب بسرعة مذهشة ، ووصلوا إلى فلسطين ، وأرسل هلاكو رسله إلى ملك مصر يطلب إليه الخضوع والتسليم ويهدده بالويل . وكانت مصر تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء الغزاة ، وبذل الملك قطز جهوداً عظيمة في حشد الحشد وإتمام الأهنة . فلما وصل رسل هلاكو لحاب فطر بالقبض عليهم وإعدامهم وتعليق رؤوسهم على باب زويلة ، ثم سار من موره على رأس قواته إلى فلسطين ، ونادر بلقاء الغزاة في عرم وثقة . وكان التتار قد وصلوا عندئذ إلى أسوار غزة فردم حشد مصر بقوة ، واشتبكوا معهم في معركة عظيمة حاسمة في عين حالوت على مقربة من بيسان ، وذلك في منتصف رمضان سنة ٦٥٨ هـ (سبتمبر سنة ١٢٦٠ م) . وفي عين حالوت أحررت مصر نصراً باهراً ، واستطاعت أن ترد الغزاة البريرة على أعقابهم ، وكان يوماً عظيماً لمصر والإسلام . ولم يمض قليل حتى استطاع الملك المنظر

فطر أن يستخلص الشام من التتار ، وأن يردهم نحو المشرق منهزمين مدحورين .
وكان لمصر فضل القضاء على خطر التتار ، كما كان لها من قبل فضل القضاء على
سيل الغزوات الصليبية ، وكانت في عين حالوت نفوذ رسالتها لتاريخية في
حماية الإسلام والمدنية الإسلامية .

محمد عبد الله عناية

عودة الأسير

كنت على موعد مع الطبيعة ؛ فإنها تربطني بها صلات ووشائج ، وبيننا ألفه ومودة . وحين تضرب الأمور وتلتوى أو يضيق الصدر مني ، ألتجأ إليها كالمنقل بالخطايا حين يفزع إلى معبده وقد بهظه حملها . وهناك أبثها شجونى وأحكى لها آلامى ، فتخفف عني وتهدي من رَوْعِي وترد إلى ثقتي . والطبيعة تهب سرها لمن يحبها ، فتكشف له عما يستغل على غيره من معان خفية تكمن خلف مظهرها ، وتفسر له ما يدق ، وتوضح ما يستبهم .

وذهبت في ذلك اليوم الى حيث ألقاها وأتردد بها ، واستلقيت على ظهري تأمل السماء وكانت غائمة ، وأنا أحب السماء الغائمة ، فكأنني إذ أشهدا قرأ في سفر الحياة وأستطلع سرار السكون ، وأزود بالحكمة والمعرفة . وكانت الغيوم تتباعد وتتداني ، وتتجمع وتتفرق ، وتقبل وتدبر ، وتسرع وتبطئ ، وتكبر وتصغر ؛ وهي في كل ذلك منسجمة متسقة مؤتلفة ، وكأنها تعرض أشتاتاً من الصور وألواناً من القصص . وكانت تصاحبها موسيقا الطبيعة ذات المعاني العميقة والرموز الغامضة ، صاحبة متفجرة تارة ، وهادئة وادعة أخرى ، فتضفي عليها حلة من الرهبة والخيال ، وتسميها بطابع الشعر والفلسفة .

ورأيت فيما رأيت « مارس » العنيد وهو عائد من رحلته الدموية في مركبته الرهيبة وسط الحرائق والانقاض والاشلاء . وساد السكون فترة ثم خرجت الملائكة تنفخ في الصور ، مبشرة بالأمان ، ناشرة ألوية السلام . ورأيت أبواب السجون وهي تنفرج في ببطء وتناقض ، وجوع الأسرى وهي تنطلق من بينها ، بوجوه مكفهرة عليها غبرة ، ورءوس حاسرة وثياب خلقة ، وكانوا يسرون بخطوات وثيدة ، كأن أقدامهم تنوء بهم ، وكانت أبصارهم شاردة وتقاطيعهم جامدة لا تتم على شيء .

من ضوء الحرية ليظهر بعد ظلمة الأسر . وإن الرئتين لتعجزان عن الامتلاء بالهواء الذي كانا محرومين منه . وكنا نأبوا إلى أنفسهم بعد حين ، وذكرنا أنفس كل شيء قد تغير : منظر الشمس والضوء والوجود ، وكذلك منظر الأشياء والأشخاص والحيوان ، والأصوات والألوان . . . فكل شيء راد . وكل شيء راق .

وبدءوا يشعرون بالدعة والراحة وقد توسدوها خفة ، وأخذت الأجساد تميش والأرواح تتنبه . وهم يستطيعون الآن وبدون أن يخشوا شيئاً ، أن يرفعوا أصواتهم وأن يتسموا ، وأن يشاهدوا وأن يستمعوا ، وأن يفكروا كما يروق لهم ، وأن يكتبوا ما يسبح في خاطرهم ، وأن يتلقوا الرسائل ولا يشاركهم أحد في قراءتها . وهامهم ولواء يتنفسون ، وهامهم ذى قلوبهم تبض ، وهامهم ذى أرواحهم التي اعتقت تستطيع أن تنطلق في الأفق الواسع حيث تخلق وتزفر .

ورأيت كلا منهم يتجه إلى أهله وذويه بجسده وقلبه وروحه ، وهؤلاء يستقبلونه بأجسادهم وقلوبهم وأرواحهم . وقد كانوا منذ شهر قاطنين من أوتته لا يستقرون من القلق عليه ، تتابعهم الهواجس وتشجيهم الأحزان هم أيضاً كانوا سجناء ، وكان سجنهم تلك الفكرة الواحدة الثابتة ، تلج عليهم وتحد بخناقهم . وهامهم أولاً ، قد أرخى خناقهم ، وفك أسرهم معه . هم أيضاً تغير لحاضر حياهم ، وأضاء المستقبل أمامهم ، وستعادوا أنفسهم ، وصار كل شيء يبدو جميلاً أمام أعينهم . فهذا التحرير بدء لسيرة جديدة ، وهو إذ ينبغي باتتهاء الساعات المريعة يكاد يمسح ذكرى الآلام الماضية .

وطلقت تأمل وجوه المأدين من هناك وقد اقتربوا من أرض الوض . وحيل إلى أنهم يتهيئون هذا اللقاء ويشفقون منه بقدر ما كانوا يرغبون فيه ويتلهفون عليه . لقد كان يدور في قلوبهم التي طالما هفت إلى هذه اللحظة ، صراع مرير شديداً هولاً من كل الممارك التي خاضوها عمارها . وكانت عيونهم تنطق بهذا الاضطراب الذي كان يعصف بهم ، ويملاً بالرهبة حوائجهم . . كيف نجد بعضهم بعضاً ؟ هل القلوب تغيرت ، والأجساد ، الأحساد التي قاست

وتعذبت ... والوجود ، الوجود العزيرة الطيبة ، التي كانت لكل منهم الأمان
والسما والوطن . ماد أصابها ؟ ماذا فعلت الحرب بها ؟ ترى هل أصبحت
كالأرض التي يطوونها ، أو الأقطار التي يجاوزونها ، وهي قد دكت آثارها ،
وذهبت معالمها .

وسمعت أحدهم يسأل : « ألا زالت أعين طفلي جميلة كما كانت ؟ وانتسامة
امراتي ... »

وكان للأسرة صديق أريب رأيته يسارع مستبقا هذا اللقاء الرهيب ويقول
مائد المسكين : « حد حدرك ، فستجده أمك وقد تغيرت قليلا . لقد ضعف منها
ببصر . واضبط نفسك من أنك لا يقدر على الحراك وقد بانت عليه نهكة المرض . »
ورأيت يعود سريعا أيضا ويدور الأسرة الشقية : « ستجدونه وقد تغير
قليلا . لقد وخطه الشيب . وإياكم ويطهار جزعكم ، فقد ترون له ساقا من خشب
بدلا من التي فقدتها . ولكن هذا أمر هين ، فستصع له أخرى ، ويثوب إلى
حالته الأولى . ثم لا تنسوا اضطراب النفس ووعشاء السفر . »

وأخيرا حلت اللحظة لقاسية ، ورأيت لوجة تشخص بصرها وتساؤل
في ارتياب . أين هو ؟ ولم يطل هذا الارتياب لحظة ، ولكن من بدري كم سينق
أثره ، وكم سيدوم عنقه ؟

ولقد جرف المرح باللقاء كل شيء أمامه كالعاصفة ، فتبددت خيرة أمام
نشوة الخوذة ، وانقشع الذهول وتلاشى لذعر أمام الشعور بالحياة والتحقق
من استمرارها . ورأيت كلا منهم يحتمل ليظهر بمظهر المبتهج ، ويتصنع
الاعتباط ، ويحمل نفسه على الضحك . وكانوا يتبارون جميعا في النوادر
والفكاهات والملح . ورأيت الرجل يرفع عكازه في الهواء ويرقص به على قدمه
الواحدة لكي يطرب منه الآخرون .

لشد ما كذبوا جميعا ... ولكن ما كان أروعه من كذب

والتفت الزوج إلى زوجته وقال : « هه ! لقد عدت خطاما ! هذا كل ما بقي
مني ! » . فقالت له : « صه ! إنك لازلت كما كنت » . والتفت الأب إلى ولده
امائد من الأمر وقال : « ونحن يا ولدي ، لقد انتهينا ... » فقال الابن :
حاشا ... ما كنت أتوقع أن أراك بهذه الصخنة والعافية .

يا للأكذوبة السامية ! ويا للمهزلة الفاتكة !

ورأيت مثل هذه الأكاذيب وهذه المهازل تؤدّي في كل الأسر التي عاد أبناءؤها ، على هذا النحو من البسالة والنبالة والسمو والكرم . ولقد عرف بعضهم بعضاً في ملح البصر ، ولكن هذه اللحظة التي كانوا يصبون إليها جميعاً ، كانت تخزن لهم الآلام والهموم . كانت تبدو على جميع الوجوه — المقيم منهم والعائد — آثار العذاب وسمات الشقاء وشواهد الهم وعلامات الهرم ؛ لأن الجميع حتى الذين لم يبرحوا مكانهم ، حاربوا حربهم وعانوا مرارة الذل والأسر . ولم يقر أحد منهم بشيء في مبدأ الأمر ، بل كانوا يكتبون آهاتهم ، ويحجزون ناتهم ، ويخفون لوعتهم بالعناق ، ويخنقون غصصهم تحت سيل من القُبيل . بيد أن ذلك لم يدم طويلاً ؛ إذ لم يكن هناك مناص من الاعتراف بما أحكم إخفاؤه من الأسقام والعلل ، والبوح بما كان يدارى بالصمت والكتمان ؛ بالعمى والصمم والجراح التي شوّعت والأعضاء التي بُترت ، وكل ما كانوا لا يجرون على الكشف عنه أو الاعتراف به . وهو الآن لا يمكن أن يبقى مستوراً أو خافياً ، فالحقيقة تأتي ، وهما هي ذى تقرب وتلح وتصرخ ثم تنفجر .

رباه أي محنة كانت ! وأي شقاء !

نعم لم يكشف القناع عن وجه الحقيقة سريعاً ، ولكنها حين غدت سافرة بدت لشعة . وعندئذ أخذ سيل الحكايات يفيض ، والاعترافات تتدفق ، والدموع تنهمر ، والزفرات تتصاعد . وعندئذ فقط بدت آثار الضيق الجسماني وأمارات الانكماش الذاتي والانتقاض المعنوي . تلك الآثار والامارات التي لم تُمر في مبدأ الأمر أو لم يبلغ أحد رؤيتها . بدا التغير في المظهر والتقاطيع : في الجباه التي تغصنت وتقبضت ، والحدود التي غارت وشحبت ، والعيون التي خمد نورها وذهب بريقها ، والصوت الذي تبدلت نغمته وانثنت رنته ، والشعر الذي اغبر واصفر ، والجلد الذي تحلّ وذبل . . . ظهر التبدل في الحركة والظنرة : في ذلك التراخي والفتور اللذين يستوليان على الشخص بأكمله ، وذلك الذهول العجيب المشابه للتأمل الدائم عند من أصابته الحرب بوضتها ، وتلك النظرة الغريبة الخاوية التي تنبئ بانقشاع الأوهام لدى العائدين منها . وكُشف عن الجروح المخفأة تحت الأغشية ، والندوب المستورة تحت الأردية . وأظهرت السمات مكان الأسنان التي سقطت ، وبان الهزال وزاد تحت الملابس التي اتسعت .

ورأيت الروححة تمدق في الروح ونقول . « يا إلهي ! أنى آخر أعدته إلى »
وأخذ الروح يقابل بين الصورة الخيالة التي رحل بها ولم تبحر مخيلته . وبين
الصورة الماثلة أمام عينه وقد زائدها ميعتها ، وأثر فيها الجوع والخوف
والحرمان والسقم .

ولقد اشتد الحزن لهم والشفقة بهم ، وزاد الإحساس بالإكدار وبالاحترام
تجاههم . ولكنني رأيت فيهم من وجد أن القلوب تحولت ، وأن الحياة تبدلت ،
وأن صروفها عصفت بكل ما كان يعتز به ويفخر عليه . فأسف لعودته ، وتعني
لو أنه كان لقي حتفه كخلافه في ساحة الشرف . ولكن واسفاه ، حتى الموت لم
يظفر به كل من يطلبه !

ورأيت فيهم من لا ينجده له عراء عن تركه سلاح ، فقد راض نفسه عن الكفاح .
وصارت الحياة عنده تبدو بدونه نفهة . وفيهم من بدأ ينسج خيوط حياة جديدة
أجل وفضل ، والإنسان لا يبذل التفكير في حياة جديدة إلا من فوق الخرائب
والانقراض . وفيهم من وجد أن أحب الناس إلى قلبه وأقربهم إلى نفسه ، قد
ودى بهم فعل الإنسان بخيه الإنسان ، فحذت مراحل العداوة نعلي في صدره
من جديد ، وامتلاّت نفسه بالسخط والاحتقاد ، وتملكته الرغبة في الأخذ
بالثأر . وفيهم من استسلم للقضاء وتذرع بالصبر وخضع . وفيهم من تمرد على كل
تقيم المعنوية العزيزة على الإنسانية ، كحب الوطن ، والدفاع عن المشل العليا ،
والتضحية . وفيهم من دب إليه ديب الشك في الحضارة القائمة وفي عظمة الفكر
لإنساني الذي لم يبدع شيئاً إلا كان له شأن في كل ما تزل به . وفيهم من
استبد به اليأس ، فهو لم يعد — واحمر تاه — يصلح لأمر . . .

وولّى النهار ، واختلطت الظلمة بالنور ، وتعاقبت أمام ناظري هذه الـ دور
كثيية وابتدأ المظلمة ، كأنها أرواح معذبة ، أو خيالات حائرة ، تومض في
لوحات معتمة ثم تنسل وتختفي . وأسفل الليل رست على الكون ، ولم أعد
رى شيئاً . وخفتت الأصوات ، وهجعت الأطياف ، وهبطت الأشياء ،
وهمدت الأشياء . ولم يكن يسمع غير رذاذ لا يرى ، كان يتساقط على أوراق
الخريف الميتة وكأنه يهمس إليها ، وكان كل شيء يبدو كأنه ينصت .

هل كان ذلك وحى قصة ؟ هل كان حلمًا ؟ هل كانت تخیلات وتصورات ؟
 أم كانت ذلك صدى لإحدى مقطوعات موزارت أو أثر لوحة من لوحات
 رافائيل . . . ؟ لست أدري ! ولكنى شهدت وسمعت . وقت أثمر فى خطاى ،
 شارد اللب ، ذاهل البصر . وطرقت مسمعى زقزقة عصفور صغير ضعيف
 كصوت الحق ، كان يرتعد مبتلًا على فنن ، وكأنه هاتف يهتف : « ليت من
 يدفعون بهذه المخلوقات التعمسة إلى كل هذا الهوان ، يدركون أن الإنسان
 لا تشفى آلامه ، ولا تؤسى جراحه ، عنيد ما ينقشع دحان البارود أو تبعالى
 أهانج النصر . »

عبد القادر السامح

أريتريا مشاهدات وآمال

٢ (١)

الثقافة : يهر المتقل بين ربوع أريتريا ما قام به الطليان من عمل إنشائية ومبان جميلة ومدن جديدة وطرق ممهدة . ولكن المتطلع إلى ما وراء ذلك يرى عجباً : يرى أمة أوربية قد استعمرت بلاداً ضئيلة نصف قرن دون أن تؤثر ثقافتها في الشعب ، أو ترفع إدارتها مستوى المعيشة إلى الدرجة التي تناسب تلك المدة . فالثقافة الإيطالية لا تعدو كثيراً لغة إيطالية يتكلمها الناس لقضاء حاجاتهم . وقد يثار ضحكك وإعجابك عند ما تسمع هؤلاء الناس وقد بسطوا اللغة تبسيطاً غللاً ، فهم يعبرون مثلاً ، في تصريفهم الأفعال ، بضائر الرفع المنفصلة مع إسنادها إلى المصدر فيقولون : « نأذهب ، أنت ذهاب ، هو ذهاب الخ » . وقد سألت بعض الأريتريين عن السبب الذي من أجله لا يعلمهم الطليان ، فكان ردهم أن الطليان كانوا قد بدءوا في تعليمهم ، ولكنهم وجدوا أكثر الذين يتعلمون من الأريتريين يهربون إلى أثيوبيا ويستقرون فيها ، فرأى الطليان أن المجهود الذي يبذلونه لتعليم الأريتريين يعود بالفائدة على أثيوبيا . وكذلك لاحظ لطلليان أن تعليم هؤلاء الناس ، يحجب فيهم النزعة القومية ، ويشير فيهم حب الاستقلال والرغبة في التخلص من العبودية . وعلى هذا كف الطليان عن تعليمهم وقصروا جهودهم على التعليم الذي يسمح باستغلال هؤلاء الناس لمصلحة إيطاليا حسب ، سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية أو من الناحية الدينية . وليس من السهل أن يصدق الإنسان هذا القول ، ولكنها الحقيقة الملموسة . فكان

هؤلاء الضياع في مادة جمعت ألوان الطعام المختلفة الشهية في قصر غم يقف خارجه بعض الأبطال ، وهم يرمقون ألوان الطعام ، ويشتهون أن يتذوقوها وليس لهم إلى ذلك سبيل ، بل ربما لم تتحرك فيهم شهوة لأنهم لا يفقهون ما يرمقون .

سألت تقصى عن السبب الحقيقي في تلك الظاهرة الغريبة ، فعلت ذلك بأن الإيطالي المستعمر لم يحاول أن يفهم الشعب الأريتري ولم يقدر أنه قد تأصلت فيه ثقافات مختلفة على مر الزمان ، فعامله معاملة الشعوب البدائية وقام بدعايته عمته عقلية الشعب الأريتري ضارباً بشعوره وثقافته عرض الحائط ، بل قل لم يفهمها . من ذلك أنك تجد كتب المطالعة الأولية باللغة الإيطالية تحت عني حب إيطاليا وتعظيمها ، وتجد رجال الدين من الكاثوليك يتوددون إلى الشعب بوضع صليب كبير في الكنيسة عليه المسيح مصلوباً في صورة رجل أسود ، وما إلى ذلك . وأما لناحية الاجتماعية فقد نزل الإيطالي إلى ميدان الأعمال اليدوية ، فبعد أن كان الأريتري ينظر إلى الأوربي بعين الاحترام انقلب شعوره إلى ضد هذا حين رأى الأوربي يقوم بتمهيد الطرق والبناء والحل وجر العربات وغير ذلك هذا ، وبالرغم من أن الحكومة الإيطالية كانت تحرم على الطليان الاختلاط بالأهالي فعمدت في سياستها إلى تقسيم الأحياء والمناطق والمواصلات إلى قسمين : قسم لطلليان وقسم للأريتريين ، سقطت هذه القيود ، إذ سقطت أريتريا وأثيوبيا من يد الطليان ، فسكنت ترى الأثيوبي والأريتري يستخدم الإيطالي . وقد نقلت طبقة المحكومين إلى طبقة حاكين ، والحاكين إلى محكومين بين عشية وصباحها ، والطلليان راضون بهذا قائمون . بل كنت ترى أكثر من هذا ، ترى فئة من الطليان وقد تزوجوا من أثيوبيات أو أريتريات واتخذوا منهن خليلات ونزلوا إلى المستوى الذي يعيش فيه هؤلاء النساء فعاشوا عيشتهن وسكنوا مساكنهن . وقد كنت أذكر هذا لصديق من الفرنسيين ، فدهش وقال إن هذه الحال وما يمثّلها قد شاهدناها أيام كان الطليان وعرب شمال أفريقيا يعملون معاً في فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى ، بل قد أذهلنا أن نرى أهالي شمال أفريقيا من العرب يعملون بلباسهم ومسكنهم وتعليم أبنائهم على خلاف زملائهم الطليان الذين لم يوجهوا أي اهتمام إلى تعليم أبنائهم فضلاً عن رفع مستوى معيشتهم . تلك ظواهر في أخلاق هذا الشعب لمستعمر جعلته يخفق في حمل الثقافة والحضارة إلى الشعب

لأريتريا الذي يحفظ بين طياته ثقافة مصرية متمكنة ، تلك الثقافة التي جعلته يثبت أمام الجهود الثقافية التي ركزها الطليان في الدعاية لحب إيطاليا أو التي ركزوها في الدين منذ احتلالهم للبلاد ، والتي كانت مظهرها الدعاية للمذهب الكاثوليكي . وليس أدل على الإخفاق من عدد الذين قبلوا اعتناق الكاثوليكية من بين الأريتريين . وأما مظاهر المدنية التي تراها في أريتريا فهي لصالح المستعمرين لاستغلال البلاد إلى أبعد حدود الاستغلال .

السبع : دخلت المسيحية أريتريا على يد فرومنتيوس في القرن الرابع الميلادي حين رست به السفينة في ميناء عدول ، فأمكنه أن يدخل المسيحية في المراكز التجارية أولاً حيث يكثر الأجانب من مصريين ويونان نزحوا من مصر ، ثم عاد فرومنتيوس إلى مصر حيث رسمه المطريرك القبطي مطراناً على تلك الجهات (أي الحبشة) والمقصود بها أريتريا الحالية ومقاطعة التيجري تقريباً . ويقع المسيحيون في أريتريا شعائرهم الدينية حسب طقوس الكنيسة القبطية . ويلاحظ في القديس استعمال السيستم والطبل . وهم يتبعون مطران الحبشة من الناحية الدينية . وقد حاول الطليان أن يستقلوا بالكنيسة القبطية في أريتريا ولكنهم أخفقوا في ذلك ، إلا أنهم استطاعوا بعد أن استولوا على أتيوبيا أن يفصلوا الكنيسة الحبشية عن القبطية في ديسمبر عام ١٩٣٧ ، فعينوا بطريركاً حبشياً مركزه أديس أبابا ، فصارت أريتريا تابعة لهذا البطريرك . ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه بعد رجوع الإمبراطور إذ أصبح الرئيس الديني لأريتريا المطران القبطي الموجود في أديس أبابا . غير أن التطورات الأخيرة بين الكنيستين القبطية والأتيوبية قد غيرت الموقف . فقد وافق المجمع المقدس في مصر على أن يُرسم على أتيوبيا مطران أتيوبي ، ولم يتعرض القرار للصلة الدينية التي بين مصر وأريتريا . ويخيل إلى أن هذه المسألة لم توجه إليها العناية الحريّة بها . ومما يذكر بعد هذا أنه كان لأريتريا أسقف يرسم من الأقباط إلى عهد قريب ، وكان يساعده في تأدية مهمته عدد من الرهبان الأقباط يحملون معهم ثقافتهم المصرية العربية ، وقد أخذ عدد هؤلاء الرهبان يتضاءل منذ الاحتلال الإيطالي لتلك البلاد إذ لاحظ الطليان خطرهم الثقافي . وقام الطليان ببناء أسقفية كاثوليكية كبيرة في أسمرا محاولين بذلك منافسة المذهب الأرثوذكسي من جهة والتأثير

في الناس بالمنظر لخارجي للدين من جهة أخرى ، وقد ذكرنا أنهم أخفقوا في ذلك . ويبدو لي أنه قد حان الوقت الذي يجب أن ترسل فيه مصر إلى أريتريا أسقفاً مصرياً يكون تابعاً لابطريرك القبطى مباشرة أو لاسطران الآتيوبي ، ويحسن أن يصحب هذا الأسقف عدد من الرهبان والقسوس المصريين المتعلمين ليكونوا يداً تساعد على استمرار الثقافة المصرية المتمكنة في نفوس الأريتريين بل على إحيائها ، وخاصة بعد أن ثبت إحقاق الثقافة الإيطالية هناك .

وهناك تيار آخر حمل الثقافة المصرية إلى تلك البلاد . فقد قامت الدعوة للدين الاسلامي منذ ظهوره ، فاعتنقته القبائل التي تسكن شواطئ أريتريا ، ثم انتشروا بين بعض القبائل الناطقة بلغة التيجري وفي جزء من قبيلة البلين وفي معظم المنج وكذلك في كل القبائل المتفرقة المسماة جبرت وقبيلتي الدناكل والساهو . ومسماو أريتريا من لسنيين ، وهم على المذهب المالكي أو الشافعي . وهناك من الطرق الصوفية : الميرغنية ومركرها مصوع وكيرين ، والقادرية وهي منتشرة بين القبائل البدو ، والسمانية في جبرت ، وكذلك الاحمدية والصالحية ، وتقل الشاذلية والرفاعية والحداية والتيجانية . وقد حمل المسلمون في أريتريا ثقافة مصرية اتهم عن طريق اختلاطهم بالسودان وكذلك عن طريق الأريتريين الذين يتعلمون في رواق الجبرتي في الأزهر ثم يعودون إلى بلادهم حيث ينظر إليهم بعين التقدير والتعظيم .

ولكن جهود مصر في تنظيم هذه الثقافة التي استمرت طوال هذه الأجيال قد ضعفت أو هانت ؛ فطلبة رواق الجبرتي مثلاً في حاجة إلى تشجيع حتى يحملوا هذه الثقافة صادقة كاملة إلى مواطنيهم ؛ وإليك لتلمس استعدادهم في هذا المسأ يدعو إلى الاطمئنان .

العادات : يسترعى نظر المصري في تلك البلاد إما عادات غريبة عنه وإما عادات مماثلة لما ألفه . فما يستوقفه تسمية الأشهر العربية هكذا : رجب — مداجن — رمدان (أو صوم) — فطر أول — فطر ثاني — حج أول — حج ثاني — شفر — ربيع أول — ربيع ثاني — جماد أول — جماد ثاني . وهم لا يتزوجون في رجب ومداجن ورمدان وشفر لأنها أشهر فردية ، وقد يسمح لمن أراد أن يتزوج على وجه السرعة في هذه الأشهر على ألا يكون له إخوة .

ولا يكون الزوج إلا في الأشهر الزوجية وهي الأهر والخاحج والاربعات والأجندات، كما يسمونها.

والختان معروف عندهم، فهو لذكور ولإناث عند المسامين والمسيحيين على السواء.

وترى الصبيان يخلقون شعورهم بعد أن يتركوا خصلة من الشعر إما في وسط الرأس وإما على خبيه وإما مثل عرف الديك أي من مقدم الرأس إلى آخره، ولكل شكل منها اسم في لغتهم، وهذا يمتد ما تسميه في مصر بالشوشة والقصة والعروور وغيرها. ويحلق كذلك البنات شعورهن بعد ترك خصلة من الشعر على الرقبة أو على السوالمف أو حول الرأس أو في مقدم الرأس وفي آخره معاً، وتعرف الأبنكار بترك هالة من الشعر على رؤوسهن بعد حلقه.

وللأريترين معتقدات في قوة لشعر السجرة، لذلك يجمعون شعرهم بعد قصه أو حلقه فيحنونه تحت شجرة أو في مكان أمين، خوفاً من أن تذهب به الريح أو يطأه إنسان فيقف نمو الشعر أو يفقد صاحبه عقله «ينشعر» أو تتشتت أسرته كما تشتت شعره. ويعتقدون أن الحظ يأتي من الشعر فيقولون في تعبيرهم: هذا شعره سعد وذاك شعره نحس.

وهم يحنفون بنافهم بعد تقليم فيدومونها خوفاً من أن يسألوا عنها يوم الحشر.

وترى الطفل إذا سقطت سننه أخذ قطعة من الصوان وقطعة من الفحم ورماعاً مع سنه وهو يقول: أيها الصبع خذي سني الخيلة وأعطني سنك القبيحة. وهذا يذكرنا بما يقوله الأهل في مصر: «يا شمس يا شمس، خذي سنة العروسه، وهات سنة الحموسة». ولهم في ما كلهم عادات غريبة. لا يأكلون الأرنب ولا قلب الحيوان، ومنهم من يحرم أكل لسان الحيوان أو رثته أو معدته. ويختلف المسلمون والمسيحيون في ذبح الحيوان، فيوجه المسيحيون رأس الحيوان عند ذبحه صوب الجنوب كما يتوجهون في صلاتهم، ولا يأكلون ذبيحة المسامين كما لا يأكلون لحم الحمل أو الجراد.

أما المسلمون فيوجهون رأس ذبائحهم جهة الشمال الشرقي أي جهة القبلة، ولا يأكلون ذبيحة المسيحيين ولا لحم الخنزير. وقد قلت لأحد فقهاءهم إن تحريم ذبيحة المسيحيين يخالف الشرع الاسلامي، وإن الآية صريحة في سورة المائدة

«اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم» وطعامكم حل لهم » فقال إننا نعتبر المسيحيين هنا مسلمين قد ارتدوا ؛ لذلك لا نخالف الشرع إذا لم نأكل ذبائحهم .

ويصنع الأريتريون خبزهم من الذرة أو القمح أو الشعير بدون خميرة على الطريقة المعروفة عند البدو في مصر ، فيعجنونه على قطعة ملساء من الحجر أو قطعة من الجلد أو الخشب . وهم يصنعون الخمر إما من الشهد وإما من الذرة أو الشعير . ولهم تقاليد معقدة في حالات الموت : فهم يندبون الراحل بالطبل والرقص ويعددون صفات الميت ، ويختلف المتي باختلاف مركز الميت وسنه . وقد ذكر لي بعض الأريتريين أن الرعاة إذا مروا بمقابر يلقون عليها بعض الطعام والابن على ثلاث دفعات ، وإذا مروا على مقابر أقاربهم يحامون البقرة ويلقون ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الراحل ثم يشرب الأطفال ما تبقى من اللبن . وهم يكررون حلب البقر على حسب عدد الراجلين ثم يذكرون في كل مرة اسم الراحل . ولست في حاجة هنا أن أبين مدى اعتقاد الأريتريين في الأحجية والسحر والسحرة . ومما يلفت النظر أسماء الناس فلكل اسم معنى ، وتغلب على الاسم صيغة الجملة فتسمع بين أسماء الأعلام المذكورة : « حوار شيك » أي حمار الشيخ ، و « اتجاوها » أي أتى في الفجر ، و « هامرا باي » أي ضعف الأعداء ، و « هاربا » أي طعم الغريب ، و « جيب » أي غطاء (الأم) و « هاداما » أي هرب (الأعداء) و « بديهو » أي ألقيا . ومن بين الأعلام المؤنثة « أرهيت » أي أراحت « وقبريا » أي سعيدة . وقد ذكروا لي أن الأم تطلق عادة على كل من ولادها إسماً ثانياً يكون صفة .

والشعب الأريتري على اختلاف قبائله شعب فيه أمانة مشهورة ، وتقوم في العبادة ، وهدوء في الطبع ، وصدق في المعاملة ، وإخلاص في العمل . وأشكلكم في جعلتها لطيفة : وجوههم سمجة ، ولون بشرتهم أثمر مشرب بحمرة ، وأجسامهم مستوية . وقد اشتهرت نساء قبيلة بلين بمجاملهن ، وتراهن يسترن المصنف الأسفل من أجسادهن بقطعة من قماش ملون يضممنها حول خصورهن . وتسير المرأة من نساء بلين بخطوات هادئة رزية متناسقة ، وهي تخور بجسمها النحيل السميري المستقيم كالتمثل المنحوت ، وذراعاها سبطتان ، وخصرها لا يتحرك في سيرها ولسكنه بعيد عن الجلود . وملامح وجهها مستوية رقيقة فيها خفر يضم

سر الجاذبية غير المتكافئة . وقد قال لى أحد أدباء الطليان هناك إن بمثلات السيخا في هوليود يمكنهن أن يتعمن من نساء البلين الكثير من سر الجاذبية الجنسية .

الأرب الشمي : يغرم أهل أريتريا بالاحاجي « والتوازي » . وهذا ينذر في لغات اثيوبيا ، ولكننا نعهد مثله في مصر . ولهم غرام أيضاً بقصص الحيوانات أو شرح الأمثال على ما هو معروف في الأدب العربي . فعلى مقربة من مصوع جبل منفرد على الشاطئ ، اسمه جادام . ويقول أهل أريتريا إن الجبال أرادت أن تعقد مجلساً فقالت لنذهب إلى الشاطئ ، ولما هموا بالذهاب سبقهم إلى ذلك جبل جادام ، فوصل متقدماً إلى البحر فطغى عليه وكان مؤخره لا يزال ثابتاً في الأرض ، فلم يتمكن الجبل من الحركة ، فصاح بزملائه : ليقف كل منكم في مكانه فوقفت حيث تراها إلى اليوم ؛ ولذلك تجدد جبل جادام يسبق الجبال إلى الشاطئ . ويقولون في الأمثال : « لا ترتكب خطأ فإيه يجب أن يقف كل في مكانه كما قال جبل جادام » ويقال أيضاً : « أخطأنا كما أخطأ جادام » .

أما قصص الحيوان عندهم فلا تخلو من مغزى اجتماعي أو سياسي . وإليك مثلاً قصة قصيرة : « يحكى أن رجلين التقيا على قارعة الطريق فتبادلا التحية ، وسرعان ما وضع همار كل منهما فمه على فم الآخر ، فاستغرب أحد الرجلين وسأل الآخر عن سبب ذلك ، فقال له إن الحمير أرسلوا حماراً قويا إلى الله عز وجل ليحمل شكواهم ويخلصهم من نير اللسان ، لذلك يتساءل الحمير كلما تلاقوا أرحم رسولهم أم لا . المغزى : أن كل مخلوق يتطلع إلى الحرية . وأما غرامهم بالشعر فعظيم ، وهم يعرفون من أنواعه الرثاء والغزل والمدح والهجاء وشعر الحوادث السياسية . وإليك بعض ما قاله شعراؤهم في المصريين .

فهذه مقطوعة شعرية نظمها رجل ثرى من أهل أريتريا أيام حكم الرأس ألولا وقد قبض عليه الرأس ووضع في الأغلال ولكنه هرب ، وقد تحير إلى أى الفريقين ينضم : الاحباش أم المصريين ، فقال بناجى ابنه موسى ويذكر له أنه سينضم إلى المصريين :

« يا موسى يبحثون عن أبيك كل يوم
يقولون لك هو سجين يصعد في الأغلال

يقولون لك قد قتل وطعن بالخناجر
إن أباك ذاهب إلى جندار مع الخيول الصهماء
إن أباك ذاهب إلى مصر مع السودان الأحماء .»

ثم هذه قصيدة أخرى نظمت أيام كانت قبائل التيجري مورعة بين الأحباش
والمصريين ، وكان الشاعر مع المصريين يعمل في حصن كبيرين ، وكان له صديق
انضم إلى الرأس ألولا ، فقل الشاعر القصيدة بخطه ، وهو يمتدح المصريين
ويذم الخصم ، ثم يشير إلى ضعفه إذ لا يستطيع أن يشار من أهله ويناقض شاعره
ثم يرد التهمة الموجهة إلى خطيبته :

« إن سيدى حاكم مصوع والمكوس (الجمارك)
أما سيدك فخذة على الشجرة

إذا طارت خطفت المصارين والأحشاء
قد تركتم لنا من الفزع قبائر المنسوع ولهيجات
وكل من تركهم «ألولا» خلقه نمحكه نحن
ما ذ يعطيكم لتأكلوا سوى الخبز وحده !

يقوم بينى وبينكم بحر واسع
فسيدي يعطى الكساء الجديد إذا نال القديم
ويجزل العطاء فيملاً يدي بالنقود

متى قلت إني عريان أو إن لباسى ممزق .
هل آخذ تأرى منكم أو أتركه ؟
تعال إلينا فنحن أثرياء

لحماية سيدى لا تقدر فضلا عن سخائه
إن تأرى جائع لكنه لا يرغب في الطعام
إن تأرى ظمآن لكنه يأبى الارتواء
لا يخرج تأرى إلى أبعد من الكلام إلى لباس
تأرى ضعيف لا تقوم له قائمة
فالضعيف يتكلم حين لا يسمعه أحد

يقولون (أي أصحاب الرأس الولا) إني سكران كآني نمل من الخمر
 يقولون إني مجنون كآني اقتحمت منازلهم
 ولكنهم خاطئون فلم شرب الخمر ولا طرقت منازلهم
 بلغ سلامي يا صديقي إلى الحبيبة إذا مروا بها
 ليس جهاها الذي أعلني وأسقمي
 بل كما لها في قولها وتماها في فعلها
 ليست عبدة بشعر مجعد سلاحها الكذب
 ليست بغيا تجلس أمام كل بيت
 إذا أحببت رجلا أنفت مطارده
 وإذا لم تحب الرجل رفضت جميع ماله
 هم يقولون إنها بغي كذبا وظلما
 إنها تابعة في دارها في عيش رغد
 أنا مطمئن اليها واثق بها
 لذلك أنا ذاهب الآن إلى عملي في الحصن حيث الضباط . »

مراد فاعل

ليلة في فرسوفيا

في إحدى ليالي شهر أغسطس أو سبتمبر ، حين تكون الحرارة في القاهرة قد بلغت أقصاها ، ويجئهم على قلوب الناس هم من السعير الملهب ، وفي تلك الأيام الخالية حين كان اسم هتلر يتلألأ في سماء ألمانيا ، بل في تلك السنة التي استضافت فيها ألمانيا أبناء العالم من شرق وغرب ، أعني سنة الألعاب الأولمبية ، كان أربعة رجال من بني البشر يخرجون مسرعين في جنح الليل من بناء جديد أشبه ما يكون بشكنة ، لكنه كان في الحقيقة مدرسة ، قاصدين إلى قاعة يعامها اثنان منهم على الأقل ؛ لأحدهما كانا واثقين في سيرهما ، ويسير إليها الآخران واثقين في الصحبة .

كان الرجال الأربعة يرتدون معاطف لم يملأها المطر ، في تلك الليلة من شهر أغسطس أو سبتمبر ، ولكن البرد كان ينفذ إلى لحومهم بل إلى عظامهم بل إلى أوتدتهم ، فهم لم يكونوا في القاهرة ، ولا في برلين ، بل في فرسوفيا عاصمة الدولة البولونية .

كان الأربعة في سباتهم مزيجاً عجيباً من بني البشر . ثلاثة قصرت قاماتهم على تفاوت في القصر ، وامسأت أبدانهم على تفاوت في الامتلاء ، والرابع طويل القامة نحيل الجسد . كان أحدهم قصير القامة ضخم الوجه ذا لون أبيض أوربي مشرب بالصفرة ، وعينين خضراوين يتلألآن بشيء من حب الفكاهة والطيبة أيضاً ، وهو حليق الشاربين والرأس ، أو ما بقي من شعر الرأس ، فقد أعمل فيهما الموسى ، ولذلك بدا الرأس ضخماً متسكورا . وكان الطويل النحيل أبيض اللون أيضاً ولكنه ذو شعر غزير ، أو أن الشعر كان غزيراً ؛ فهو حليق اللحية ، ولكن الشعر ترك أثراً أخضر . وقد تدلى من كل جانب من فمه شاربان لونهما يميل إلى الصفرة . أما شعر الرأس فقد وقف عند الجبهة على باب الزوال وضاع الكثير من لمعته وحيويته . والشعر في هذه المرحلة يستجيب إلى الهواء

في سرعة وفي صعوته ، فهو إذا عث به فهو ، فقد نلك لاستجابة مناسقة التي هي دليل الشباب .

أما الرجال الآحزان فسجنتهما نذل دلالة كافية على أهمها غريمان عن تلك البلاد ، أحدهما أبيض اللون - أحل - ولكن في بيضه حمرة عميقة فما شاهد في أهل الشمال من أوربا ، وهي إن شوهدت هدت ، اتخذت بريق طيف من أطياف اللون الأحمر التي راها في البحر الأوربية وفي البعيد سموع خاص ، ودلت على أن صاحبها بكثير من الشراب حتى تأثرت به بشرة وجهه . أما هذا اللون في هذا الرجل فكان فيه شيء آخر يعزوه ويدل على أنه من لفتح شمس قوية ، قد تكون شمس جنوب أوربا ، أرض تلك الأعاب الحضراء الزاهية التي تحدها ممتدة إذا سار بك القطار من ناولي إلى روما ، وتلك الأراضي الساحرة القائمة حول خليج سورت حيث تجتمع رقة الماء بزرقة السماء تغشي الانتيان غلالة من نور لا تقطع اتصالها إلا الأرض لأرحوانية . ويريد في حملها ذلك الدخان لأبدى المتدفق من الماود الزاير في جوف الأرض . أو ربما كان ، إذا لم يكن من أهل تلك البلاد ، من أهل إقليم أوربي في الحبوب من أوربا أيضاً ، إقليم حدائق البرتقال ، ذلك الذي عرف العرب فترة صوبلة ولكن إلى حين . ذلك أول ما يفكر فيه الأوربي إذا ما رأى شخصاً قريباً إلى لون بشرته ، فهو لا ينتقل بالفكر إلى قارة أخرى ولو إلى الشاطئ الآخر من البحر المتوسط ، فذلك العالم بصحرائه ونخيله وجماله بعيد عليه .

كان هذا الرجل الثالث ذا شارب قصير ، وكان ضلع الماصية وكان مياض لشيب قد ضفى على المقية الماقية من شعره ، وقد وضع على عيبيه مضجراً يخفي وجهها لمائل إلى حضرة ، حضرة رتيبة عميقة . أما لرجل الرابع فلا يحل المناظر إليه أنه من أرض إفريقية ، ومن تلك الأرض التي عرفت الفراعنة ، فلو أنه الأسمر مزيج من اللون والبرونجس الممتلئ يوحى فكرة عامة عن تمثال « شيخ البلد » المعروف من رسومه بأوربا .

خرج الرجال الأربعة يهرولون في ضوء مصباح خافتة ، تتقدم البولوسان جماعة ، وركبوا سيارة حرة ، فسرت بهم شق ضيقة لها بين شوارع بعضها واسع وبعضها ضيق إلى أن وصلت بهم ماء غلي شاق ، أول ما بلغت النظر إليه مات كثير من الحدد المذهب ، وأمامهم هد نساء ساحه كنيحة مبهوكة يحيط بها سور

قصير، وفي هذه الساحة صفت موائد عدة . وأسرع البولونيان إلى مائدة منها على مقربة من السور في الجانب الآخر وتبعهما المصريان، فإذا بهن يجرى تحت تلك الساحة، وإذا هم يشرفون على منظر ساحر .

جلس الأربعة، وأسرع المضيفان فطلبوا من الخادم شيئاً لم يتميز المصريان منه إلا كلمة « فودكا »؛ فقد أنفا هذه الكلمة منذ ولئت أقدمهما تلك المدينة التي تكاد تكون روسية في مشربها . وجاء الخادم بعد قليل بزجاجة كبيرة مليئة بالفودكا، وأربعة أقداح، وجلس الأربعة إلى شراب ودار بينهم الحديث .

كان هذا البناء الضخم نادياً لرجال الجيش يسمرون فيه ويرقصون، ولا بأس من دخول بعض الضيوف إليه . وأكثر الضيوف عادة من النساء . ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى كانت أنغام الجاز تتراعى إليهم بطيئة ساحرة أحياناً، فإذا هي تانجو أو رومبا، أو سريعة أحادة فإذا هي فوكس تروت . وأخذت الفودكا تتمشى في مفاصلهم سريعاً، فتبدل الجو البارد إلى دفء أشبه شئ بدفء إفريقية، ولعلت مياه النهر أمامهم فذكرت اثنين منهم بنهر آخر بديع ولكنه عظيم، وبدأ ينسيان العالم إلا تلك الجلسة السعيدة، غابت عنهما معالم الزمن . وهل لدى الإنسان ساعات أسعد من تلك التي ينسى فيها الزمن !

كان الحديث يدور بين الأربعة متقطعاً؛ إذ لم تكن لديهم رغبة في البحث العميق، ولم يفتظم غير ملء الأقداح كلما فرغ خدش في جوفه تلك النار المذبة . حتى إذا أتى الأربعة على الزجاجة قال أحد البولونيين: هيا بنا . وقام المصريان — في شئ من التردد — من تلك الجلسة اللذيذة .

ركب الأربعة عربة يجرها جواد عجف، فسارت بهم على مهل في الشوارع الضيقة والمتسعة لتلك المدينة القديمة، وربما سارت في ذات الشوارع التي اخترقوها . ولكن كيف يعرفها الأجنبيان ! إذ لم يقبها في العاصمة البولونية قبل ذلك إلا بضعة أيام . ولو أنهما عملاً على تعرف الشوارع لما تيسر لهما ذلك الآن . وكيف يستطيعان وقد ما زلت الفودكا رسيهما بنشوة أضفت على العالم من حولها غلالة شغافة لا تكاد تتميز منها الأشياء، ولكنها لامعة .

سارت بهم العربة إلى أن وقفت أمام كومة من القمامة هي ساء شامخ له باب صيق عليه حارس، ونزل الأربعة مسرعين ودخلوا في طريقة طويلة سمو في آخرها معاطفهم إلى فتاة حميلة . ومن باب قصير دخلوا إلى ردهة واسعة

كانت لرددة غاية في الإثافة . وقد صفت حولها موائد لجالسين ، وفي وسطها مكان مسيح من الخشب يستعمل مساحة للرقص أحياناً ، وللعرض أحياناً . وكانت الرددة مصاةة بنور أبيض ضئيل يحاكي ضوء القمر في هدوئه وفي خفوته ، وكان هذا النور الخافت يتراعى من مصابيح رسمت على شكل أقمار ونجوم ، في قبة الرددة التي كان لونها أزرق صافياً يحاكي لون السماء . وكانت الموسيقى تعزف رقصة تانجو ، في حين أخذ اثنان من الراقصين يقومان لعرض الرقصة .

جلس الأربعة إلى مائدة ليست في الصف الأول من المتفرجين ، فجميع الموائد في ذلك الصف كانت مشغولة ، وجاءت في الحال زجاجة الفودكا الكبيرة والاقداح الأربعة .

كان المصريان يشعران أنهما احتسيا فوق طاقتهما من هذه الحر الشديدة ، ولكنهما في سبيل مجارة مضيفيها ، أو لأنهما خافا أن يضطرا إلى نوع آخر من الشراب ، أو بسبب ما تجره الحر من فقد الإرادة ، لم يعترضا على الفودكا . امتلأت الكؤوس وأخذ الغريبان يميلان النظر فيما حولهما ، فإذا الحاضرون على ما يظهر من رجال الطبقة الممتازة ، وإذا مجموعة من الرجال في ثياب السهرة الأنيقة ، ومجموعة من النساء في أغلى الثياب ويدعها ريشاً ، غير أن العجيب في هذا الجمع أن أجمل السيدات وأكثرهن فتنة كن يلمس عادة مع رجال متقدمين في السن ، أبيض شعر الرأس منهم أو فقدوه . وهكذا كان حظ هؤلاء النساء الظامعات في الزينة والثراء . إن من حظهن أن يبدلن شبابهن لأكثر الرجال قدرة على إرضاء رغباتهن في المال ، وهؤلاء يكونون عادة من الرجال الذين أنفقوا رهرة شبابهم في جمع الثروة ، فإذا نالوا شيئاً منها ، كان شبابهم قد ذهب ، وهم على الأقل يستطيعون أن يتعلقوا بأذيال الشباب ، بأن يصحبوا هؤلاء الفتيات خيالات . وهكذا ستظل الحال دائماً ما دام الذهب هو المسيطر على الأمور . وستجد دائماً رجالاً أثرياء يتمتعون بشباب الفتيات ، وفتيات جميلات يبعن شبابهن من أجل المال .

كان الرجال الأربعة قد ملئوا خمرًا بحيث غشت أنصارهم غشاوة من شر حر ، وكانهم ينظرون إلى الحاضرين من خلال ضباب ، وصاروا يتكلمون بأحاديث متقطعة أكثرها دعوة واستحسان للمريد من شراب ، تقطعها ضحكات صغيرة على عبارات نافذة . غير أن أحد المصريين كان لا يزال فيه قمية من قوة الملاحظة ،

ولم يكن يستطيع أن يحول نظره وقيمة أفكاره عن ثمن جالس بحيث لا يرى منهما غير الظهر . إلا إذ التفت قليلاً إلى الخلف . كان الرجل يديناً ذا رأس أملس إلا من حفاف من الشعر الأبيض ، على أنه يرتدى ثياب سمرة السوداء من خير الأقمشة ، وقيصه وياقته غاية في النقاء ، وهو حليق اللحية والشارب ، وقد غصت وجهه التجاعيد من كل جانب ، ولا سيما في أسفل رقبته . وإلى جانبه فتاة شقراء هيماء بقة ، وقد ارتدت ثوباً من الحرير الأزرق ، وتمرى ظهرها إلى ما يقرب من الخصر من وهو ظهر جميل في تكوينه جمالا يفوق التصور . وقد فكر المصري لمن هذا الظهر هو الذي سلب لب صاحبها ، ثم ابتسم لفكرته .

كان الرجل يدخل سيجاراً غليظاً ورأسه إلى الوراء وأمامه الكأس الالامعة . أما الفتاة فكانت منحنية إلى الأمام قليلاً ، وقد وضعت رجلا على رجل وأحدث تدخن سيجارة ، وأمامها الكأس .

ولقد كان ظهرها في جماله وانحنائه القليل كأنه تشكيم إنه لا شك يعبر عن سأم ، سأم قاييل ليس معناه أنها ستحاول أن تغير من هذه الحياة ، بل معناه أنها ستظل ترتاد هذه المتندبات الليلية ، وهي مسكن بقيها شر التفكير في حياتها . ومن قال إن المسكن من الأدوية يشعير بالصحة ! إنه يحو الألم الكامن .

كانت المياطر تتقاع ، من راقصة تكاد تكون عارية تعرض فيها ، إلى معص هرم حس الصوت ! كل منهما يعرض فيه ثلاث مرات ، وبين هذا وذاك أدوار الرقص يشترك فيه بعض الحاضرين . غير أن هذ السيد لم يقم بمراقبة روحته أو صديقتة ، واستمر جالس : هو يدخل سيجارة ، وهي تظهرها الخمر جميل المحنى قليلاً تدخن سيجارة ، أو ترتشف خرقة من الكأس . وليس ثمة شك في أنه لو طلب إليها المراقبة لاتنصت لقامها الهيماء ، ولحاصرت هذا الحسد البدين . إنه جزء من واجبها !

عاد دور العرض ، وكان الرجل المحمور لا يزال ينظر إلى الحسد البدين . وإلى جانبه الظهر الجميل المحنى قليلاً . يمثل السامة والممن ، وإذا بهد الظهر بنتصب فجأة ليرقب شيئاً ، وإذا بصوت يحدنه الحرير من تغير أوضاع الجلسات بين مثات من النساء ! لا رس في شهن أحدن ينتهن باهتمام إلى العرض .

التفت الرجل هدا فتى قوى الجسم ذو شعر قصير غزير ولكنه قصير ،
ترندى ثيابا زرقا على مثال شمس الفلاحين الروس ، ولكنها من الحرير
الاررق الفاتح الراق ، وهو جميل الصورة جدا ، غير ان كل حركة في جسمه تتم
عن رجولة .

وعرفت الموسيقى في قوة وحرارة رقصة روسية ، وأخذ الشاب ينتنى على
ساقيه ثم يقفز ، وكان سريعا رشيقا لحركة ، وكانت الموسيقى حاصفة وقصيرة ،
وانتهى الرقص سريعا ، وخرج الغنى برأصفيق حاد ، غلبه من النساء الجميلات .
لم تخض فترة حتى عادت الموسيقى الى عزف رقصة روسية من نوع
« الجوباك » وعاد الغنى الى الرقص . وكان سريعا ورشيقا وقويا ، وكان اهتمام
لنساء واهتمام الظاهر احميل باديا للرجل المصرى ، حتى كاد يرفع عن عينيه شيئا
من غشاوة الحمر .

وعلى حين خفة وإثر قفزة هائلة من الراقص ، دوى في أرجاء المكان صرخة
امراة وشهيق .

وهب الجالسون الاربعة ، إذ قال أحد المولوديين منهم : « هيا بنا » . وهرول
الاربعة إلى الخارج يترحمون ، ولم يستطع المراقب منهم أن يتبين وسط الدخان
والحمر إلا أن صاحبة الظاهر احميل لم تكن هي الصارخة .

من ثمود

الكنيسة الشرقية

إنه إن دواعي الاعتماد وآيات التوفيق أن تشعب الحركة الثقافية في الشرق الأدنى فتتناول كل يوم ناحية جديدة من الفكر الانساني . ولما كان للأبحاث التاريخية القيدح المعلى فيما يتوفر عليه قادة الرئى من مواضع النظر رأينا الإيدلاء بكلمة عن الكنيسة الشرقية وتطورها على مر الاجيال .

تقول الكنيسة الشرقية ، وسرعان ما يدفعنا الحرص على نفى الناس أن نعرفها بأنها ليست مقصورة على كنيسة معينة من حيث العقائد والطقوس والمذاهب والادارة إلى غير ذلك من شتى العناصر الجوهرية أو الثانوية ، بل هى الكنيسة الشرقية فى أعم معانيها ، هى مجموعة الكنائس المسيحية التى نشأت فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، فنمت وشبت على سواحلها ثم امتدت إلى العراق وفارس والحبشة ثم إلى أوروبا الشرقية وحتى إلى الهند والصين . تلك الكنائس التى بقيت ، مع اختلافها فى بعض المناحي المذهبية أو مسايط الإمامة الروحية ، متحدة اتحاداً تاماً فيما يتصل بنواة العقائد المسيحية

من خصائص البحث العلمى فى القرن التاسع عشر الرجوع إلى المصادر لتاريخية والعناية بدرس التيارات المذهبية فى نشأتها . ولا غرو أن الوقوف على العوامل الأولى التى تأثر بها مذهب من المذاهب الروحية وطبيعة البيئة الاجتماعية التى أسلمت له قيادها ثم وسمته لعقليتها حير معوان على تمييز عناصره لفعالة وتحديد غلاقته بما تقدمه من المذاهب التى تفرع عنها . فى رأى « تين » أن العبقرى وليد جنسه وبيئته ورومانه ليس إلا . ويرعم هيجل أن تاريخ الفكر سلسلة متصلة لتفاعل مذهبين متناقضين يأتلفان فى مذهب جامع الأضداد . وحلى أنا مع نبذنا ما يطبع هذه الآراء من الحرية المتطرفة يحق علينا درس الكنيسة الشرقية فى نشأتها لتستوعب بعض خصائصها الحاضرة . وقد حلت المحث لقيف

من المؤرخين مثل دوشين Duchesne وهرنك Harnack وباتيفول Batiffol وفستجيير Festugière ما تميزت به هذه النشأة؛ ونورده ملخصاً فيما يلي .

أولاً أن المسيحية - أو بالأحرى المسيحية المطلقة - قد نشأت في القدس (الجليل واليهودية) . تلك ملاحظة بليغة المعنى على سذاجتها ، فهي تنبئ عن ارتباط المسيحية بمقائد العهد القديم . فلا ننسى أن تعليم المسيح جاء مكملًا لتعليم موسى وسائر الأنبياء ، وأن العهد الجديد ليس في نظر المسيحيين إلا اكتمالا لتطور العهد القديم أو تحقيقاً لأمايه على صورة واقعية عملية لا مجرد مثالية . كانت هناك الكتب المنزلة ، كانت النبوءات المدونة ، كانت الصلوات القائمة والطقوس الصارمة . وعاش المسيح طوال السنين في ذلك العهد يدين بدينه ويلتزم كل فريضة من فرائضه . فالكنيسة الشرقية منذ نشأتها مشبعة بهذه الروح الشرقية التي طبعت العهد القديم بطابعها الخاص . ولا تبرح ذاكرة سلالتها معتزة بشرف نسبها .

غير أن هذا النور الذي انبج في الشرق قد فاض على عالم ساد نظام روما فترعرت الكنيسة الشرقية في محيط روماني . سيطرت الإمبراطورية الرومانية على العالم المتحضر ولا سيما إقليمه الشرق وفيه سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى . ولم تكن هذه البلاد الرومانية أشلاء لجسم عديم الحياة بل كانت تؤلف وحدة جغرافية اقتصادية سياسية متماسكة الأطراف . وحسبنا دليلاً على انتظامها في تلك الوحدة الحية ما بقي إلى يومنا من شبكات الطرق الرومانية التي كانت تجتاز العالم المتمدد منتهية إلى روما قلبه الناض . فلم تكن الكنيسة الشرقية منعزلة عن الغرب ، بل ظلت متصلة به أوثق اتصال توفد إليه أعلامها وتبادل به أسباب الحضارة . فقد انتشرت التجارة بين مختلف الأقطار ، وكانت الجيوش الرومانية تحتل حواضر البلاد الشرقية ، والموظفون الرومانيون يتقاطرون إليها يزودونها بالنظم الاقتصادية والسياسية . فلا عجب أن تتأثر الكنيسة الشرقية بتلك النظم وما يسميها من الحزم والدقة .

وهناك عامل آخر جدير بالاعتبار ، هو البيئة اليونانية التي درجت فيها الكنيسة الشرقية . وقد أفرد الأستاذ فستجيير Festugière في تحليل

هذه الميئة ومقاربة روحها بالفسية الحديدية صفحات متمعة تمتد سر الحقة
الممتارة من تاريخ الثقافة العامة . وفي الواقع أن إسكندر الكبير صرب بسهم
وافر في خلق روح شاملة تلو الفروق الحسية والبرعات القومية ، روح وثام
وإحاء انتشرت في القرون الثلاثة السابقة لعهد المسيح وسميت بالهلنية
hellénisme لما يطعمها من الثقافة اليونانية . وإذا شئنا بحال خصائصها نكلمات
معدودة قلنا إن قوامها تحقيق المثل الأعلى للإنسان من حيث هو إنسان في
حى النظام الذى تصطلعه المدينة اليونانية . ولا يخفى أن الشخص والمدينة كانا
محورى الهنية . ولا يتسع لمقام هنا للإفاضة في تحليلها . فحترى بالاشارة إلى
أن المسيحية عني عموم والكنيسة الشرقية على الخصوص قد تلتقت هذا التراث
أقديم وفرغته في قالب حديد و نفثت فيه روحاً جديدة هى رسالة المسيح
الفائقة لطبيعة . وقد غر هذا الاصطماع بالهلنية بعض الباحثين فتوهموا أن
الثقافة لمسيحية مجرد طور من أطوار الثقافة اليونانية ، ولا سيما من الناحية
الفسفية . ولا يخلو هذا الحكم من تحيف لأصلية الرسالة المسيحية وتوقعها
في جوهرها على كل ما سبقها من المبادئ النظرية . غير أنه يجب الاعتراف بالآثر
اليوناني في الكنيسة الشرقية بل في الكنيسة جمعاء . وفي الحق أن المدن التى
طافها الرسل لنشر الرسالة الحديدية كانت مدناً يونانية ولغة التخاطب والفكر
كانت اليونانية . وقد ظل التعبير بهذه اللغة شائعاً حتى أوائل القرن الثالث ، وكان
جميع آباء الكنيسة الأولين حتى أكليمميس الرومانى Clément de Rome
يكتبون بها . فلا يغيب ذلك عن ذهننا حين ننظر إلى كنيسة الإسكندرية في
القرنين الثالث والرابع بل إلى بعض الكنائس الشرقية في أيامنا هذه وما يتخلل
أدعيتها من العبارات اليونانية .

ويجمل التنويه في هذا المقام بأمرين : أولاً ، ما عانت الكنيسة الشرقية
كشقيقتها الكنيسة العربية من ألوان الاضطهاد في نشأتها الأولى إذ كانت
الوثنية في عنفواها . ولئن تأتى للمسيحية أن تخلع الأصنام من معابدها وتبث
الروح الحديد في مجتمع يدين بأديان من طقوسها ما يبدى لها الجبين فلم يتم لها
هذا النصر إلا بما سفلك شهادتها من دماهم في كل بقعة من الإمبراطورية
الرومانية . وكان لشرق في هذا الاستشهاد نصيب مجيد : ثانياً ، أن الرسالة
المسيحية لم تظهر على صورة فلسفة نظرية لا يدركها الا الخاصة من أعلام الفكر

الكنيسة الفرقة

من كانت موجهة إلى سمة الشعب من جهلاء وفساد، تمتع في قلوبهم النور مع
برحاء ولا أدل على تأثيرها في تلك النفوس الساذجة من رسائل القديس بولس
ولا سيما رسائله إلى أهل كورنثيا .

دبت شأن الكنيسة الشرقية من حيث نشأتها . أما نموها وانتشارها على
سواحل البحر المتوسط وصمعة محيطة من تاريخ الفكر في الشرق الأدنى .
كانت الكنيسة الشرقية حلقة الاتصال بين التعاليم المسيحية والثقافة القديمة
من يونانية ولاينية . وقد تركزت هذه الحركة الفكرية والدينية معاً في بعض
مراكز هامة ، أخذ كل منها يوجه الفكر وفقاً لمزاياه الإقليمية والتاريخية .
وأولى الكنائس شأنًا من حيث الطرز مضمون الوحي والرسالة المسيحية هي
دون مراء كنيسة الإسكندرية . ولا غرو فقد كان للإسكندرية قبل المسيح
تاريخ مجيد من الساحة الدينية نفسها ، إذ تلاقى فيها الوحي الإلهي والحكمة
اليونانية بأعمال المثقفين من اليهود ولا سيما فيلون الإسكندري . والواقع أن
ترجمة العهد القديم إلى اليونانية ومحاولة شرحها شرحاً رمزياً على غط التفسير
ليونية القديمة مما نهج السبيل إلى قبول المسيحية في معشر المثقفين . وتاريخ
مدرسة الإسكندرية القديمة أشهر من أن يحتاج إلى التعريف . فلا يخفى أن
الإسكندرية كانت في القرنين السابقين للمسيح المركز الحقيقي للثقافة العامة
في السلاسل المتمدنة . أما ما يخلق بنا الإشارة إليه فهو أن الإسكندرية
صمحت أيضاً في القرون الأولى بعد المسيح مركزاً هاماً للتفكير الديني . ولا
يعني الفلاسفة الأفلاطونية الجديدة حسب ، بل كذلك لعالم كنيسة الإسكندرية
والجامعة Didascalée التي أنشأها أكليمصس الإسكندري ، وكان نبراسها
ورحيس Origène . وقد بلغت أوج المجد في القرنين الرابع والخامس على عهد
لقديس أنثاسيس Athanase - وكيرلس Cyrille . فمأخرانا أن نتعمق تاريخنا
الثقافي والديني في هذه الحقبة وهي حافلة بمفكرين ، مجددين ذوي رأي وإقدام
يقدرون الحق قدره ويرقصون الاصطهاد في سبيل الدفاع عن عقائدهم مضحين
بحياتهم إخلاصاً لإيمانهم . من ذا الذي يتنبه القديس أنثاسيس مثلاً في فضاله
عن العقيدة التي قررها مجمع نيقية Nicée ولا يأخذ العجب .

لقد ذاع صيت الإسكندرية شهداً وعلماءها ، وتمجدت الكنيسة المصرية

الكنيسة المرفقة

قائمة برهانتها وديارها . فهناك القديس أنطونيوس الشهير ، وهناك مئات بل آلاف من النساك الذين ملأوا الديار المصرية صوامع تفوق الحصر كانت معها لا ينضب للحياة الروحية الحق . ولقد أثرت هذه الروح الدينية المصرية في المصرية بأسرها ؛ إذ تلقت المسيحية عن أسمتهم « آباء البرية » طريقة خاصة للتأمل والتعبد والتنسك مازالت مثالا يحتذى . وما الأديرة القائمة في مصر حتى الآن إلا آثار لما كانت عليه الحياة الروحية في الكنيسة المصرية طيلة القرون الستة الأولى . وعلى الكنيسة القبطية اليوم ، وهي ورثة كنيسة الإسكندرية ، إحياء هذا المجد ورده غرة في جبينها .

وإذا انتقلنا إلى سورية ألفينا مركزاً آخر للكنيسة الشرقية في مدينة أنطاكية ، تلقت كلاسكندرية التراث اليوناني بتغذيتها بالثقافة اليونانية . وقد اتخذها أباطرة الرومان مقراً لهم حيناً بعد حين . وفي هذه الحاضرة بدأ المسيحيون نشر دعوتهم بين الأمم غير الإسرائيلية ، وفيها لقبوا لأول مرة بلقب « أتباع المسيح » christianoi . وقد طارت شهرة أنطاكية لإقامة القديس بطرس زعيم الخواريين فيها قبل انتقاله إلى روما حيث استشهد . وامتازت أنطاكية من الجبهة الفكرية بصيغتها الوضعية ؛ فكانت أشد ميلاً إلى التعليم الأرسطي حينما كانت الاسكندرية متشربة بروح الأفلاطونية ، نازعة إلى التفسير الرمزي . تمسكت أنطاكية بالتأويل الحرفي الأقرب إلى النص ، وأنعمت النظر في إنسانية المسيح وميزاتها البشرية على تقيض الإسكندرية ومدرستها اللاهوتية . وهذا التباين في الاتجاه العقلي من الأسباب التي أدت إلى الخلاف الذي نشب بين الكنيستين . وأشهر ممثل لكنيسة أنطاكية القديس يوحنا فم الذهب ، وهو أعظم خطباء القرن الرابع ؛ فقد توفر على إلقاء المواعظ طيلة حياته الأسقفية واضطهد لصراحته في الرأي وثباته على العقيدة .

أما كنيسة أورشليم فلم تنل من الشهرة الثقافية ما نالته الاسكندرية وأنطاكية . نعم كانت أورشليم مصدر الدعوة المسيحية ، وفيها أخذ الرسل بشرون الدعوة بين اليهود . بيد أنها لم تكن من المدن الهيلينية الأصيلة لتمسكها بتقاليد اليهودية ونفورها أشد النفور من كل محاولة لصبغها بصيغة يونانية . فعذبوع الديانة المسيحية فيها ظلت ردها من الزمن تنو إلى اليهودية

شئ من العطف حتى اكتمل تطورها النفساني من حيث إحلاصها لرسالة المسيحية الصرفة .

ولسورية والاصمقاء المجاورة فضل آخر على الكنيسة الشرقية ، هو إنماء ثروتها الفكرية بثقافة اللغة الآرامية السريانية ، تلك الثقافة التي أنجبت أعلاماً من طراز افرهط وأفرايم ويعقوب . والقديس أفرايم هو الإمام الأكبر للكنيسة السريانية ، شرقيها وغربيها ، فسر الكتاب المقدس وألقى المواعظ ووضع الأناشيد إلى غير ذلك من الأعمال الروحية . ويقترن بذكره اسم ناسك آخر تصوتت تقواه في الأقطار السورية هو القديس مارون . أبو الطائفة المارونية .

وأخيراً نتوجه نظارنا إلى الكنيسة التي أصبحت بعد القرن الرابع مركز الدائرة من الكنائس الشرقية قاطبة أي كنيسة القسطنطينية . استظهر قسطنطين الكبير على أعدائه فاعتنق الدين المسيحي ، وشاء أن تكون روما رأس المسيحية . فعادها ليؤسس مدينة جديدة تصح رمزاً للإمبراطورية الحديثة . فبنى القسطنطينية على ضفاف البوسفور ، وانتقل إليها مع حاشيته . وكان لهذا الحدث خطورته في تاريخ الكنيسة الشرقية ؛ إذ تحولت به نقطة الارتكاز الثقافية من غرب إلى الشرق . كان قسطنطين يحاول أن يفصل الشؤون الروحية عن شؤون المدنية على ما يقتضيه المذهب المسيحي . ولكن السلطة المدنية أخذت من بعده تفتت على حقوق السلطة الروحية مما أزل أحياناً الكنيسة ورؤسائها مرة التابع للإمبراطور البيزنطي ، فأدى هذا لاغتصاب إلى اعتقاد أن الدين والجنسية قد توحدا ، فعانت الكنيسة الشرقية — ولا تزال بعض أقسامها تعاني إلى اليوم — صعباً حمة من جراء هذا الاعتقاد الفاسد .

أصبحت القسطنطينية عظم مدينة في الإمبراطورية ودعيت روما الثانية . فكما أصبحت خليفتها من الوجهة السياسية ، حاولت شيئاً فشيئاً أن تصير أيضاً حقيقتها أو على الأقل نظيرتها من الوجهة الروحية ؛ فوفقت في ذلك بعض التوفيق إذ أصبحت في القرن الخامس إحدى البطريركيات الشرقية الأربع (وهي أورشليم وأنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية) .

ولابد من الإشارة في هذا الصدد إلى النزاع الذي شعر بين الكنيسة الشرقية

الكنيسة الشرقية

والكنيسة الغربية في القرن التاسع وحتى إلى انفصال الجزء الأكبر من الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية لأسباب لاهوتية في معظمها. منها الخلاف على الإمامة الدينية التي تكرهاه الأرثوذكس، على بطريرك روماني الباسا. وعلى كل حال يجب الاعتراف بجلال الثقافة البيزنطية، وكان مصدرها كنيسة القسطنطينية. فقد عاشت هذه الكنيسة في كنف الإمبراطورية أحد عشر قرناً (من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر) بثبت فيها روح حضارة مكينة، لها مزاياها الفنية وخصائصها الأدبية والروحية. فهناك كنائس من الطراز البيزنطي قد انتشرت في سورية وفلسطين ومصر. وهناك أدب بيزنطي متشعب الأطراف، حافل بألوان الفكر. وهناك تصوير بيزنطي تركبه الروح الدينية البيزنطية وهناك شرع محكم الوضع من وحي بيزنطي برقي عهده إلى جوستينيان وهناك موسيقا بيزنطية تتجلى إلى اليوم في أناشيد القديس وسائر التريميم الكنسية، وهناك على الأخص كنيسة شرقية بين ظهرانيها تعد سبيلة الكنيسة البيزنطية. وقد احتفظت بلقب «لوم» لا تمسك منها باللغة اليونانية فكثير من الصلوات الآن تنطق بالعربية ولكن إشارة إلى مصدرها واتصال ملقها وروحيتها بالكنيسة البيزنطية. إنه، والحق يقال، مماثير العجب أن نرى في القرن العشرين كنيسة مثل كنيسة «الروم» قد أصبحت عربية من حيث اللغة والمشارب والعقيدة وهي تحتفظ مع ذلك في غيرة فائقة بطقس محيد عريق متشعب بالشرقية البيزنطية يردد في لغته شعور الملايين من المؤمنين الذين استوطنوا الإسكندرية أو القسطنطينية أو صغاف العاصي أو ربوع لبنان...

هذه لمحة سريعة لم نعرض فيها لاتصال الكنائس الشرقية بالعرب الفاتحين أو لنشاطها في محيط الخلافة الإسلامية. وكان بودا لو يتسع المجال للإفاضة في الحديث عن حالة الكنيسة الشرقية عند الفتح الإسلامي في الشام ومصر، وعن آثار الكثيرين من أبنائها في عصر الأمويين والعباسيين، ولا سيما من نقلوا العلوم اليونانية إلى السريانية والعربية، وتوفروا على الأبحاث التاريخية. وخير ما نختتم به هذا العرض الموحح أن الكنيسة ولدت ونمت في محيط روماني، واستوحت الثقافة اليونانية وارتوت من منهل إسرائيل مع اهتمامها بالنور

الكنيسة العرفية

الى نعمة رسالة المسيح لعائقة الطبيعة . فهي في قسمها الشرق والغربي
كنيسة واحدة تمتد الى اصل واحد وتستمد الحياة من مصدر واحد .
على ان كنيسة الشرق الأوسط صارت عربية بترعرعها في بلاد عربية . وهي
في تشبعها بالروح الشرقية والعقلية الشرقية مصرية في مصر ولبنانية في لبنان
وسورية في سورية وفلسطينية في فلسطين ، ومن ثم كانت لوسيط الطبيعي
للشعاع بين هذه الأقطار الشرقية والبلاد الغربية على اختلاف ما يفرق الشرق
والغرب من أساليب التفكير .

الرب تبارك

تمرد...

أنا صَبٌّ بعدائي أنا صَبٌّ باكتئابي
 أنا صَبٌّ بلفظي مُسَخَطِي ، حَفِيٌّ بِاصْطِحَابِي
 أنا مرتاح إلى ثورة نفسي ، واضطرابي
 أنا راضٍ باتقرادي مستخفٌ باغترابي
 أنا مسرور بتجديدي ، وشكِي ، وارتياي
 أنا جَذْلَانٌ بما أسقاه من مُمٍّ وصاب
 أنا هَيَّانٌ بِآلَامِي ، وَجُرْحِي ، واحترابي
 إنها مبعث إقْدامي ، وهزئي بالصمصام
 إنها تزيق إحساسي وفكري وشبابي
 إنها زادي ، في الصحراء ، إن شحَّ مرابي
 أنا لا أسأم إنشادي ، في القفر اليَبَابِ
 أنا لا يرعبنى الليل ، وإن طال السُرْمَى بِي
 أنا لا تفضحني الشكوى ، ولو فاض مصابي
 إن شكواي بُشْتَاي ، وشُهْي ، وحرابي

■

أنا للكوخ ، والسرّاب ، لا للقطر ، فني
 ولخفق الرياح ، في الأممال ، ترجيعي ولحنِي
 لاحتضار النور ، في ليل المساكين ، أغني
 ولخلف القوت ، في بطن الفقير المتمدن

ولأنت الحزاني أهدم الدنيا وأبني
 لابتسام اليأس المسلول ، إشفافاً وحزني
 لا لتكشير الذي يألم من عجز وجبن
 للهات المرهق المكدود ، تسبيحاً ويمنى
 أنا للبؤس ، وفي البؤس ، أعاصيري ومزني
 وعلى الغنم ، وفي الغنم ، نصالي ومجنى
 أسكب القلب ، بأفداح المعنى لا المعنى
 أخلع الروح على المضي ، وأرى المتجنى
 قلبي مني ، ولن يشتق ، إلا اليأس ، مني
 أصيد ، في الحق يمضي لم أخنه أو يخني



أنا عريد ، على الباطل ، كالسيف الأغر
 لا بقل الظلم من حدى ، ولا يطفى جري
 مشحذى مقرعة الباغى الذي يوغر صدرى
 ويريق بسمة الحق ، دجى الظلماء تغرى
 أنا لا أبكى ، من العبء الذى يقصم ظهري
 لا ولا أكرم جفنى لمن يقصب زهرى
 بل عدة العدة الكرى لمن يعميه قهرى
 وتراى أطم الجاني ، ولا أوليه عذرى
 أنا غريد ، وإن لحت غراباً وسط قفر
 وترى حر ، قلن أطرب إلا كل حر
 أنا ناي ، في قم المظلوم ، لا يبطل سحرى
 ترمى أشجائه الحترى ، بأضلاعى ، وتسمى
 وهى ، في مجرى دماى ، حرة حمراء تسمى
 فأزجتها ، إلى الدنيا ، زئيراً من هزير

أنا بحر أترع الآفاق ، من سبي وردى
 أجلك السحب ، وأرويه ، من برق ورعدى
 وأربها كيف تطفى الثورة الهوجاء عندى
 ألتقى البر ، وأسقيه أجابى دور شهدي
 إن هذا البر قد أتى ، فليقبله قدى
 إن هذا البر موبوء بما يضنى ويردى
 لم يكن مستوطن الأزهار : من رند وورد
 إنه مستنقع الآفك ، والطاغى الآلة
 ويل هذا الأسن المغلول ، كم يحفز حقدى
 سوف يهتز ، على طمى عباب غير وغد
 هو جارى ، ولقد أصدق ، للجيران ، عهدى
 سوف أغزوه ، بتيارى ، وأبني فيه مجدى
 وسأحيى ، فيه ، بر الناس : من رن وعبد
 مرحباً بالبر ، لم يحكه سوط المستند

[حمص]

نذير الحسامى

ESQUISSE D'UNE
PSYCHOLOGIE DU CINEMA
André MALRAUX

خلاصة من بسيكولوجيا السينما

[تلقت إلى هذا المقال المنع جميع القراء الذين يبنون بدقائق
السينما لاسيما من النواحي التي عني بها الكاتب الكبير وهي
نواحي الانشاء والاخراج والعرض] .

١

لو أن حيوتو "و" حتى كلوه جاب المعمورة من طرف إلى طرف ، لما صادف
تصويراً ينكره أو يحده — رغم كل الفوارق — غير مأثوف لديه ، ولسهل
انغماسه بينه وبين مصوري الفرس والصينيين ؛ فإن مشا كل التعبير عن المراثيات
بالتصوير كانت واحدة بالنسبة للجميع .

ولو هذا حذوها روبيير أو ديلاكروا لندا له كل تصوير يصادفه عتيق
الضرار ، ولاستعصت لوحاته هو على فهم المصورين من غير الأوربيين ؛
فإن وسائل تعبيره عن المراثيات تماين وسائلهم . ذلك أن مصوري الفرس
والصينيين كانوا لا يابهون ترفعاً بأصول الرسم المنظور من حيث وجوب إظهار
العمق ، واتساق الأبعاد ، وتوزيع الضوء ، وتعبير الطاهر عن الباطن ، وكانت
وربا وبقى العالم المتمدن قد أفلعت عن مثل هذا الفهم لوطيفة التصوير . ومأثوف
عهد طراز « الباروك » على نهايته حتى استتب فرق أساسي بين فن الغرب ونون
باق العالم ، المعاصرة منها والسابقة ، فإن التصوير في الغرب أصبح وليد عالم له
أبعاد ثلاثة .

وقد تصافرت أسباب عدة على إحداث مثل هذا التحول ؛ فلم يكن الناس
جميعاً قد ألفوا إلا تصويراً بحتال — تقدر ما — على التعبير عن المراثيات بالمر

المستتر ، مخافت المسيحية واستحدثت أسلوباً لم يكن معروفاً من قبلها وهو أسلوب التعبير الدراماتيكي . حقاً أن طقوس البوذية تعرف المناظر التمثيلية ، ولكنها حالية من عنصر الدراما . وأمريكا قبل كشفها كانت تقتصر في الدراما على تصوير أشخاص فرادى لا يضمها معاً مظفر تمثيلي . ولم يؤد الصعف الطارئ على المسيحية إلى إضعاف معنى الدراما عند الغرب ، بل — على العكس من ذلك — عمل على تقويته ، كما عمل في الوقت ذاته على أن يخصصها بمعنى أرق وأكثر تعمقاً ، وهو الأساس الكامل لمظاهر التالية : هذا الشعور بعالم الروح ، وهذه الرغبة في إبراز أجسام المرئيات وأحجامها ، وهذه الحاجة الشديدة إلى الاستناد على ديدا الواقعي المحسوس ، وإنها لحاجة أصبحت من خصائص الغرب الأصيلة ومرتبطة بغزوه السياسي للعالم كله . فقد جعلت أوروبا إبراز أجسام المرئيات بديلاً عن اتساق ألوان اللوحة ، والتاريخ عن سرد الوقائع ، والدراما عن التراجم ، والقصة عن الحكاية ، وعلم النفس عن الحكمة ، والعمل عن التمثيل ، أو بكلمة عامة ، جعلت الإنسان بديلاً عن الآلهة .

ولا جرم أن تقديرنا اليوم لهذه المسائل يدفعنا إلى الزلل ؛ فإن التصوير في العصر الحاضر ، أغلبه أيضاً وليد عالم من بعدين اثنين . وهذه مشكلته غير مقصورة على عالم الفنون الخيالية وحده ، بل هي أعمق من ذلك بكثير ؛ فإنها مشكلته المدنية ذاتها ، في مساهمها بالإنسان والكون كله . فوسائل البشر في التعبير تتراوح بين قطبين ، نجد في أحدهما التمثيل المصمت الذي لا ينطق فيه إلا الملامح الوجه والحركة ، ورقص أهل الصين وحاوا ، و تمثيل قدماء اليونان ، ورتيل المنشدين في المعابد ، وحوهم تتحنى وراء قناع . وفي القطب الآخر نجد داءاً لعل حروفه إشارات الاختزال ، وقمة آلة كاتبة ، وحتوه ضجيج البيلاب الصاخبة ؛ إذ روحه يظهر كاللمحة العذرة ، ويملاً شاشة مسحتها خمسة أمتار . هو الفيلم .

والرجل الذي لا يتذوق جمال من التصوير لذاته ، إذا دخل اليوم حدم متاحفه ، شعر بأنه يستعرض سلسلة من محاولات نشانه محاولات العلم في إدراك كنه الأشياء وتصويرها ، ولألقى نفسه أكثر فهما وتديقاً لرويين منه لحيوي ، ولوشللى منه لسيمايو ، ولوجد التصوير وسيلة لخلق العالم من جديد كما تدل عليه حواسنا . وقد ظل فن التصوير من القرن الثالث عشر إلى عصر الباروك يحدد

وسائل تعبيره ؛ فقد كان للتصوير الأوربي منذ قدم العصور إلى عهد الباروك غرض مردوج ؛ فهو يحاسب ما يقدمه إليها ويزاد فيه ، يجهد في التعبير عن الأشخاص والأشياء والمناظر الخيالية بوجه حصن لظرفه يحملنا فوتها واقتدارها على تصورها وتصديقها . وهذا المزج بين ما نسميه اليوم فن التصوير وبين وسائل التعبير ، هو الذي يحدو بزائري المتاحف في أيام العطلة إذا ماتوا لوجه من اللوحات (إذا كانت قد رسمت بعد عصر النهضة) أن يقولوا عن أشخاصها « يا لله ! كأنهم يهيمون بالكلام وينطقون ! » . وهذا هو أيضاً ما كان يدوم سكان فلورنسا إذا ما تحدثوا عن لوحات بوتشيلي إلى القول عن أشخاصها بأنهم « أقرب إلى الصدق من الأحياء أنفسهم ! » . ولعل روعتهم من رؤية صور لعذراء كما رسمها خلفاؤه لا تقل عن روعة أهل العصر الحاضر إذا ما طلع عليهم التلفزيون وعم بينهم فجأة .

ولكن حينما وشك عصر الباروك على أن ينتهي ، حدث في تاريخ الفنون حادث جديد لم يسبق له مثيل من قبل ؛ دلت أن التصوير كف عن ابتكار وسائل جديدة للتعبير ، وأصبح — كما نعرفه اليوم — فناً غاية في التصوير لذاته ، وتختص به مناقشة من الفنانين . فمير العالم منذ ذلك الحين ولن يرى تقاطر الناس إلى بوجه وهم يتلهثون على رؤيتها ، ومالت الخطوط والألوان يوماً بعد يوم إلى التعبير عن روح المصور وحده . وبينما أخذ التصوير الحديث يزدهر اردهاراً لا يحفظه العيون ، إذا بالتطلع إلى ابتكار وسائل جديدة للتعبير يمتسح شغفاً محموداً مسلوب القيادة بالحركة وأوضاعها ولم يكن الانتباه إلى الحركة وأسرارها وأيد كشفه . وإذا غيب على عصر الباروك أنه رسم أشخاصه حامدين كالفرق ، من التطور الذي استحدثه العصر الحديث لا يمس طريقة تصوير الأشخاص في ذاتهم ، وإنما هو أشبه ما يكون بتصوير الشخص الواحد في حركات متتابعة . وإذا أصبح من التصوير بهم بالحركة والعواصف ويستلهم المسرح فلا غرو إذا انتهى به المطاف إلى السينما .

٢

ولما اخترعت آلة التصوير في منتصف القرن التاسع عشر تحلّى التصوير الأوربي لصفة صريحة قاضية عن ميدانين كان يختص بهما من قبل وحده : أولهما

ميدان التعبير عن العواطف، وثانيهما الاستعانة بالخيال، وأصبح من جديد فناً مهمه الوحيد في التعبير عن المرئيات إبرار هيئة أجسادها، وغلب عليه مرة أخرى الخسوع لمقتضيات عالم من بعدين اثنين. حياة الفرد ما اليوم، وما تتضمنه من أحداث، كالولادة والزواج وغير ذلك، أصبح نسجها وفقاً على آلة التصوير. وهذه الآلة وهي تتصدى لتصوير الحياة قد تطورت في الثلاثين سنة الماضية من آلة بدائية حاملة لها عين واحدة إلى آلة منوثة يقطعة لها ألف عين. وإذا كان هذا شأنها أصبحت تواجه — واحدة بين أخرى — نفس المشكلات التي عاها من التصوير، إلى أن انتهت هي حيث انتهى هو أيضاً. وما يزيد في غلّ يدها أنها عاجزة عن الخيال، وهي قد تلتقط قفزة سريره لرافصة في الهواء، ولكن هيئات لها أن تصور لنا مثلاً دخول الصليبيين إلى بيت المقدس. هذا مع أن البشر دائبون على التحيل، وهميمون بأن يصوروا لأنفسهم كل شيء، من أوجه القديسين إلى أسحف مشاهد التاريخ، وسواء لديهم أكانت هذه الحوادث التي تجري وراءها حيالهم مما يعمون أو مما لم يروه قط.

فهذه المجهودات التي تتألف من أربعة قرون لاقتناص الحركة وقفت بالآلة حيث وقفت بريشة المصور من قبل. ومع أن السينما قدرة على تصوير الحركة، فإن الخطوة التي خطتها في هذا السبيل لم تزد على إبدالها بالإشارات الثابتة بإشارات متحركة، ولم يكن مفرّ إذا ما أريد أن يستمر بدل الجهد في اشكار وسائل جديدة للتعبير، وإطلاقها من قيد العصر الباروكي، من أن تتمتع آلة لتصوير باستقلالها عن المنظر الذي يراد رسمه. وليست المشكلة معها حركات شخص من يظهرون في هذا المنظر، بل معها وجوب تتابع اللقطات. (والنقطة هي الوحدة السينمائية، وتتغير كلما غيرت آلة التصوير مكانها أو زاويتها ومن تتابع اللقطات تنشأ عملية تقطيع الفيلم إلى أجزاء بحيث لا يكمل إلا إذا ضم بعضها إلى بعض. ومتوسط زمن اللقطة الآن هو عشر ثوانٍ). وهذه المشكلة لم يتس حلها في ميدان الصناعة بإبدال آلة التصوير العاجزة بأخرى أكثر منها قدرة، بل كان حلّها في ميدان الفن، حينما ابتكرت طريقة تقطيع الفيلم.

وحين ظلت السينما لا تخرج عن كونها وسيلة لإظهار أشخاص وهم يتحركون فإنها لم تزد في عين الفن عن الفونوغراف وآلة التصوير البسيطة؛ فقد كان عمل السينما مقصوراً على تصور منظر لا يتعدى حيزاً محدوداً، هو في الغالب أرض

مشرح - في الحقيقة أوى الوهم - يتحرك فيه الممثلون ويؤدون أدوارهم في مسرحية عاصمة أو هزلية ، وتكتفى آلة التصوير بتسجيل كل ما يقع أمامها .
وحيث تم القضاء على قيد الحيز المحدود ولدت السينما باعتبارها وسيلة للتعبير . لا لأظهار المراتب حسب . فما حدث أن جال في دهان صالحي الأفلام .
نقطيعها إلى لقطات إذا بهم يعدلون عن تصوير القصة كما تتوالى حوادثها من البداية إلى النهاية ، إلى تصور أشكال سريعة متتالية لمنظر واحد ، فنقترب آلة تصوير أحيانا من الممثل فتعلا صورته الشاشة - إذا دعت الضرورة لذلك - ثم نتعد عنه وهكذا . ونعم من ذلك كله أنهم استغنوا عن المسرح الثالث بتخصيص مجال محدود للممثل - وهذا المجال مرتبط بمساحة شاشة العرض - فيدخل الممثل هذا المجال ويخرج منه ، ويكون مخرج الفيلم حراً في اختيار هذا المجال دون أن يعرض عليه عرضاً ، فوسيلة السينما في تصور المراتب هي آلة التصوير المتحركة ، ووسيلتها في التعبير هي تتابع اللقطات .

وتزعم إحدى الروايات التي لا يعلم صدقها إلا الله أن « حريفت » هام بحمال ممثلة وهي تؤدي دورها في مطر من أحد أفلامه ، فلم يسعه إلا أن يصور من حديد - وعن قرب - المنظر الذي خلب له ، وأثبتته في الفيلم مكان الآخر ، وهكذا ولدت على يديه « اللقطة المكررة » . وهذه الرواية التي تثير الانتقام نسب كيف كانت تعمل موهبة أحد كبار المخرجين في طقولة السينما ، وكيف أنه لم يكن يعنى بالتأثير في الممثل (كأن يطلب منه تغيير طريقة تمثيله) عماينه بابتكار طريقة جديدة تزيد الصلة بين الممثل وجمهور النظارة بتكبير وجهه على الشاشة . ومن هذه الرواية نفهم مسألة نحن نعلمها ونساها ، وهي أن أسط آلة تصوير ثابتة كانت ممدز من غير فصور قد ألقت التحايل على رسم الأشخاص ، فتصورهم تارة وهم وقوف ، إذ تصور منهم يصمم الأعلى ، وتارة أخرى تقتصر على تصوير الوجه حسب . وهذه الخطوة الجريئة في تصوير النصف دون الكل ، كانت ذات أثر حاسم في السينما ؛ لأنها كانت إذا أرادت اتباعها وحدت نفسها مقيدة بآلة تصوير ثابتة ، وبمجال رسوم للممثل ثابت هو أيضاً ، فلم يكن لها مفر من أن تصور المنظر كله على هذا النسق ، ولسكنها خرجت من هذا المأرق حين استكرت طريقة تقطيع الفيلم وتتابع اللقطات .

فلما استتب تقسيم الفيلم إلى لقطات متتالية أو - بمعنى آخر - حين توافرت

للمصور السينمائي حرية العمل واستقلاله عن المظهر الذي يراد تصويره ، تيسر للسينما أن تصبح هي أيضاً من وسائل التعبير ، وهكذا ولدت السينما بأغصانها فناً من الفنون . ومنذ ذلك الحين أصبح في إمكانها التعبير عن المعاني بالتصوير ، وفكّ تتابع الصور التي تختارها جمودها القديم .

٣

لم يكن مفرّاً للسينما المنطقة أن نحد لهذه المشكلة علاجاً حديداً . ليس هو - كما يقال - وصولها بالقيلم الصامت إلى درجة الكمال ، فباطلٌ لادعاء لسينما المنطقة بكمال لسينما الصامتة ، فطالان الادعاء للمصنّف كمال باطحات لسحاب فان باطحات السحاب لم ير السور . لا نفصل اختراع الآسمنت المسلح والمصعد معاً . وكذلك السينما الحديثة ، ليست وليدة الفور باستماع لانتظار حديث الممثلين في السينما الصامتة ، بل هي وليدة القدرة على التعبير بالصورة والصوت معاً . ما أهون شأنها - مثلها في ذلك مثل السينما الصامتة من قبل - إذا ماها قصراً في وظيفتهما - كآلة التصوير الثابتة - على تسجيل المراتبات . ولا نصح السينما المنطقة فناً من الفنون إلا إذا أدرك محرّحو الأفلام أن الأصل الذي يجب أن ينتسب إليه الصوت في أفلامهم هو لراديو لا اسطوانات الفونوغراف .

فإذا كان موضوع تمثيلية لراديو هو حكاية محاكمة جان دارك ، أو حلقة مجلس النواب الفرنسي التي شهدت سقوط روبسبير مثلاً ، لم أن يفهم المدبّعون أنهم يمثلونها كما هي قصة جديدة موضوعة ، وأن اصحابها تنحكم فيه الشروط الواجب توافرها في فن الاذاعة . فليس الغرض إذن اختيار ممثلين لتلاوة ماورد في محضر الجلسات ، بل لغرض استخلاص بعض المواقف من هذه المحاصر ، والتحايل على نظم أحزائها معاً في وحدة متماسكة وإحراجها إخراجاً فنياً ، فان انخضر الأصلى للجلسات لو تبنى علينا كما هو لأملاً ضوله و نصرفنا عن سماعه ، كما يملنا كل حديث عار إذا ما تلى علينا نصه الكامل .

ونحن أميل إلى الظن بأن بعض الحوادث تولد فإذا هي دون غيرها محط أنظار الناس واهتمامهم كرها لا اختياراً ؛ فان في حياة روبسبير منذ الليلة التي سقط فيها ، لحظات عدة ، ينتفع بها كل من على طريقته . والنظرة الأولى لهذه

المسألة تحملها على الاعتقاد بأنه ما من شيء وما من حياة إنسان إلا وحدثنا فيها جزءاً يصلح لأن يكون المادة الأولية التي يتمتع بها كل فن من الفنون في عمله ، وأجزاء لا تصلح ، وهي بالتالي تولد مهيئة إلى الأبد . ونحب ألاَّ يَحُلُطَ لها بين تلك اللحظات التي لها وجه ومعانيها والتي عكس أن سميها لحظات فنية ، وبين تلك السمات الماثورة التي يسجلها التاريخ لأصحابها ويتأقلمها الناس . والحوادث إذا احتلقت ونشأت وغاث معالمها الفردية في لحظة صاخمة ، لا تخلو من اللحظات فنية يتولى كل فن تحديد ما يجره منها إذا ما أراد التعبير عن تلك اللحظة الصاخمة . فما هي اللحظة الفعالة في سقوط روسمير ؟ هذا سؤال يختلف الفنون في الإجابة عليه . فقد نكون تلك اللحظة الحاسمة — في نظر الرديو — هي صوته ، وهو تحت حين حرّ منبرها . وقد تكون في نظر السينما ، ما عساه يكون شعور حد الحرّس وهو واقف شارد الدهن ، منصرف في اللحظة الزهية دأها إلى طرد بعض النسوة اللذيات عن حجرة الجلسة أو إلى لمحت عن قداحتها . وقد شاهد القرن العشرين لأول مرة مولد فنون لاغنى لها عن آلة تعبر بها . ولست العبرة منها أنها قادرة على أن تقدم للناس صوراً معينة تنقلها عن مصدرها ، بل إنها في الأصل لم تنشأ إلا لهذا الغرض ذاته وله وحده . وقد تسح من المستطاع نقل بدائع الرسم واستساخها ، وقد لا يشرف هذا القرن على نهايته حتى يصبح في الإمكان أيضاً نقل الصور الفنية واستساخها دون أن تفقد جمالها . ولكن لا الرسم ولا اللوحات الفنية قصد فيها إمكان استساخها ؛ فليس لها من غاية إلا أن توحدها بذاتها ولدائها . فإذا تضمنت المسرحية مثلاً منظراً ووحدته السينما يصلح لها لو قام ممثلوه الأصليون تمثيله لها ، لكان في هذا وحده القضاء على قيمته الفنية ، بل هذا المنظر أقل قيمة من اللوحة المعدنية التي تنسى نقوشها من استعمالها في طبع صور منها على الورق . فكأنما هذا المنظر خلق لأن تسجله السينما ، ولا غرض له سوى ذلك ، شأنه في هذا شأن مسرحية الراديو فإن الحوار يقصد فيه إلى تسجيله أولاً على أسطوانة ، ثم إذاعته بعد ذلك .

ولكن مقدرة الأصوات المسجلة على التعبير ، وهي ضعيفة ما اقتضت على الفونوغراف والراديو ، تصبح لها قوة فائقة ، إذا ما ارتبطت بالصورة وعادتها . وإذا اخترعت السينما المحسنة فلم تأتى بحدث جديد ، بل سيكون

فيها خطوة نخطوها السينما في طريق تطورها إلى السكال . ولا جرم أن مكان السينما الناطقة من السينما الصامتة ، كمكان اللوحة الفنية من الرسم التخطيطي . ولم يدرك الناس في مبدأ الأمر حق الإدراك أن الصوت هو أيضاً وسيلة للتعبير قائمة بذاتها ، وبدت السينما — حينما استعانت بالصوت — كأنها قد رحعت من السينما كله إلى عهده المبدئي . فكما كان فداء المخرجين لا يحاولون إلا تصوير المناظر المسرحية ، فكذلك السينما الناطقة سارع وهي متلهفة إلى تصوير المسرحيات . فالحوار فيها مقرر ، وطولها مناسب ، وانكسر كل هذا لم ينتج إلا أفلاماً هزيلة لا تسر ولا ترضى .

٢

وفي البلاد التي لا يزال فيها المسرح منمنماً بتأثيره وحيويته (كروسيو وألمانيا والولايات المتحدة) نجده لا ينفك في العشرين سنة الماضية من استهواء السينما وجذبها إليه . ونجد كبار المخرجين السينائيين يحاولون في مبدأ الأمر تصوير المسرحيات بحيث لا تصبح سلسلة من حوار متصل ، بل المسرحية أشخاص يتبادلون أطراف الحديث ؛ فكانت موهبة المخرج مير هولند ، ترمي إلى ابتداع عالم وجو يحيط بحوار أبطال المسرحية ، وقد استعانت السينما الناطقة بهذه الأحاديث فوجهتها إلى حير وجهة ، وأحاطتها بإطار زخرفي « الديكور » لا يعجز عن تصوير السماء والبحر وكل ما يحول بخاطر المخرج .

والمرشح يستمد حياته من قدرته على التعبير عن المواقف ، ولا يتوسل في عمله إلا بالحديث والإشارة . فلما دهمه خطر السينما الناطقة إذا به يقلب إزاءها إلى فن أشل كما كانت السينما الصامتة من قبله . فالممثل المسرحي ما هو إلا رأس صغير تائه في ردهة فسيحة . ولعمري إنها مزية لا تقوّم ؛ وإن هذه اللحظات التي لم يستطع المسرح ، إلا التعبير عنها بالصمت ، قد تلفقتها السينما الصامتة هي أيضاً من قبل واستخدمت وحه الإنسان وصوره المختلفة المتباينة في التعبير عنها .

وتكبير الأحجام على شاشة العرض يتيح للممثل أن يقلع عن المبالغة في الحركة والإشارة ، وعن هذه الاتجاهات الرمزية التي لا مفرّ المسرح من التمسك بها إن

وإذ أن نل نظر قريب، إلى فهم النظارة . فإذا قاربت بين المسرحية والسينما الناطقة وجدت المسرحية لا السينا أقرب شيء إلى التمثيل الصامت الذي يعتمد على الحركة والإشارة . ومكرر الصوت رغم وجوده ، أو إن شئت فقل بفصل وجوده ، هو الذي يجعل صوت الممثل إذا أسرع في حديثه أو هبط إلى حدة الهمس أقرب إلى إقباكك والتأثير فيك من صوت أربع لمثليين في المسارح الفسيحة . ففهم مشكلة نواحه مؤلف فيلم ناطق هي أن يعرف متى يجب أن يتكلم أبطاله . أما المسرح فلا يعرف هذه المشكلة ، ولا تنس أنه يجب أن يتصل فيه الحديث دون انقطاع .

ويستمر الحوار في المسرح إلى أن تأتي فترة الاستراحة . ولعمري إن هذه الفترات من النعم التي يمتاز بها المسرح ، فإسدال الستار يوحى بأنها تخفى وراءها وقوع حوادث أخرى في المسرحية . وينقل المؤلف المسرحي خبر هذه الحوادث إلى النظارة بالتعليق إليها . وكما نلح القصص المطبوعة حين تصل حوادثها إلى طريق مسدود ، تلجأ إلى ترك صفحة بيضاء لتفصل بين الفصل السابق واللاحق ، كذلك تلجأ المسرحية إلى فترة الاستراحة . أما السينما فمجردومة من أمثال هذا التحايل .

ولعل محترقي السينما يحسمون على ذلك بأن لهم وسائلهم أيضاً في الانتفاع بهذا التحايل ؛ وذلك لأن بدعهم مطلقة في ترتيب المناظر ، والمفتر لا يقطع حاجة بل «دوب» أمام النظارة شيئاً فشيئاً . وهذا «الدوبان» وحده يوحى إلى النظارة بمرور الوقت بين المطر السابق واللاحق . وهذا حق ، ولكن لا يتم به كل المعنى الذي يقصده ؛ فهذا «الدوبان» يوحى بمرور وقت لا تقع فيه حوادث . ولا يسلط هذا القول على فيلم الملاك الأرق الذي يجب دراسته بعناية . وإذا كانت فترة الاستراحة في المسرح توحى بمرور وقت تقع فيه حوادث ، فإن «دوبان» المناظر — على العكس من ذلك — لا يفلح كثيراً في التعليق بمرور وقت تقع فيه حوادث ، إذا كانت هذه الحوادث تقيد تحولاً طارئاً على حياة أبطال الفيلم .

والعكس من جهة أخرى نلح المسرح عاجزاً عن الارتداد إلى ما سلف من زمن . فهيهات للبطل أن ينتقل أمام النظارة من عهد الرجولة إلى عهد الصبا ، في حين أن هذا الارتداد لا يستعصى على السينما . وقد لا تكون هذه الحيلة آمنة من

المتغير، وناقصة عن بلوغ نايها، ولكنها على كل حال لا تستعصى على السينما. والخلاصة أن مظاهر المتتالية في السينما هي بمثابة الفصول في القصة المكتوبة، ولكن السينما لا تعرف الفواصل المريعة التي نراها بين فصول القصة المكتوبة أو المسرحية.

أما الفيلم الصامت فلم يقصره انقسامه إلى فصول، على حين أن السينما الناطقة لا يتأتى لها هذا الانقسام ولا معرفة. ووجوب إحكام الصلة بين مظاهر الفيلم الناطق هو من أهم معوقات التي تصادف عمل المكلمين بضم أحراء الفيلم بعضها إلى بعض. فالفيلم الناطق يستكشف من الفراغ الخالي من الحوار، ويضع اتصال الحديث في المحل الأول من عنايته.

وإذا أصبحت الرواية أهم عناصر الفيلم الناطق، فإن غريمه الأول ليس هو المسرح، بل القصة المكتوبة.



ولرواية لا تستعصى على السينما، وهذا هو سر قوتها، شأنها في ذلك شأن القصة المكتوبة. وكان الفيلم الصامت كثيراً ما يستمد موضوعاته، قبل اختراع السينما الناطقة، من القصة المكتوبة.

وفي استطاعتنا أن نحلل الأسلوب الفني الذي تبعه كبار الكتاب في إخراج قصصهم. فمنهم من يهتم برواية الوقائع، ومنهم من يعنى بتصوير الشخصيات وتحليلها أو التفتيش عن أسرار الحياة. وسواء عمد الكاتب إلى توليد المعنى والإسهاب في التفاصيل - كروس - أو إلى تركيزها وتلخيصها - كهيمنجواي - فإن الرواية لا تنفك عملهم وهمهم الأول. والمعنى الفني للرواية هو تلخيص الوقائع وإخراجها، أو بمعنى آخر، تحليلها لمقارن حتى يراها كأنها تحدث أمامه. وإذا ذكرت هذا الأسلوب الفني الذي يتبعه الكاتب في إخراج قصصه فأبني أعني به طريقة اختياره - سواء جاء هذا الاختيار عفواً لأنه وليد طبع الكاتب، أو جاء عمداً لأنه وليد التأمل والدراسة - أقول: طريقة اختياره لوقائع الحياة التي تثير اهتمامه دون غيرها، ووسائل التعبير التي يستعملها ليضفي على هذه الوقائع ما ينسب إليها من أهمية خاصة.

وذلك بنية على الأسلوب الفني عند أكثر الكتاب هي طريقة انتقالهم من الرواية إلى الحوار .

وحوار القصة له أغراض ثلاثة :

أولها هو العرض والشرح . وهذه هي طريقته الأدب الانجليزى فى نهاية القرن التاسع عشر ، وزعماءها هنرى جيمس وكونراد . وهى ترمى إلى القضاء على سخرى الكتاب الذين يدعون لأنفسهم رأياً قاطعاً فى فهم أسرار الحياة كلها ، ويفرضون رأيهم على القارئ . وقاما تلجأ السينما إلى حوار هذه المدرسة الانجليزية ، كما تشيخ عنها القصة الحديثة أيضاً .

وثانيها إبراز شخصية أبطال القصة وملاحظتهم فنجد ستاندال فى تصويره لشخصية لوطيه جوليان سوربيل يستعين فى الإجابة عنها دفعاله أكثر من ستعائته عند نولات صوته وأنغامه . فمما حل القرن العشرون رادت مدلولات الصوت وأنغامه أهمية فى نظر القصة ، وأصبح يبين لغة الصوت من وسائل وصف شخصية ، بل إن وجود الشخصية ذاتها أصبح مرتبطاً بها . فلعل قصصه ونحن نستطيع قراءتها . يصلح للإذاعة ، حيث لا يرى السامع وجه الممثل ، أكثر من صلاحيتها للمسرح .

وإذا كانت القصة تُعنى بأنغام الصوت فى حوار أبطالها فإن السينما والمسرح قل منها عبادة بها ، ذلك لأن الممثل يجب أن يكفى وحده لإبراز الشخصية . وحيراً نحى ، إلى الغرض الأساسى للحوار ، أعنى به الحوار الذى تنهض بمصله مفاخر القصة . وليس لتطور هذا الحوار أصول مرسومة ، بل هو يشكل طبقاً لما يريده منه كل فنان موهوب ، فهو تارة درامتيكى ، وتارة إشارات توحى بالمعاني ، وتارة الغر مستترة ، قد اندست صلتها بخافة العالم أجمع كشأن دستويفسكى ، أو يكون مرتبطاً بالكون كله ، كشأن تولستوى ، ولكنه مهما اختلفت صورته . يرمى إلى أن يحس القارئ بالمظهر إحساساً عميقاً حتى كأنه رآه أمام عينييه فى عالم له أعداد ثلاثة .

وقد اتته الفيلم لهذا الحوار وأدرك خصائصه وشدة تأثيره ، فاستمدت منه اسينما اليوم بعض قوتها . فنحن نرى مخرجى الأفلام الحديثة ينتقلون - بعد أن يلقن الفيلم فترة طويلة من الصمت - إلى الحوار ، كما يفعل القصصى حينما ينتقل إلى الحوار بعد أن يفيض فى روايته بالوقائع والتحدث عن الأبطال .

وللقصصى وسيلة أخرى للتعبير ، وهى ربطه للحظات الحاسمة فى حياة أبطاله بالجو الذى يعيشون فيه أو ربطها بالكون كله . وهذه هى خُصَّة كوبراك التى لا يحيد عنها فى قصصه . وقد انتفع بها تولستوى فى تصوير منظر من أروع مناظر الأدب القصصى فى العالم كله ، حين وصف إصابة الأمير أندريه بجرح فى موقعة استرليتز (فى قصة الحرب والسلام) . وقد استعانت بها السينما الروسية خير استعانة إبان ازدهارها . ولكن هذه الوسيلة تتضاءل وتختفى كلما زادت أرباح السينما . . .

على أن القصة المكتوبة لا تزال تحتفظ - فيما يبدو - بميزة تفوق بها الفيلم ، عنى مقدرتها على الانتقال إلى تحليل نفسية أبطالها . ولكن يبدو على القصة الحديثة - من ناحية أخرى - أنها تنصرف شيئاً فشيئاً عن الاهتمام بتحليل نفسية أبطالها فى اللحظات الحاسمة عند الأزمات . وقد لا يقلل عن التحليل النفسى فى قوته النفسية وإفصاحه عن الضمائر ، هذا التعبير الدرامتيكى عن لواعج النفوس ، الذى نجده عند شكسبير ، كما نجده ، بقدر كبير ، عند دوستوفسكى ، حين يستعين فى تلميحجه إلى الأسرار ، إما بأفعال أبطاله ، وإما باعترافات يفضون بها ، مترددة بين الإفصاح والكتمان (ومثل ذلك تصويره لسمرديا كوف وستافروجين) .

وأخيراً فإن رُوح كل حى تطوى على سر - حتى يستعصى سر غوره وإدراكه . وقد تستطيع السينما استدراجه على الشاشة بفضل تكبيرها لوجه الإنسان حتى تستبين كل خواجه . ولكنه مع ذلك لو بقى هذا السر الخفى مجهولاً ، فقد يساعد على أن تصبح القصة الفنية مناحةً بتوجه بها العمد إلى ربه يسأله - فى حيرته - أن يكشف له عن سر الوحود . فهذه القصص تصور الفكر البشرى وهو غارق فى التأمل ، وهذا هو سر عظمة قصص تولستوى الكبرى . وقد غزت السينما منذ طفولتها الساذجة إلى الأفلام الصامتة الأخيرة ، ميداناً فسيحاً وانترعته لنفسها . فما الذى كسبته بعد ذلك ؟ حقاً إنها ارتقت بالإضاءة وطريقة الرواية والصمعة ، ولكن ما الذى كسبته من الفن ؟ وأعنى بالفن هنا التعبير عن الروابط التى قد تكون خفية ولكنها بادية الأثر ولا مفر من الإيمان بها - هذه الروابط التى تربط بين الأحياء لبعضهم وبعض ، أو بين الأحياء والأشياء ، لم تهيب السينما الصامتة ، إبان ازدهارها ، من النزول

إلى هذا الميدان، ولكن السينما الأمريكية في العصر الحاضر - وتتهدى بهديها السينما في البلاد الأخرى - تعنى قبل كل شيء - ولها العذر فقد أصبحت هي أيضاً صناعة كسائر الصناعات - بزيادة مقدرتها على توفير التسلية والاهتمام للنظارة. فهي ليست أدباً، بل صحافة - ولكن عمل الصحافة التي قنعت به السينما الأمريكية يدفعها، شاءت أو لم تشأ، إلى ميدان لا يخلو من الفن أبداً، أعني به ميدان الخرافة والأوهام. وحياة السينما في العهد الأخير تستند كليهما على التحايل في الاتفاف بهذه الخرافة والأوهام.

وأول مظهر لهذا التحايل هو في العلاقة التي تقوم اليوم بين قصة الفيلم وبين نجوم السينما. رجالاً ونساء، بل النساء هن أفضل في الدلالة على أغراضنا من الرجال؛ فكل حسناء أصبحت محمداً سينمائياً لا يفرض فيها أن تكون ممثلة تؤدي دورها في فيلم سينمائي، بل لا يلزم عليها إلا أقل فسط من المقدرة الدراماتيكية، ويكفيها أن وحيداً يصلح لتعبير عن إحدى الفرائز العامة بين البشر والرمز إليها ويدائها. فلك أن نقول عن سارة برنارد إنها ممثلة، ولكن لا يصدق هذا قول على مارلين ديتريش، فها هي إلا من شخصيات الأساطير التي أحيطت بالخرافة والأوهام.

وقد استقر هذه الوضع حتى إن نجوم السينما - رجالاً ونساء - يدركون إدراكاً خفياً تلك الشخصية الأسطورية التي حلت في كل واحد منهم؛ ويصرون على تمثيل قصص سينمائية تعين على بقاء هذه الأسطورة ودوامها. وأصبح شهوور بفصل الصورة المكبرة، يعرفهم معرفة لم يقر بها ممثلو المسرح من قبل. وأخذت المقدرة الفنية تسير في اتجاهين متضادين؛ فالممثلة الكبيرة هي التي نحس ذاء عدة أدوار لشخصيات متباينة، أما النجم السينمائي حسناء تنفج الحياة في عدة أفلام متشابهة متلاحقة.

وفي التمثيل الصامت في المسرح الإيطالي القديم نحدد الشخصية الواحدة بتكرار ظهورها في عدة أدوار متباينة. أما رواد السينما الهائمون بها فيعلمون اليوم أنه، رغم المحاولات التي تبدل لتجوير الشخصيات المألوفة لديهم، ونصويرها بصورة جديدة، فإن الممثل هو الذي يطفى لشخصيته المعهودة لديهم عن الميل. فهم يرون جريتا جاربو ملكة، وجريتا جاربو محظية، وجريتا جاربو جاسوسة وهكذا، ومثلها في ذلك مثل سائر النجوم.

ومشارلي شارلي أصدق دليل على قولي فقد رأيت في بلاد الفرس فيلماً لا أنصر له ، اسمه حياة شارلو . والأفلام في بلاد لفرس تعرض في الهواء الطلق ، وأبصرت على الجدران التي تحيط بالنظارة قطعاً سوداء جاثمة تعسب أظفارها . وقد مكر أصحاب السينما وضموا أفلام شارلو القصيرة بعضها إلى بعض وقدموا لنا فيلماً طويلاً أثار الدهشة ؛ إذ رأينا أمامنا الشخصية الخرافية على حالتها الصافية الناصعة لا تشوبها شائبة .

وقد استحدثت السينما خرافات عدة كـ فيل سونجس لرنيه كبير الذي أعجب به العالم كله ، وفيلم المليون ، لرنيه كبير أيضاً ، وهو يروي خرافة الفتاة الفقيرة سندريلا في ثوب جديد أكثر بضوحاً ، وفيلم الملك الأزرق ، وأما هارب من السجس وغيرها . ولكن لا يزال أمامها مجال كبير لدراسة خرافات أخرى كتصوير العدالة الاجتماعية ، والفردية ، والفريضة الجنسية فإف السينما تنفذ مواضيعها بعد .

إن السينما تحاطب الجماهير ، والجماهير تهتم بالخرافات والأساطير بن خيراً وإن شراً . وإذا أردنا نحن نسين خرافات فكيف بالحرب بكبيراً بها . فإن رواد المفاهى الذين يرسمون الخطط الحربية أقل عدداً من هؤلاء الذين يؤكدون بأنهم علموا من مصدر ثقة أن العدو يسكل بالأنفال حوفاً . وما كذب الصحافه الصفراء إلا نوع من انصياعها لاستهواء الخرافة .

والخرافة تبدأ بالكلام عن الجس والعناريت ، وتنتهى بالتحدث عن القديسين وإن الجماهير لتؤثر أن تصمم ذاتها عن بحدتها عن الجانب الغائب في حياتهم ، ولكنها لاتعمى عنها في أحوال كثيرة . وهذا سؤال يحول في خاطري : ترى كم كان مبلغ فهم الجماهير لمواعظ القديس سان برنارد ؟ وهل فهمت منها غير ما قاله ربما ، أو إن شئت فقل : حتماً . ولكن كيف يكون لنا أن نبخس من قيمة ما فهمته في اللحظة التي كان يتغلغل صوت هذا الواعظ المحببول إلى أعماق قلوبهم ؟ ولا تنس من جهة أخرى أن السينما صناعة كغيرها من صناعات .

أنتمبر مارو

قلها عن القرلية بحى حق

المملوك

المملوك لفظ لا يحتج إلى إيضاح - فهو عند بيع ويشترى - إلا أنه اصطلاح على إطلاقه على فئة من العبيد كان الحكم يشتر وينهم لتكوين فرقة خاصة من حيوشهم . وأول من قدم منهم على ذلك هو الخليفة العباسي محمد المعتصم بالله من سنة ٢١٨ إلى ٢٢٧ هـ (٨٣٣ - ٨٤٢ م) ، فقد أولع باقتناء المملوك الأتراك حتى بلغت عدتهم عند وفاته ثمانية آلاف ، وقيل ثمانية عشر ألفاً ، وبني من أحلهم مدينة شرمس رأى - و سامرا - ثم أخذ المملوك منذ ذلك العهد ، في معظم الملاد الإسلامية ، يعززون حيوشهم بالمماليك الأجانب ، بل يكونونها جملة منهم .

هذا كان الملك الصالح أيوب لم يحدث دعة في التاريخ ، فإن جيش المماليك الذي كونه في مصر في منتصف القرن الثالث عشر وحضر له حرية الرخصة هم أساس قيام حكم تلك الدولة التي انزعجت الحكم من سترته ، والتي تتابع منها على تنوء عرش الديار المصرية سبعة وأربعون سلطاناً ، كان اثنان وعشرون منهم أرقاء ، قبل أن يرقى إلى سلطنة ، والجمعة والعشرون الآخرون من ذريتهم .

ومن كثرة هؤلاء المماليك من بلاد القفجاق ، و القفجاق ، شمالي البحر الأسود وقوقاز ، وهي بلاد كان لها في ضيق من العيش ، وكانت قاعدة تملكهم ، فرصة عظيمة للتجار وربيق ترك . وقيل عن هؤلاء الأتراك : « ليس لهم عسك بدن ولا رزقة في عقل » ومع ذلك فهم من خيار الترك أحسن ، لوفائهم وشجاعتهم ونحيمهم الغدير مع من قام بهم وحسن صدورهم وظرافة شمائهم . »

ومن هؤلاء الأتراك أكثر الصالح أيوب شراء عبيده حتى أصبح منهم معظم الجيش المصري . وما انتهى ملك إيه « مالت الجلوسية إلى الجلوسية ووقعت

الرغبة في الاستكثار منهم ، حتى أصبحت مصر بهم آهلة المعام ، وحمد الاسلام موافقهم في حماية الدين حتى إنهم جاهدوا في الله أهليهم .
غير أنه لما قام السلطان الملك الظاهر برفوق وكان من جنس الجركس أكثر من المماليك الجراكسة حتى صار منهم أكثر الأمراء والحند ، وقلت المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم في أواخر هذا العصر إلا القليل من بقاياهم وأولادهم .

وتجارة الرقيق في ذلك العهد كانت تجارة رائجة ، وكان اقتناء الرقيق مراً سهلاً ، وكانت مراكر هذه التجارة منتشرة في جميع لنقاع ، فلم تقتصر على بلاد الشرق وبلاد الترك والشركس والمغول والأروام والأكراد والفرس وغيرها من بقاع آسيا لصغرى والفرم والجريرة ، بل تعدتها إلى بلاد الغرب ، حتى إن التجار الأوربيين كانوا ينافسون بحار البلاد الآسيوية شدة المنافسة ، فكان يباع بمصر رقيق أنى التجار به من أسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، ومن الصرب وصقلية وألبانيا وهنغاريا .

وكانت هذه الجموع تحبب إليها قوماً حبلوا على الشر ، ونشروا بالمطامع والجشع ، أو أضمروا الخقد ، أو لقموا المغامرة ، أو نطلعوا إلى الوثوب . وكانوا على كل حال مرتعاً لنفساد ، سواء في ذلك أولئك الذين حكم عليهم بالبقاء جناداً ، وأولئك الذين كتب لهم أن يرفقوا من الرق إلى الإمارة أو إلى السلطنة .

وقد انتشرت القوضى في أيامهم ، بل إن لنظام الدى وضع لهم كان ممثلاً لهذه القوضى . إذ كان الأمير منهم يعين جهده لريادة عدد مماليكه ، حرصاً على نفسه ودفاعاً عن سلامته . وكثيراً ما كان الأمير يترك هؤلاء المماليك يسبون الناس أقواتهم ، عوضاً عن الأحور التي كان يجب عليه دفعها لهم ، أو استغلالاً لمركزه في وظيفته ، ليستولى على الأموال أينما تيسرت له ، وكيف احتار الوسائل إلى ذلك ، إما طمعاً منه في الوصول إلى وظيفة أعلى مركزاً وأوسع إيراداً ، عن طريق الرشوة أو عن طريق الشراء ، وإما ادخاراً ليوم تفرض عليه الضرائب الباهظة ، أو المغارم القادحة . وكان مما يشجع هؤلاء المماليك على أعمال السلب والنهب والفساد والقتل ، أنهم كانوا يعيشون عيشة عابرة بحيمة لا ثقة بعد فيها ولا أمان ، فلم يتركوا فرصة تمر دون استغلال طاعتهم وإرضاء أطعامهم . وكثيراً ما قاسى سكان لقاهرة الأهوال من اضطرابات المماليك

وأعمالهم الوحشية ، وكثيراً ما كانت شوارع القاهرة ميداناً لمعاركهم وجره بهم عند ما كانوا يستعصفون سلطانها ، أو عند ما كانت تقع المنافسة بين عتيدين من أمرائها . وكل هذا أحاط عصر المماليك بسلسلة ممتدة من الفوضى ، وجعل القاهرة أشبه بلد ررئ بالهزيمة ، وتدفق فيه الغزاة ، فاختلطت الجذير فيه الأحساد ، وعملوا السلب والنهب في الخوانيت والمتاجر والسيوت .

والغريب أن هؤلاء المماليك كانوا يستطيعون الجمع بين القسوة والوحشية ، والعطف الانساني ، وبين الجبروت التعسفي ، والخصوع الرئائي ؛ وذلك إما عن عقيدة راسخة ، أو عن سياسة كمينية ، كما كانوا يتصفون على السواء بالجند والمكاهة ، وبالانظام والثورة ، وبالخوف من الحكم والسجاعة الفائقة أمام العدو .

كانت أطباع هؤلاء المماليك لا تقف عند حد . والمدعش أنهم حققوا هذه الأطماع جميعاً وجعلوا من مصر عاصمة إمبراطورية شاسعة الأطراف ، وزعيمة لملاذ الاسلامية ومقر خلافة المسلمين . وقد حق لسلاطينهم إلى حد كبير أن يحملوا تلك الانقلاب الحلابة التي كانوا يتخذونها في مكائساتهم ، ومن بينها « سلطان الأعظم ، و سلطان الاسلام والمسلمين ، سلطان العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، فاتح الملوك والأمصار ، إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المسابر والتحوت والتيجان ، ملك البحرين ، سيد الملوك والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين »

أما كيف أن المملوك كان يثب إلى السلطنة ، فقصة في تسلسل درجات رجال الجيش ونظمها .

كان للأمرء كما كان للسلاطين ممالك . أما ممالك الأمير فكانوا عرضة لأن يختار السلطان أحدهم أو بعضاً منهم فيشتريه . وأما ممالك السلطان فكانوا مسكاً خاصاً به ، يتوارثهم خلفه ، أو خلفاؤه من سلاطين . وكتب على الواحد منهم أن يظل في عبودية الرق مدى الحياة ، ما لم يعتقه السلطان ، ويدخله في إحدى طائفتي المماليك السلطانية ، أو المماليك البحرية ، ويقطعه اقتضاً من الأراضي يتصرف فيها تصرف المستظر عليها ويستغلها لنفسه .

وكان الجيش المصري مكوناً من ثلاث طبقات أو طوائف : طائفة أحناد الحلقة ، وهم كثرة الجيش وعامته ، وكان لكل أربعين نفساً مقدم منهم ،

ليس له عليهم حكم ، إلا إذا خرج العسكر ، فهم أشبه بأحباط الجيش أو بالجيش المرباط . والطائفة الثانية طائفة بحرية ، وكانوا أشبه بحرس السلطان وأولى الخطوة عنده . ثم طائفة المماليك السلطانية ، وهم أعظم الجند شأنًا ، وأشدّهم إلى السلطان قربًا ، وأوفرهم قطاعًا . وهؤلاء أمراؤهم أو ضابطهم ، يختارون منهم ، أو يؤمّرون عليهم ، أمراء المثنين ، وأمراء الطبلخاناه ، وأمراء العشرات ، وأمراء الخمسات .

أما أمراء المثنين ، فكانت عدة كل منهم في الغالب مائة فارس على الأقل ، وكان للأمير منهم التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء . وهذه الطائفة كانت أعلى مراتب الأمراء ، ومنهم كان أكبر رباب الوظائف والنواب ، وكانوا في الغالب أربعة وعشرين أميراً مقدّماً .

وأما أمراء الطبلخاناه (والطبلخاناه ، ومعناه بيت الطبل ، يشتمل على أطول والآواق وتوابعها من الآلات) فكانت عدة كل منهم في الغالب أربعين فارساً على الأقل ، ومنهم كانت المرتبة الثانية من أرباب الوظائف ، والكشاف بالاعمال ، وأكابر الولاة .

وأما أمراء العشرات ، فكانت عدة كل منهم عشرة فوارس على الأقل ومن هذه الطائفة كان صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف .

وأما أمراء الخمسات فكان عددهم قليلاً ، وكانوا في الغالب أولاد المتوفين من الأمراء ، رعاية لسلفهم ، وكانوا في الحقيقة كبار الأحناد .

وهكذا كان الجيش المصري مقسماً إلى فرق من ألف فارس ، عليها مقدّم أو أمير ألف ، وكل فرقة مقسمة إلى طوابير من أربعين فارساً ، أو عشرين ، أو عشرة . ولم تكن زيادة عدة الأمراء سبباً لارتفاع مرتبتهم ، فكثير منهم كانت عدة فوارسه أكثر من المصطاح عليها ، ولا يعد إلا في أمراء طليقته ، إلا إذا رفعت الخطوة أو الإقْداء أو الظروف ، إلى إمارة أعلى من إمارته . وكان الباب مفتوحاً للارتقاء ، لا إلى إمارات الجيش بحسب ، بل كذلك إلى وظائف الدولة إذ كانت الحكومة حربية ، ووظائفها تسند إلى أرباب السيوف .

وأحلّ وظائف السلطنة ما كان يعبر عنها بالبيعة ، وعن صاحبها بالنائب الكافل ، أو تكافل الممالك الإسلامية . وكان يرجع إليه في جميع أمور المملكة ، ويحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعين أرباب الوظائف ، ما جل منها

وما صغر ، وكان يكاتب نواب الممالك ، فيما كانوا يكتبون فيه السلطان ، فكان النائب الكافل هو السلطان الثاني للمملكة ، بل إنه كثيراً ما كان السلطان لفعل لها . وقد مر أكثر سلاطين الممالك - ممن لم يرثوا الحكم عن آبائهم - بهذه الوظيفة أو بوظيفة الأتابك ، أو أتابك العساكر ، التي كانت تلي وظيفة النائب مباشرة في الرفعة وعلو المقام ، وكان صاحبها أكبر الأمراء المقدمين من بعده ، وكان له قبل إنشاء وظيفة النيابة ، ما للنائب الكافل من الشأن في تدبير أمور المملكة .

وكان الأمراء المقدمون يقلدون وظائف الدولة الهامة ، التي كان من بينها رأس السوية ، والامير أحمور والدوادارية ، والحجوية ، والامير جاتدار ، والاستادارية ، والحاشنكيرية ، والحازندارية ، وغيرها من وظائف الشرطة وولاية الأقاليم ، ووظائف الممالك التابعة لمصر وولاياتها ، في دمشق وصفد وحلب وحماة وطرابلس والكرك .

ولكل من هذه الوظائف اختصاصات محدودة ، ومزايا عديدة ، وإقطاعات واسعة ، كما أنه حرت العادة أن يكون لكل منها نواب من أمراء الطبلخاناه ، وسبع كثيرون من أمراء العشرات ، وحدث لا حصر لعدد .

وكان للسلطان دواوين عدة ، تتوزع لطلقات من الموظفين ، ممن كانوا يسموهم حملة الأقلام ، وتتبعهم طلقات عدة أخرى من الخدم أو الجند والحاشية . وأهم هذه الدواوين تسعة ، وأعلى وأرفعها رتبة ديوان الوزارة ، وكان ناظرها يلي السلطان مرتبة ، حتى أحدثت النيابة والآنابية ، فتأخرت رتبها ، واقتصر اختصاص الوزير على النظر في أموال الدولة ، وصار يتبعها أمراء من الموظفين . منهم ناظر الدولة أو صاحب الشريف ، وكان مشاركاً له يرقى هذا الاختصاص المالي . ومستوفى الصحة ، وله ديوان تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية فيه . ومستوفى الدولة ، الذي كان يتولى مراجعة أبواب مصروفات الدولة وإيراداتها .

أما الدواوين الأخرى فكانت تختص بكتابة السر ، ونظارة الخاصة السلطانية ، ونظارة الجيش ، ونظارة الخزانة ، ونظارة السيوت والحاشية ، ونظارة بيت المال ، ونظارة الإصطلات ، ونظارة دور الصياغة والأسواق . ولا شك أن أهمية هذه الوظائف كانت تتغير بتغير السلاطين ، ومنها ما لم

مكر حددت اختصاصاته ، ولكنها استقرت على هذا النظام تقريباً ، فنون
المماليك الشراكسة سلطنة مصر .

وترسم من درجات هذه الوظائف صورة واضحة لما كانت تستند عليه
حكومة المماليك ، وتبين كيف أن النظم الحربية جعلت للأمراء الحشد سلطة
تامة على جميع مرافق الدولة ، ومهدت لصغارهم سبل الترقى في درجات الوظائف ،
وهيات لبعضهم فرصة الوثوب الى السلطنة .

وقد حرت العادة أيضاً أن يكون لكل أمير من كبار الأمراء ، أمراء
المئين أو مرء الطلخانات ، بيوت خدمة ، مثل بيوت خدمة السلطان ، من
ملشت خاناه ، وفراش خاناه ، وشراب خاناه ، وركاب خاناه ، وزرد خاناه ،
ومطبخ وطلحاناه . وبينما كانت البيوت السلطانية تسمى بالبيوت الشريفة .
كانت بيوت الأمراء توصف بالكريمة .

ولكل بيت من هذه البيوت مهتار ، أى كبير ورئيس مسئول عنه ، ونحت
بده رجال وغلمان ، ولكل منهم وظيفة تخصه . وللأمير فوق هذا موظفون
من شاميته العساكر أشبه وظائفهم وظائف السلطان نفسه ، وتتخذ ألقابها مثل
رأس نوبة ، ودوادار وأمير مجلس وحمدار وأمير أخور وغيرها .

وكذلك كان لكل أمير ، مثل ما كان للسلطان ، حواصل من اصطبلات
وحقول ومناخات الجمال ، وشون الغلال . وكان الأمير مهم اذا خرج يخرج
في موكب حافل ، تتقدمه أكابر عساكره من رباب الوظائف عنده ، وسير
من خدمه مماليكه وغلمانه . واذا جلس نصب خلف ظهره ستار أو لشعير
من الجوخ الأحمر المزهر بالألوان والمطرز عليه رنك ذلك الأمير والقباه .

والرنك ستار الأمير وعنوان المجد ، تنوعت أشكاله ، وجرت العادة أن يكون
دائرة تحصر في داخلها رسم صقر أو أسد أو سيف أو دواة أو فرسيه ، وهى
زهرة اللوتس شعار ملك فرنسا ، وكان الأغلب رسم الكأس أو الدواة . وقد
تكون منقسمة الى قسمين أو ثلاثة ، بكل منها رسم خاص . وهذه الرنك
مختلفة الألوان ، يجعل الأمير ما يختاره منها ، دهاناً على أبواب بيوته واملاكه
أو طرازاً على أقمشة حيوله وجماله ، أو نقشاً على سيوفه وأقواسه ، أو طمعاً
أوانيهم من زجاج ونجار .

وحياة الأمراء المماليك كما مظاهر خلانة . كان من عاداتهم فى القاهرة ،

أهم يركبون في مناسبات مختلفة في مواكب طنانة ، مع النائب الكافل او مع حاجب الحجاب ، أو في حاشية السلطان ، وكانوا يلبسون الملابس الثمينة الظريفة ، ويتحلون بالعدد والسيوف الفاتقة الثمينة ، فللباس مطرزة مزركشة ، والمناطق مطلية بالذهب أو الفضة مرصعة ، ولا يركبون إلا الحيل المسومة ، أما البغال فلا يركبونها بحال ، بل يركبها غلمانهم خلفهم .

وإذا استعرضنا الألقاب التي كانوا يتخذونها ، أو التي كانت تطلق عليهم في المكاتبات الرسمية ، ردنا اقتناعاً بما كان يربط المملوك بالسلطان ، من صفات مشتركة وصلات ممتدة .

فقد كان النائب الكافل تطلق عليه ألقاب رفاعة منها : الجناب الكريم ، والعالى الأميرى ، عز الاسلام والمسامين ، وسيف الأمراء في العالمين . وكان رسم المكاتبة للأمراء مقدّمى الألوف ، لا يختلف عن رسم المكاتبة سائر الكافل ، إلا في استدال الجناب العالى أو المجلس العالى بالجناب الكريم وحسام أمير المؤمنين ، بسيف أمير المؤمنين .

وكان لكل طبقة من الأمراء ألقابها الخاصة ، فإذا وصلنا إلى الجندى المملوكى نفسه رأيناه يلقب في المكاتبات الرسمية بالأمير الأجل . كان للجندى المملوكى إذن مرتبة جليّة ، تميزه عن سكان البلاد وأهلها ، بل تميزه عن طبقات عدة من موظفى دواوين السلطان ، من طبقات أرباب الأقاليم . وبينما كان هؤلاء كما كان لأرباب الوظائف الدينية مرتبات شهرية محدودة تصرف إليهم كان للمملوك ، منذ اليوم الذى يعتق فيه ، إقطاع من بلاد المملكة وأراضيه ، يستغله كيف شاء ، ويسخر فيه من عامة الشعب وفلاحيه من أراد ، ويتصرف فى ذلك تصرف المالك والسلطان .

وتختلف قيمة الإقطاع باختلاف مرتبة المملوك ، فكان للأمراء المقدمين إقطاعات ، يخص كل واحد منهم ما قد تبلغ قيمته مائتا ألف دينار أو تزيد . وكانت تبلغ قيمة إقطاع الواحد من أمراء الطبليخاناه ثلاثين ألف دينار ، أو أكثر . وكان يقطع كل من أمراء العشرات أراضى تصل قيمتها إلى تسعة آلاف دينار . أما مقدمو الحلقة فكان يبلغ إقطاع الواحد منهم ألفاً وخمسمائة دينار . وخيراً كان الجندى المملوكى نفسه يفوز يوم إعاقته ودخوله فى زمرة الممالك السلطانية ، بإقطاع قيمته مائتان وخمسون ديناراً ، أى ما كان يعادل راتب

الوزير في الشهر الواحد ، وذلك بخلاف ما كان يحق له من الرواتب الحارية . من لحم وتوابل ، وخبز وعلف ، وريت وكسوة وشمع ، وبخلاف ما كان يُمنَحُه في مناسبات زواجه أو مواليده ، وبخلاف ما كان ينتظره من حظوظ الانتقال الى مرتبة العشرة ، أو الطبلحانة ، والموز بما كان يخصها من الاقطاعات .

مردنا من أحوال المماليك ، ولقب أمرائهم ودرجات وطلائقهم ، وقيم إقطاعاتهم بعض ما يدلنا على أن المملوك كان في الحقيقة سلطاناً مصغراً أو مختصراً ، أو أنه كان له في حدود إقطاعه ووظيفته ، تلك السلطة المطلقة التي كانت للسلطان في حدود مملكته ، كما كان له بعض ما كان للسلطان نفسه من القاب ومزايا وبيوت . غير أنه في كل هذا ، ومهما بلغت مرتبة وظيفته من العلو ، كان رهن إشارة السلطان ، ومملوكاً من ممالكه ، وعرضه لأن يفقد جميع ما كان حظى به في إمارته ؛ فقد كان السلطان يستطيع إذا شاء أن يسترد منه إقطاعه ، أو يقصيه عنه ، ليتصرف فيه . وكان السلطان يستطيع فوق هذا أن يفتك به ، ويقصى على أسرته وخاصته وأتباعه . ولم يكن السلطان نفسه أسعد حالاً من مملوكه ؛ فقد كانت القلة في السلطة لأشد الأمراء قوة وأكثرهم حيلة ، وكان السلطان في هذا شبيهاً بمملوكه ، يعمره الاطمئنان الى غده ، والثقة بالاحتفاظ بسلطنته .

وكان الإقطاع يتبعه الارتقاء الى الإمارة ، وكانت أهميته بنفسه درجة الأمير . ولكل منشور أو أمر بإقطاع صورة يكتب بها ، كانت تختلف حالها ، باختلاف مراتب أصحابها . وكانت صيغة المنشور الذي يُمنَحُه الجندي المملوكي والذي كان يلتزم به هذا الجندي في سلك الأمراء ، تنص على أن هذه المنحة كانت الخطوة الأولى للترقي « في درج السعادة » ، واللبوغ بالمملوك الى « رتبة السيادة » . فهي تعبر أصدق تعبير عما كان يخالج نفوس هؤلاء المماليك من الطموح الى أعلى المراتب ، وترسم الخطوة التي أحكمها المماليك ، للتدرج من الرق والعبودية الى الحكم والسلطنة .

أحمد فكري

زورق في حجب الظلام

الشاطئان تناحيا والفرقدين
والموج يعبث جاريا بالضفتين
الماشتقان تلاقينا في زورقين
متجافيا وتناثريا عن كل عين

في مكن بين الفصوص
جمعا وإن أبت السنون •
لم يرهبا حتى المنون
وتشاكيا رجم الظنون

وتراحما بعد الوطر في زورق
والهر يضحك والقمر في المشرق
والبهما مال الشجر تنشق
غمت المدينة والقدر فلنسبق

فمضى التهامس في الزهور
وجرى التناجي في الطيور
قد فاز في الدنيا الحسور
ومشى على هام الدهور

يا مَنى هاتى فسله من وحنك
ولمحينى جذبة من معصيت
ألقى حينى دمعته فى عارضك
شعت فظنت نجمة هبطت عليك

رصعت فيها العسجد
لترين حدا وردا
يفشى الميوت اذا بدا
فتظنه متوفدا

فتعنت الأيام لى لا دائما
والنوم يعنى كل عين — ساغا
فيظل طول الدهر حيا ناعما
والساع لا تلقاه طيا هادما

إذذاك يصفو عيشها
تزهو عن رغم المها
وتضمه ويضمها
صب يبيت مولها

من هنا وهناك

صبر فاخوري

بالفا مرتبة الكمال ، وإما ألا يكون البنية .
بذكاء مثله وعقيدة صادقة يشور صبر
فاخوري عل الجمود والدعوى وعلى التلقيق
والارتجال . إنه مثل الدراية والأمانة يضرب
لاهل الفرور والزور .

ثم إن داعياً في نفس عمر دعاه إلى شؤون
السياسة ، لا السياسة الصاخبة ولا المفرضة ،
ولكنها السياسة التي يقديها الايمان بمقوق
الانسان . هل تسنح إلى قوله في كتابه
« لا هوادة » : « الشباب البصير الواعي
وعياً قومياً صحيحاً مادياً ، إذا أمكن القول ،
لا يؤخذ بالترهات والأباطيل . . . هو ليس
من المشتغلين بالسياسة مهنة أو تمكسبا ، ولا
نظراً أو تزيدياً ، بل سياسة طواعية ،
و « حياتياً » إذا صح التعبير . » على هذا
النهج شط الماحوري وعمل للشعب ووتف نلحه
للديمقراطية ، للسواد الأعظم من بني وطنه .
وعلى سلم في الادب وكذلك في الوطنية ،
مع فلم متمكن متصرف ، يجبره فكر فطن
مستعصف .

رحمك الله ، يا أخى في الفن الاسمي ! لقد كنت
من أنفذ الكتاب بصراً وألمهم بصيرة في
لبنان ، وفي غير لبنان .

كل شيء فيه كان يشف عن الرقة : بحيف ،
مشوق ، مقتضب الحركة ، ناعم الطرف ،
خافت بصوته ، ومن وراء « نظارته » كان التحظ
ينب إلى الدقائق من كل فن . كان شعث حسه
وبرى فهمه ، وكان وسع أفقه وكبرة قلبه وهو
ينلق لطائف العرفان في باريس ، في السربون
خاصة : لطف « مكتسب » وافق رقة « مستقرة » ،
خرج من امتزاجهما ذوق رفيف وإدراك
سليم .

عرشه في بيروت ، ولكن لم أجلس إليه
سوى مرات في كل رحلة . كان في شغل شاغل
ومهم لازم . كان الفنان الحبران التلق . يقرأ
ويكتب أحسن ما تكون القراءة والكتابة .
لمست فيه الفضيلة العظمى : الاخلاص للفن ،
والمقدرة الكبرى : التعبير الفائر .

إسمه يقول في « الفصول الأربعة » :
« الأديب في بلادنا صورة رجل من ورق
وجبر ، لا تكاد نجد فرقاً إلا في لون الجبر
ونوع الورق » ، ثم : « يجب على الفنان أن
ينصل بهذا الوجود فلا يشتمد على الحفظ
والقراءة » ، ثم : « لا يهيم الأديب إلا أن يخرج
آية فن باقية على الزمان » ، ثم : « إن الشر
لا يمتثل أوساط الأمور ، فلما أن يكون

بشر فارس

معرض الفكر الحديث الأول ببغداد

وأما المستر كينت وود (وهو رسام إنكليزي) فقد أخرج في هذا المعرض كثيراً من الصور التي تمثل انطباعاته عن العراق الذي عاش فيه حوالي ثلاث سنوات، إلا أنه لم يستطع التحرر من إنكليزيته (من حيث الألوان) ولا من تأثره السطحي بأفانيس ألف ليلة وليلة... قال العراقي حين يقف أمام صورته يعجب ويأخذ الدهول... ومع كل هذا ففي صور هذا الفنان انسجام وترباط يستحق عليهما التقدير

وجواد سليم (وهو عراقي) لم يمرض إلا تمثالاً خشبياً واحداً، علي حين عرض ما يقرب من أربعين صورة ومخططات... وفي كلها يريد أن يخبرنا عن جهاده المتواصل من أجل خلق الشخصية العراقية بفته دون الانفراق تأثير بيكاسو وماتيس ولوثرليك، إلا أنه ما يزال في طريقه، كما أعتقد، غارقاً في ذلك التأثير... وقد عرض بعض الانكليز والبولونيين والمراقين الآخرين صوراً تختلف روحاً وطريقة، إلا أن أكثرها يميل إلى التجديد والابداع والانطلاق من القيود الأكاديمية (ما عدا الانكليز فهم ما يزالون ينقلون الطيعة كما تنقلها الكاميرا).

هذا وقد افتتح للمعرض معالي وزير المعارف العراقية السيد نجيب الراوي الذي يدأب على تشجيع الفن والفنانين... ورأى عدد كبير من الشخصيات البارزة في ممداد ممن يهتم بالفن، ومن الجاليات الأجنبية. كما كان إقبال الجمهور على زيارة المعرض عظيماً جداً، مما دل على كثرة اهتمام الشعب العراقي بالفن، وقد كتبت الصحف العراقية كلها تلهج بأبداء تهنئتها للاستاذ جميل حودي لنجاح معرضه الأول هذا.

أقامت مجلة «الفكر الحديث» في بغداد معرضاً واسعاً للرسم والنحت والمهارة اشترك فيه جمع من الفنانين العراقيين والاحد من بولونيين وإنكليز.

فكان من أبرز المعارضين فيه، الاستاذ جميل حودي صاحب مجلة «الفكر الحديث» ورئيس تحريرها ومنظم هذا المعرض الفخم ورسومه وتماثله التي نحا فيها نحو الانطباعية الحديثة post impressionism والريالزم surrealism وقد كان في بعض تماثله الخشبية مثل «رأس فتاة» و«تحت» من الصفات الجديدة المبشورة ما يجعله في صف واحد مع الفنانين العالميين الحديثين، فانه حقق فيها أفكاره وآراءه الخاصة في القووم والصباغة الفنية المطبوعة بظا به المبيق. كما بلغ بشمال أبي العلاء المعري مرتبة رفيعة في القدرة على الاخلاص للفكرة وإجادة العمل الفني في نفس الوقت، مما يدل على سعة مقدورته واطلاعه... ولا ريب في أن الاستاذ جميل حودي من أعمق الفنانين العراقيين تفكيراً واطلاعا على الموجات الفنية والفكرية في العالم

كذلك الأستاذة زينة سليم كانت في هذا المعرض من الخارجين إلى أجواء ملونة أكثر انطلاقة، حتى لكأنني وأنا أتساق مع صورتها «في غرفة الصف» التي تمثل التلميذات إبان الدراسة، أكتشف شيئاً جديداً من الاحاسيس وأصبح في بحر خضم من الروح الطفولي الحبيب، والسيو ما توشاك (وهو رسام بولوني) قد أنار في نفسي المعجب وورسم على وجهي الاستفسار؛ فقد كانت في رسومه فلسفة يصعب أن يدرك كنهها إلا بالدرس والتعمق. وقد أظهر في جميع رسومه تأثره العميق بالجو والحياة في العراق...

الذي نريده فصلا في تاريخنا الحديث ليشجنا
على أن نتقارب نحن العرب ونزيد التفاهم بيننا .
فليكن ذلك عن طريق الفن أيضاً !

وأخيراً أحب أن أسائل : لماذا لا يفضل
إخواننا الفنانون المصريون فيقيموا معرضاً
لاتأجهم في بغداد . . . إن هذا العهد الجديد

[بغداد]

صاحب الصباغ

الشاشة البيضاء في مصر

صريحة ، حاسمة ، تقيم الآود وتثبت الايمان
بالفضيلة وتذهب بأوهام الشك من العقول
الضليلة والنفوس الخاوية ؟ إنهم ولا شك
قد رغبوا في هذا كله أولى شئ من هذا كله
وحاولوه ، وما ينكر أحد أنهم يتفقون كثيراً
من الجهد والمال فيما يفعلون ، وأن فهم كثيراً
من أصحاب الرغبة الصادقة في أداء هذه
الرسالة على وجهها . ولكن أحداً لا يستطيع
أن يقول بحق إنهم كانوا موقفين في كثير
عما اختاروا وقدموا للناس ، أو أن في رواية
السينما المصرية شيئاً يستحق أن يخرج له من
البيت ، أو يدخل إليه من الطريق ، وفيها
من صور المآسى والمهازل ما يقطر دماً ،
وماء حياة .

وفي السينما المصرية حب وغناء . والحب جميل
إلا أن يكون حب النفس والتشهى ، وصناعة
الأجساد . فهو جميل في الغيرة والايثار
تضفيه على أخيك وصاحبك وجارك والناس
جميعاً ، وجميل في الآثرة والأنانية تضفيه على
نفسك بكسب المحامد في بذل النصرة وإسداء
المروءة . والثناء جميل في حلاوة الصوت ،
وعذوبة العين ، ولطف الأداء ، وشرف
المعنى ، لا أن يكون غناء تعجبه الأذن ،
وتستحي منه العذارى ، ويمانه لسان الغفيف .
وفي السينما المصرية نقص وبها حاجة إلى
الإنارة في الانتاج . ولست هنا في مقام نقد

بل هي السوداء إن لم يكن شر من
السواد ، فإن استطاع الذين شاءوا تجنب
مصر ويلات الحرب وعملوا له ، أن يجنبوها
ذلك البلاء المطبق في سوق الأرزاق وسوء
الأخلاق .

وبينما كان الناس هناك في روع القتال
وهوله ، كان عبيد المال من أشباه الناس
بمسكون القوت ، ويرسلون العذاب على الناس
أولاً من الموز وخش الفلاء ، حتى اكتسوا
من عرى الكرم وشبعوا من جوعه . ثم
طاف هؤلاء هؤلاء طائف من أصحاب
الرجوه المستعارة جاءوا برسالة الفن ، وعز
عليهم ألا يكون للسينما في مصر مكانة كالحا
أخوات مصر من ممالك النور ، وعز عليهم
كذلك أن تسير قنوات الذهب والنفضة
بين الأكل والمأكل فلا يذهبون منها
صيب .

وبعد ، فبأي خير جاء القاصمون بالأمر في
صناعة السينما المصرية ؟ وماذا قدموا لهذا
الشعب المسكين ، العاصي إلى المعرفة ، المتطلع
إلى النور ؟ أتراهم يبنوا للناس صوراً واضحة
من الخير في شتى مذاهبه ، يتأسى بها روادهم
الكثيرون من صغار وكبار في جميع الطبقات ؟
أم تراهم عمدوا إلى عقد المجتمع ومهكلاته
تتناولوها بأساليب مختلفة : من التهويل
والتهوين ، ووضعوا لها حلولاً حازمة ،

رواية بينها ، أو التعرض لشخص بذاته ، وإنما هي رغبة صادقة في الإصلاح ، ونداء من قريب ، إلى هؤلاء الذين يتصدون لهذا الأمر في مصر ، أن يحسنوا الاختيار ، ويترفعوا عن الاسفاف ، وأن يقتصدوا فيما يأخذون من الغرب ، إلا ما سبقوا إليه من عدة أو صناعة ، فهم يرون أن حضارة الغرب لم تحمل منهم أمة صالحة فاضلة ، وهم يعلمون أن حظ الشرق من الدين والفكر والآداب عظيم ، وأن كل ما في الغرب أو كثير آتته هو بعض هذا التراث ، مطمورا في الجليد أو تراب الفحم ، عروما من ضوء الشمس ووضوح النهار

عبد اللطيف إبراهيم

« جنابة »

سيدى حميد الادب العربى
تحية واحتراماً . وبعد ، ماكدت أتمنى من تلاوة الشطر الثانى من قصة « جنابة » للأستاذ حبيب الزحلاوى فى العدد السابع من مجلة « الكاتب المصرى » ، حتى تذكرت قراءة هذه القصة فى مجلة « الرسالة » . فرجعت من ساعى لمجلات « الرسالة » أبحث فى فهرسها ، ولكن دون جدوى ، إذ لم أجدها أثراً فى الفهارس . وقد غلبنى حب الاطلاع ودفعنى الاستفسار ألا أكتفى بالفهارس فقط ، بل صرت أقلب صفحات مجلدات « الرسالة » واحدة بعد الأخرى ، مراعى نظام التسلسل فيها . ثم بقيت أقلب الصفحات أكثر من ساعة متحملاً الجهد والعناء ، حتى وجدت منشورة فى عدد (٦٠٤) من المجلد الثالثة عشرة ، تحت عنوان « الجارم البرى » فمجت لهذا التفسير فى العنوان ، إذ كيف أجاز الأستاذ الزحلاوى لنفسه أن يشر قصة واحدة بعنوانين فى مجلتين لها مكاتبتها فى الأوساط الأدبية . فلذا جئتكم برسالتى هذه مستفسراً عن هذا النمط من الادب . هل الأستاذ الزحلاوى بحث بقصته لكم كما بحث به لجلة « الرسالة » ؟ أم أنتم نقلتموها من « الرسالة » بعد أن غيرتم عنوانها ؟ وهل يجوز هذا ؟ أما أنا — مع قلة معرفتى بالادب — فأنى أستنكر هذه الطريقة من « الكاتب المصرى » التى اتفردت دون سواها بالأبحاث الجديدة . نعم أستنكرها من المجلد لأنها الوحيدة التى نقلت آداب الغرب إلى اللغة العربية قبل أن تقرأ بلفتها الأصلية . فكيف أجازت لنفسها نقل قصة أكل الدهر عليها وشرب ؟ هذا وتفضلوا بقبول فائق احترامى يا سيدى العميد ؟

على إبراهيم الطحاوى

[عراق نهائية]

يؤكد سكرتير تحرير المحلة أنه لا يزال محتفظاً بأصل القصة التى كتبها الأستاذ حبيب زحلاوى ، وأنه كان له فيها مضى من الثقة بأدب الأستاذ ما جعله يعمل على نشر هذه القصة . والأستاذ حبيب زحلاوى يحترف مهنة التجارة وهو على علم بأصولها ، فما رأيه فى التاجر الذى يبيع السلعة الواحدة مرتين ؟

شرايت

شهرية العلم

اختفاء البكتريا

أظهرت شيئاً آخر ؛ إذ أن جميع مستعمرات الستيفيلوكوك حول العفن ، وكانت قد نمت جيداً قبل ذلك ، قد اختفت . وبدأ كأن شيئاً قد أذابها .

ولقد أثارت هذه الظاهرة اهتمامي أكثر من المشكلة التي كنت مشغولاً بها ، وكنت رأيت قبلاً ميكروبات تذوب ، وقد كنت شرحت منذ بضعة سنوات أن أشياء بسيطة مثل دموع الإنسان أو يياض البيض قد تذيب كليات كبيرة من الجراثيم في بضع نواحي حتى إن ما كان من قبل شيئاً معتماً معلقاً مثل الحليب صار شفافاً ، غير أن الميكروبات التي تذيبها الدموع أو يياض البيض لم تكن من النوع الذي يسبب الأمراض . ولكن هنا مع العفن وجد ميكروب يسبب المرض في طريق الدونان ، وليس هذا أمراً يحوز تحامله

ثم لمست سطح مزرعة العفن بسلك بلاطين معقم ، واخذت بضعة بذور ونقلتها إلى أنبوبة مزرعة جديدة ، وهكذا توأطر لي عفن ينمو تقياً وأمكنني أن أعيش به وقت الفراغ كما أريد . وأول ما فعلت هو أني نزلت بضعة بذور من مزرعتي الجديدة (العفن) إلى طبق مزرعة جديدة وتركناها تنمو مدة خمسة أيام ، ثم مددت من مستعمرة العفن إلى حافظته تشكيلة من الميكروبات المختلفة ثم أودعت الطبق في جهاز التفريخ ولما نظرت في اليوم التالي كانت النتيجة ندعو بكثير من الاهتمام ،

كنت في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ ألب ميكروب مرض طادى وهو ستيفيلوكوك ، وهو للميكروب الذي يسبب الأخرجة والدمامل وأمراضاً أخرى ، ولم أكن مشغولاً في بحث عميق ، فقد قال بعضهم إنه يمكنه بطريقة ما أن يغير مظهر مستعمرات هذا الميكروب فأردت أن أعرف أهذا حقيقى . وتثبتت تلك للميكروبات في أطباق زجاجية مسطحة على مادة زرع تشبه الجلوتين (الغلام) ، وتعطى الأطباق بغطاء لكي يدرأ عنها التلوث بميكروبات الهواء . وفي أثناء بحوثى اضطررت أن أزرع النطاء لكي أخضع نموها تحت الميكروسكوب ثم غطيت الطبق ثانية وأزاحت جانباً لفحصه بدئته . فكان زرع النطاء هذا السبب في حدوث متاعب بسبب التلوث من الهواء . وفي الواقع حدثت المتاعب إلا أن البنيسلين نتج من أحدها .

وهذا هو ما حدث : كان لدى طبق مثبت معطى بمستعمرات من الستيفيلوكوك ، وفي أحد الفصوص وقعت بذور *spores* من البنيسليم *penicillium notatum* من الهواء في الطبق وهذه وجدت وسطاً مناسباً فنمت . ولما رأيت للزرعة عقب ذلك يحول إلى خمسة أو ستة أيام كان بها مستعمرة من العفن . ولم يكن هذا غريباً ؛ فقد تصادف كل بكتريولوجى مثل تلك المتاعب ، فكان يرى المزرعة مصعوبة بالنموت اللائقة بها . إلا أن تلك للزرعة بالذات

تويعس الجراثيم التي تنتقل لنا العدوى عادة .
 ثم اختبرت مستحب صغير من أنواع الففن
 الأخرى ولكنها لم يكن لها أى مفعول كهذا .
 ثم اختبرت درجة قوته بعمل تخفيفات ولارى
 إلى أى حد يمكن أن يخفف قبل أن يفقد مفعوله
 في منع نمو جرثومة حساسة . وقد اختلفت
 أنواع النمو ، إلا أن أحسن ما وصلت إليه أمكن
 تخفيفه ١٠٠ ضعف قبل أن يفقد قوته للتنمية .
 ويمكن أن نقارن هذا بحامض الكربوليك
 وهو مطهر قديم نموذجي . فإذا خففنا حامض
 الكربوليك أكثر من ٣٠٠ ضعف فإنه لن يمتد
 نمو الجراثيم . إذن فإن العفن أنتج مطهراً
 كانت قوته ثلاثة أضعاف قوة حامض الكربوليك
 على كثير من الجراثيم
 وإلى هنا سئمت الكلام « عن سائ
 الففن » . لذا سميت الناتج « ببسيلين »
 لأن العفن الكامل التطور أو النمو يشبه قلم
 أوفرشاة مما يسمى ببسيلين .
 ثم حقنت سبعة حيوانات بقليل من الببسيلين
 فوجدت أنه على ما يبدو لم يكن له أى خواص
 سامة ، وهذا يختلف عن كافة المواد المطهرة
 للمروفة . وهذه نقطة في غاية الأهمية .
 لأنني قبل ذلك بحين كنت تقدمت بطريقة
 اثبت فيها أن المواد الكيميائية للمطهرة المعتادة
 كانت أكثر تسمماً لخلايا الدم منها للبكتريا .
 ودم الإنسان مهم فيما يختص بالبكتريا ، فهو
 يحتوي على خلايا الدم البيضاء leucocytes
 وهي مبيدة قوية للجراثيم ، وهي تتكون في
 نخاع العظم وتسير في الدورة وعندما تنفذ
 الجراثيم إلى الجسم وتبدأ في النمو تخرج خلايا
 الدم البيضاء من الأوعية الدموية إلى
 التي بها العدوى وتبذل جهدها في أن تهرس
 الجراثيم بأن تأكلها وتهضمها .
 فإذا كانت الجراثيم قليلة والخلايا لا تأكل
 منها الكثير فكيف يمكن أن تهضمها جيداً .
 الخلايا مهمة — مثل الكثيرين منا — ، وهي على

قبضة ميكروبات لم تكن تنمو في أية جهة
 بجوار العفن وميكروبات أخرى تمت لغاية
 العفن .
 والآن بدأنا معرفة شيء عن العفن ، وكان
 من الواضح أنه في نموه أنتج شيئاً انتشر
 في مزرعته .
 فكان لهذا الشيء تأثير في بعض الميكروبات
 دون بعضها الآخر . وهكذا أخذت أهمية
 المسألة تزداد أكثر فأكثر .
 والشيء التالي الذي فلتته هو أني زرعت
 العفن على مزرعة سائلة بدلاً من الهلام الجامد
 فزرعت قبضة بذور على سطح السائل وفي
 قبضة أيام صار سطح السائل مغطى بنمو
 سميك منمرح من العفن يشبه السداد ، واتخذ
 السائل الذي تحته لوناً أصفر فاقماً . ثم أخذت
 بعض السائل الأصفر واختبرت خواصه بنفس
 الطريقة التي اتبعتها قبلاً ، وذلك بأن زرعت قطعة
 من الهلام من طبق مزرعة وملأت الحفرة التي
 نشأت بالهلام المحتوي على سائل من مزرعة
 العفن ، ثم طعنت طبق للزرعة بميكروبات
 محتلة بعدها من الحفرة المذكورة إلى حافة
 الطبق وكانت النتيجة مماثلة تماماً لما حدث في
 للشاهدة السابقة ، فبعض الميكروبات لم تكن
 لتنمو بجوار الحفرة والأخرى تمت حتى وصلتها .
 وهذا يرينا أن المادة المطهرة أيأ كانت التي
 كونها العفن لم تكن ضمن نفس مادة العفن
 بل وجدت في السائل الذي تمت فيه .
 وبالمصادفة أن الطريقة المذكورة هي النتيجة
 الآن عادة لمعرفة الجرثومة للسبية العدوى
 في مريض ما أي حساسة للببسيلين . فإذا كانت
 الجرثومة لا تنمو لغاية الببسيلين فهي حساسة
 لتأثيره وبصح الأمل عظيماً في أن يكون العلاج
 بالببسيلين ناجحاً . أما إذا كانت الجرثومة تنمو
 لغاية الببسيلين فإن الأمل يكون قليلاً في
 العلاج بالببسيلين .
 وما تقدم نكون قد حصلنا على مادة تمنع

استعداد لأن تكون كمية أكثر جداً مما يمكنها
هضمه ، وفي هذه الحالة تستمر بعض الجراثيم
في النمو في الخلايا ، وعندئذ تبدأ الخلية
لا الجرثومة . فإذا تغلبت الجرثومة على الهجوم
الأولى للخلايا فحينئذ ينتج خراج أو دمل أو
طلوع أو أرداً من ذلك ؛ لأنك إذا أخذت
نبتاً من خراج ما ، وحدته عبارة عن تجمع
من خلايا الدم البيضاء في سوائل تحتوي على
جراثيم .
إذا أخذت دماً وفرخته في أحوال مناسبة
مع السنافلوكوك (جرثومة الدمل أو الخراج)
فإن ٥ ٪ أو أقل من الجراثيم تبقى حية ،
فإذا أحيف إلى هذا الدم المفدى بالجراثيم حامض

كر بوليت سنة ١٩٠٠-٦٠٠ فإن جميع سكرات
تظل حية ؛ وذلك لأن محلول حامض السكر بوليت
بنسبة ١-٦٠٠ سميت خلايا الدم دون أن
يعوق نمو الجراثيم . ووجدت نفس الشيء في
جميع المطهرات المستعملة ، وأول مادة جربت
وأثرت في الجراثيم أكثر من خلايا الدم كانت
البنسلين ، وقد كان في هذا خاصة ما أقمى
أنه سيحتل المكان اللائق به في علاج المرضى
الجراثيمي .
وفي ذلك الوقت كان لدينا بنسلين خام ، بيد
أنه يجدر بنا أن نوضح لكم مقارنة بين مفعول
البنسلين النقي في خلايا الدم والجراثيم ومفعول
المطهرات الأخرى المعروفة فيما يأتي :

التحقيق يؤثر في

النسبة	الستر توكوك جرثومة سحبة	كريات الدم البيضاء	دمس الكر بوليت
١-٤	١-٣٠٠	١-١٢٠٠	
١-٤	١-٢	١-٨	T C P
١-٥	١-٩٠٠	١-٥٠٠	سكر ولامين
١-١	١-٢٠٠	١-٢	سد بيلاميد
١-٨٠٠	١-٨٠٠	١-١٠٠	بنسلين

وإني أوجه التفات القراء إلى الرقم
١٠٠٠ ر ٨٠٠ فإنه بالطبع يمثل البنسلين
النقي (لا النوع الخام الذي كنا نتداوله
منذ ١٥ سنة مضت) . ولكن هل تدركون
ما هو المعنى الحقيقي لجزء من ثمانين مليوناً ؟
ولما كنت أسكتلندياً فمما أقرب المسألة لأذهانكم
أقول : هذا يمثل نقطة من الماء في ٦٠٠٠
رحابة ويسكي ، ولو أنه من الصعب في يومنا
هذا أن تصور ٦٠٠٠ زجاجة ويسكي .
وهذا الجدول يبين أحد الفوارق بين
المطهرات القديمة والمطهرات الحديثة ؛ فإن
لمطهرات القديمة التي تلتف خلايا الدم بسهولة
أكثر من إتلافها للجراثيم لم تكن ذات تأثير

في علاج العدوى داخل الجسم مع أنها قد
تكون قوية جداً خارجاً .
وثمة ملاحظة أخرى أريدناها في تلك الأيام
ولكنها لم تنتشر إلا في الوقت الحاضر وهي
عبارة عن مقارنة أخرى بين البنسلين وبعض
المطهرات القديمة ؛ فقد تقبنا أقرصاً من طبق
به مزرعة هلامية ، وفي الثقوب الناجمة وضعنا
أقرصاً من ورق النشاف منقوعة في مطهرات
مختلفة ، ثم ملأنا الثقوب بهلام جديد ، ولما
تجدد الهلام زرعتنا جراثيم على كل سطح الصق .
ولكنما يؤثر المطهر في الجرثومة يجب أن
ينتشر مجتازاً حوالى ١/٢ بوصة من الهلام ،
فكان البنسلين هو الوحيد الذي فعل ذلك ،

البيلين في حين أن كل مسببات التآكل ان
نصاحبه حساسة تقريباً له ، ولذلك فالتآكل إذا
وضعنا قليلاً من البيلين على اللوحة فإن
اجرامه لا تلتصق ، على حين يستمر البيلين
السل الذي في التآكل .

وقد قرر فلور وشيف في سنة ١٩٣٨
في أكسفورد أن يقوموا بأبحاث في المطهرات
التي تنشأ في الطبيعة . وكانت أبحاثهم
مبنية على lysozyme وهي المادة المنقية
للبكتريا في الدموع وبياض البيض التي وصفتها
في سنة ١٩٢٢ ، وبعد دراسة المراجع وصلوا
إلى أنه قد يكون من المفيد أن يحولوا تركيز
البيلين ، وقد استخدمه مررغن ومزرع
ريستريك وطريقة استخراج مثل ما أنتج
ريستريك تقريباً من قبل ، إلا أن كل الفرة
كانت في طريقة الاستخراج ، بحيث
تركيز العنصر المعين وتحينه في شكل مسحوق
أصفر ، وقد جربوا منعوله على البكتريا فأيد
نتائج التجربة ، وحققت به الحيوانات وأثبت
أنه حتى المادة المركزة منه كانت بلا ضرر
وكانت أيضاً لا تضر الدم .

ثم إنهم أعدوا الجرذان بوضع جراثيم ميب
كالستريوتوكوك والسيتيولوكوك vittrion
septique التي تسبب دائماً موت الحيوانات .
وقد طبلوا بعضها ببضعة مليجرامات من
مسحوق البيلين والبعض الآخر لم يعالجوه ،
فالتى لم تعالج ماتت كلها في مدة سبع عشرة
ساعة وعاشت كل الحيوانات التي عولجت ،
فبرهن هذا على قوة البيلين الباهرة .
ثم جرب في الانسان ، وإن لم تكن النتائج
الاولى ذات حظ كبير من التوفيق ، فب
أظهرت بوضوح أن البيلين كان عاملاً قوياً
ضد بعض أنواع العدوى المادية المعروفة .
وقد وسعوا مدى صناعته في أكسفورد
ولكن في ذلك الوقت (سنة ١٩٤٠) كان
صانعو الأدوية بالجلد مشغولين جداً

بل يحاول الخفيف منه أو وقف هو خرومة
في مساحة قطرها بوصة ، وأجرى كل هذا
في سنة ١٩٢٨ — ١٩٢٩ — ١٩٣٠ ،
وقد تنسأل لماذا لم تستمر تلك البحوث إذا
كانت قائمتها بهذا المقدار ؟ ولكن الذي غلبنا
فلا هو عدم ثبات البيلين ، بحيث إذا
أنجينا مزرعة منه لمدة عشرة أيام فانها تكون
معاملة جداً . أما إذا تركت لمدة خمسة أو ستة
أيام أخرى فربما اختفت فاعليتها تماماً . ثم إن
بكتريولوجي فقط ولست كيميائياً ، ولم تنجح
مجهوداتي ومجهودات زملائي السكة بولوجيين
في مستشفى سانت ماري في تركيز أو تثبيت
المادة الفعالة ، وقد كان ينقصنا كيميائيون
ماهرون لمساعدتنا .

وعقب ذلك بحوالي سنة تناول مشكلة
استخراج البيلين كيميائياً ما هو جداً وهو
الاستاذ ريسترك بلندرة ، فانه أنعمي الفن في
سائل بسيط يحتوي على أملاح قليلة وقليل
من السكر ، وقد أمكنه أن يبرهن على أن
العنصر الفعال يمكن إذابته في حامض الاثير .
وكل استجارب عن البيلين كانت بكتريولوجية ،
إلا أن معاوثة البكتريولوجية لم تحقق أمله
فترك المسألة واشتغل ببحوث أخرى .

وكنا في مستشفى سانت ماري ينقصنا
الكيميائي ، وكان ريسترك ينقصه البكتريولوجي
وهكذا ظلت المسألة ساكنة ثمانى سنوات ،
إلا أننا داومنا عمل للزراع طيلة ذلك الوقت
في مستشفى سانت ماري . وإنني أحتفظ فعلاً
بالزرعة الأصلية التي لاحظنا فيها تأثير البيلين
وما زالت عتدى في معمل ذلك المستشفى ، وفي
خلال ذلك كنا نستخدم البيلين الخام في
معمل سانت ماري ، وهذا لفرض سهولة عزل
جراثيم معينة من الجسم . وكان المعتاد أن عزل
باسبيل السعال الديكي هو من الصعوبة بمكان ،
إذا أنه يكون في الجسم غالباً مصحوباً بجراثيم
أخرى . وباسبيل السعال الديكي غير حساس

بالمصادفة أن جميع الببيليين الموضح في ذلك الوقت حضر من نسل يذور الفن التي لو تم طبق مزرعتي في مستشفى سانت ماري في سنة ١٩٢٨ .

فأولا صنع كل الببيليين بأنحاء الفن على سطح المزرعة في زجاجات — ألوف منها — ولكن عقب ذلك ابتكرت طريقة بأنحاء في قاع مزارع في أحواض . وأظن أن أكبر أحواض استخدمت لهذا الغرض كانت سعتها ١٥٠٠٠ جالون ، وهذا مما ساعد الانتاج كثيرا جداً وأمكن به معالجة كل مصابي الحرب على شاطئ المحيط الاطلانطي فأنقذ حياة رجال كثيرين لولاه كانوا من الهالكين .

بالجهودات الحرة لدرجة لا تسمح لهم بالوقت الذي يحاولون فيه الانتاج على نطاق واسع فطار فلوري إلى أمريكا ، وبفضل مساعدة الدكتور ريتشاردز اتصل بالدكتور كوجيل من نيويورك وبضعة مصانع أمريكية للأدوية فرودهم بجميع المعلومات التي توصل إليها ، وبقي بأمريكا أحد معاونيه الدكتور هيتلي لمساعدتهم في بداية تحضير الببيليين .

وهنا كان أول ما ظهرت الولايات المتحدة في منظر الببيليين ، إلا أنهم شرعوا في العمل فتطورت طرق الصناعة إلى أن صار الانتاج الآن موازياً تقريباً للطلب . وقد توصلوا أيضاً إلى تحسين المزارع التي ينمو فيها الفن حتى زاد الانتاج حوالي عشرة أضعاف . وحدث

سير الكسندر فلينج

تتلها عن الانجليزية دكتور عيسى حمدي للآزني بك

شهرة السياسة الدولية

شهر حافل

حفل الشهر الذي يتقضى ساعة كتابة هذه الشهرة في العشرين من مايو بالحوادث الدولية، وقد عقدت خلاله الدورة الثالثة من دورات مجلس الأمن الدولي بمدينة نيويورك، واجتمع مؤتمر وزراء الخارجية الأربعة في مدينة باريس. وأذيع تقرير لجنة التحقيق الانجليزية الامريكية عن فلسطين، وجرى المفاوضات بين رئيس الوزارة الإيرانية وزعيم الوطنيين في أذربيجان.

في مجلس الأمن

وكان جدول اعمال مجلس الأمن متضمناً الموقف الإيراني السوفيتي، ومسألة الحكم في اسبانيا، وكذلك النظر في طلبات الانضمام إلى هيئة «الأمم المتحدة»، واللائحة الداخلية. وكان الموقف الإيراني السوفيتي معلقاً، وكان تعليقاً راجعاً إلى أن الاتحاد السوفيتي كان قد أعلن أن جلاء الجيش الأحمر من الأراضي الإيرانية سيتم في السادس من شهر مايو من ناحية، وإلى أن مندوب الاتحاد السوفيتي كان قد أعلن أنه لن يحضر جلسات يمرض فيها المجلس لذلك الموقف مادام قد رفض رأيه في عدم الاحتفاظ بالموضوع في جدول الأعمال. وكان المجلس قد قرر الاحتفاظ به إلى أن تخطر الحكومة الإيرانية بتمام الجلاء. فلما انقضى اليوم السادس قرر المجلس أن يعرض للموقف فانسحب الرفيق جروميكو للمندوب السوفيتي من الاجتماع تنفيذاً لسابق إخطاره، وقرر المجلس في غيبته أن يؤجل عرضه إلى اليوم العشرين حتى أن تصل إليه خلال الأسبوعين ما يؤكد له الجلاء. واليوم ينتهي الأسبوعان ولم يلح في الأفق شيء مادي جديد اللهم إلا

ذلك الخطاب الذي ألقاه سفير إيران في الولايات المتحدة، وقد ذكر فيه أنه لم يتلق من حكومته أي نبأ يدل على تمام الجلاء. وإذن فالحال في مجلس الأمن الدولي باللبسة للموقف الإيراني السوفيتي لم يتبدل: يستمسك الاتحاد السوفيتي بأنه ليس للمجلس اختصاص النظر؛ إذ لا خلاف بعد أن أعلن رئيس الحكومة الإيرانية أن الأمور بين إيران وروسيا قد سويت، ويستمسك المجلس بالاحتفاظ بالموقف ضمن جدول أعماله إلى أن تصل إليه أنباء رسمية من الحكومتين الإيرانية والسوفيتية بتمام الجلاء. وأغلب الظن أن الدورة الرابعة ستشهد مثل ما شهدته الثالثة: كل متشبت بنظريته، وكل راض بمواقفه.

أما الموقف الأسباني وهو الذي نشأ عما تقدمت به بولندا من اندراج «علاء» الفرنسي» — الذي تحكم به أسبانيا الآن — مهدداً للسلم والأمن الدولي، بحيث ينبغي أن تتخذ قبله الإجراءات المنصوص عليها في ميثاق الأمم المتحدة من قطع العلاقات وتوقيع العقوبات الاقتصادية، ثم الالتجاء إلى وسائل العنف

فرعية للدرس وتقديم التقرير . . .
وكانت اللائحة الداخلية هي آخر ما عرض
له المجلس فنظرها وأقرها في وقت قصير ،
وقد كان في حاجة تصوى إليها ، إذ عمل طوال
الدورات الثلاث الأولى دونها فكان عمل
الرؤساء تقيلاً إذ كان عليهم أن يشكروا
الحلول من تلقاء أنفسهم ،

وقد تميزت تلك الدورة الثالثة بأن ألقى
رئيسها — وكان هو مندوب مصر الدائم
حافظ عفيفي باشا — خطاباً ختامياً على غير
المادة المتبعة . والعادة المتبعة هي أن يشكر
أحد الأعضاء الرئيس الذي تنتهي دورته ، فيرد
الرئيس بكلمات قليلة عامة ويسلم الرئيس الجديد
زمام المجلس . وقد تقدم المندوب البريتاني
يشكر الرئيس لمناسبة انتهاء دورة رئاسته ،
لكن عفيفي باشا بدل أن يقتصر على مجرد
الشكر وعموم التعبير ألقى خطاباً سجل فيه
الشعور بخيبة الأمل ، إذ تتطاحن الدول الكبيرة
بعضها مع بعضها الآخر ، وإذ لا تزال تتنافس
في سبيل السيطرة دون عناية بمبدأ المساواة مع
الدول الصغيرة ، وإن كان قد رجا آخر الأمر
ألا يأس الناس يأساً ، فالمجلس لا يزال مبتدئاً ،
والمبادئ التي قامت الحرب العالمية الثانية من
أجل تحقيقها قد تعود من جديد إلى الإيمان ...

إذا اقتضتها الحال . وقد تقلب مجلس الأمن
في دورته المنقضية على صعوبة هذا الموقف
الأسباني بأن أحاله إلى لجنة دراسة وتحقيق
قدمت إليها الأسانيد والمذكرات التي أخذت
تكشف عن اتصالات وثيقة طوال الحرب
العالمية الثانية بين فرانكو وهتلر وبين
الإدارة الأسبانية والسياسة الألمانية . لكن
نتيجة تلك الدراسة وذلك التحقيق لم تبلغ
بعد إلى هيئة المجلس ، وسيكون أمرها محل
نظرة بلا ريب خلال الدورة الرابعة التي بدأت
منذ يومين .

وكان جدول الأعمال متضماً كذلك مسألة
قبول أعضاء جدد في هيئة الأمم المتحدة ،
وكانت ألبانيا بالذات محل طلب من طلبات
القبول . ودخول ألبانيا بحجبه روسيا ، وتأتي
فيه — إن لم تعارضه معارضة — بريطانيا
المظني ، إذ لا ترضى عنه اليونان « الحالية »
وثيقة الصلة بها . وقد أملت أستراليا اعتراضاً
شكياً إذ رأت أن طلبات الانضمام يجب أن
تعرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة قبل
أن تعرض على مجلس الأمن . لكن مجلس
الأمن قرر بإجماع العشرة الأعضاء — غير
أستراليا — أن الأمر من اختصاصه ،
ولكنه أحل طلب ألبانيا بالذات إلى لجنة

مؤتمر وزراء الخارجية

الائتالية والحدود النموية ، هي أهم ما يتصل
بشؤون تلك المعاهدة .

فلما جاء دور المستمرات ، وبدأ الحديث
لمناسبتها بطرابلس الغرب — برقة وطرابلس
وخران — تقدمت روسيا باقتراح منحها
الوصاية على طرابلس مقابل منح إنجلترا
وأmericا الوصاية على برقة ، ومع استعادها
لأن يكون إيتالي وكيلًا لحاكم طرابلس

وعقد مؤتمر وزراء الخارجية للولايات
للمتحدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتي
وفرنسا في قصر لوكسمبور ببرلين في
الحامس والعشرين من شهر أبريل وتتابعت
اجتماعاته ثلاثة أسابيع سوياً .

وكانت « المعاهدة الايتالية » هي أول المسائل
الواردة في جدول أعماله ، وكانت مشاكل
للمستمرات والتعويضات وتريستا والحدود

نهرية السياسة الدولية

نهضتها الاقتصادية التي تربدها لها أميركا وبريتانيا العظمى .

وكانت مسألة الحدود بين إيطاليا وفرنسا هي التي أصاب حلها التوفيق دون عناء ، فأدخلت بعض المناطق الإيطالية ذات الصبغة الفرنسية الواضحة من حيث اللغة ومن حيث الميول الشعبية في الأراضي الفرنسية ، وكذلك بعض المناطق التي تصحح مواقع فرنسا الاستراتيجية .

وظلت مسائل الزور والادارة الألمانية ومساهمات النمسا والمجر ورومانيا وبلغاريا دون عرض وبالتالي دون حل إلى أن يعود المؤتمر إلى الانعقاد في الخامس عشر من شهر يونيو . لكن النمسا وإيطاليا قد دعيتا لا يباد مندوبين عنهما للتقدم بوجهات نظرهما فيما يختص بالحدود بينهما إلى وكلاء وزراء الخارجية الذين يعملون هذه الأسابيع .

على أن أمراً جلياً بالنسبة لإيطاليا قد تم وهو تعديل شروط الهدنة القاسية إلى ما هو أقل قسوة وأكثر فحاً لميادين النشاط والعمل خلال فترة الانتقال من الوضع غير العادي الذي نشأ عن الاستسلام إلى الوضع العادي الذي يثار توقيع المعاهدة في مؤتمر الصلح الذي لم يحدد بعد مواعده .

السوقية . فتقدمت بريطانيا العظمى باقتراح إعلان استقلال « طرابلس الغرب » دولة موحدة تضم طرابلس وبرقة . ولم يكن في الواقع هذا الاقتراح البرتي إلا اقتراحاً « مسرحياً » إذ لم تمنح على إداعته ساعات حتى طاء مستر بيثن وزير الخارجية البريطانية يستمسك بالوصاية على برقة ، ثم يقول إن إنجلترا وعدت السنوسيين بعدم عودة الايتاليين إلى بلادهم بحال ، ثم راح يجمع بين برقة وطرابلس في السنوسية والوعد بعدم الاعادة إلى إيطاليا . ولم يمس المؤتمر في هذا الصدد إلى حل وأرجع الموضوع إلى مجلس وكلاء وزراء الخارجية يدرسون من جديد ويتقدمون في شأله بمقترحات جديدة .

وكذلك كان الحال بالنسبة لتركيا التي تستمسك روسيا بعضها إلى يوجوسلافيا ، وتستمسك أميركا بعضها إلى إيطاليا . ويلوح في الأفق انجاء جعلها ميناء حراً لإيطاليا ويوجوسلافيا وأوروبا الوسطى جميعاً .

أما التوضيحات فقد أبدت روسيا تساهلاً بالنسبة لما كانت تطالب به نصيباً لها واكتفت بثلاثمائة مليون من الدولارات ستدفع إليها من قيمة ما صدره الولايات المتحدة لإيطاليا من الاعانات ، حتى لا تثقل كاهلها تتحول دون

تقرير فلسطين

الصهيونية على بلادهم وإخراجهم من ديارهم .

وقد كان لإداعة ذلك التقرير اسوأ الأمر في البلاد العربية جميعاً ، فقامت حكوماتها وهيئاتها محتج وتغريب إعلاناً عن استنكارها ورفضها ، وتوج ذلك كله باجتماع لرؤسا الدول العربية بتلوة انقاد دورة استثنائية خاصة لمجلس جامعة هذه الدول .

اما تقرير لجنة التحقيق الاميركية البريطانية من فلسطين فلم يرش أحداً رغم صدوره باجماع الآراء . وهو لم يحقق للصهيونية حلم الدولة اليهودية من ناحية ، وهو لم يدع مجالاً لآمل عند العرب من ناحية ثانية ، إذ اوصى بفتح باب الهجرة ورفع القيود عن نظام بيع الأراضي ، وهما الرسيلتان اللتان يألم منهما العرب ويتبرونهما أداة استقلال.

أذربيجان

وتبقى مسألة أذربيجان ، وقد بلغت من التطور أن دارت لناسبتها مباحثات بين رئيس الوزارة الإيرانية وزعيم الحركة الأذربيجانية ورئيس حكومتها الفعلية قصد الوصول إلى حل يوفق بين الأوضاع الدستورية الإيرانية والمطالب القومية لأهل تلك المنطقة ، وهي — على حد ما عبر عنه الزعيم الأذربيجاني نفسه — غير انفصالية ، إذ تترف بالبقاء في نطاق الدولة الإيرانية الكبرى على أن تحظى بالاستقلال الذاتي متميزة

بلفتها في مدارسها وفي جيشها وفي إدارتها . وأغلب الظن أن الأمور متجهة إلى التطلب على الصموبات والتفاهم ، زغم ما يقينه «الرجعيون» في نظر رئيس الوزارة الإيرانية من عقبات ، وهم يذهبون في إقامة هذه العقبات إلى حد الاستماعة بسفارات بعض الدول الأجنبية في طهران ، في حين أن قوام السلطنة يريد أن يعادل بين موقف إيران من المحترا وأمريكا والاتحاد السوفيتي دون أن يكون لدولة أجنبية أي تدخل في شؤون بلاده .

نعمد عزمي

شهرية المسرح

أول بحثي تأليف سليمان نجيب بك

قبل رفع الستار ، لأن التأخير يطلق الجمهور والمثليين .

وجاء الفصل الثاني متقنا تمام الاقتان ، فالحوار الذي تمتع مطبوع بروح الفكاهة والمرح .

وربما ، الفصل الثاني كان لا بد أن تنتهي المسرحية ، إذ يقادر إلينا منه أن الزوجة المطلقة لا بد عائدة إلى زوجها مادامت تستحب لدعواته إلى المشاء والذهاب إلى السينما . ولكن المؤلف أضاف فعلاً ثالثاً ليس له شأن في حوادث المسرحية مطلقاً بل يعتبر إطالة لا تستاغ .

وقد لاحظنا أن المثليين والمثليات دائميون على الاستهتار بجمهورهم ، فلم يكن أحدهم قد استذكر دوره ، فزاد ذلك الحوار تفككاً . لقد كانت تنفق بين السؤال وجوابه دقيقة يتمكن فيها الممثل من الاستماع إلى الملقن ، فليعلم أعضاء الفرقة المصرية أن الجمهور المصري غير مشغوف بصوت الملقن ، وأنه لا يذهب إلى المسرح ليستمع إلى الملقن بل ليستمع إلى المثليين أنفسهم . فعلى هؤلاء المثليين التزموا نحو هذا الجمهور ، والاستهتار بهذه الالتزامات معناه الاستهتار بالفن نفسه .

فالمثلون هنا يقترفون خطيئة مضاعفة نحو الفن والجمهور . وهذه الخطيئة المضاعفة لا تؤدي إلا إلى انهيار المسرح المصري انهياراً لن تقوم له بعده قائمة .

ولا أجد مناصاً من الشاء على اثنين من المثليين هما فاخر فاخر ، والسيدة إحسان شريف ، فكلما قام بدوره غير قيام فلا تكف

وسليمان نجيب بك في غنى عن تقديمه للجمهور المصري الذي عرفه منذ زمن بعيد ممثلاً ومؤلفاً . وما هو ذا الآن يقدم لنا على مسرح دار الأوبرا الملكية مسرحية بالفسة العامة من تأليف أسماها « أول بحثي » . ولا أرى مسوغاً لالتجاء المؤلف إلى اللغة العامة في هذه المسرحية ، فانها لم تساعده مطلقاً على إقناع الحوار اللهم إلا في الفصل الثاني ، ولم تساعده على صيغ هذا الحوار بالفكاهة الحلوة أو النكات المستحبة . وقد ذهب المؤلف أحياناً إلى استعمال ألفاظ كثر نود ألا نسمعها على مسرح دار الأوبرا الملكية ومن الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى .

و« أول بحثي » مسرحية في ثلاثة فصول ، تزجى إلينا قصة رجل طلق امرأته بعد أن أنجب منها ولدين — أحدهما متزوج — ليتزوج هو أيضاً من امرأة لموب لم يرق له العيش معها ، فأراد الطلاق منها ، ولكنها خلقت له مصاعب عدة لم تنقذه منها إلا زوجته الأولى . ولست أرى في القصة شيئاً من الطرافة ، إذ أننا رأينا هذا الموضوع أو ما يشابهه في كثير من الأفلام الأمريكية حتى مللناه .

وحوار الفصل الأول منكك لا تربطه أية صلة . فالأشخاص يتنقلون من موضوع إلى آخر دون أن يدفعهم إلى ذلك أي دافع . ولم يكن هذا التنوع في الحديث من مستلزمات القصة ، ولكنه نتيجة ضعف التأليف . من ذلك هذا الدرس الذي يلقيه الابن الأكبر على امرأته من وجوب الحضور إلى المسارح

في تمثيله ولا تصنع على الإطلاق . أما الآخرون فمنهم من كان لا يمثل مطلقاً مثل سراج منير ، ومنهم من أثار سخفتنا بصوته الذي تنفر منه الأذان مثل زينب صدقي ، ومنهم من لازم أسلوباً تمثيلاً لا يقبله ادوار لمعالاته في التكلف مثل فؤاد شفيق .

مرضى لأم

شهرية السينما

زوار المساء (انتاج جاك هايك) (١)

وفصل بين العاشقين بأن تسبب في سحر الفتى ولكلها واصل الحب والنداء حتى في السجن . والفتاة بائسة لأن عشيقها حرم الحرية والنور ؛ فيستغل الشيطان بؤسها لينتزع منها الهدى بأن تكون له إذا ما أطلق الحرية للفتى وأنساه عشيقته ، فاهدته على ذلك . ويخرج الفتى من سجنه وقد نسي قتاته ، ولكن شيئاً خفياً يدفعه إليها ، وهو لا يدري له كنهها . وما تكاد الفتاة تلحق به حتى يعرف أنه يحبها . لقد أخفق الشيطان للمرة الثانية في فصل العاشقين وإخماد جذوة الحب في قلوبهما . وبينما هما متعانقان يحاول للمرة الأخيرة أن يخمدا هذه الجذوة فيحولهما إلى تمثالين من حجر . ولكن ما هذا الصوت الذي يسمعه ؟ يقترب منهما فتبين أنه دقات قلوبهما . وقد أتى المخرج بأسلوب جديد في إخراج الرواية يلائم صفتها الخيالية تمام الملاءمة . عند ابتداء الشريط تكون الشاشة سوداء إلا ركناً صغيراً منها على هيئة دائرة تأخذ في الكبر شيئاً فشيئاً حتى تملأ الشاشة . وهذه النقطة المضيئة ما هي إلا فارسات متجان

تتفرد الآن الأفلام الفرنسية بتقديم آيات فنية رائعة ، فيها من الابتكار والتجديد ما يبهرها المكانة الأولى في عالم التمثيل . وليس الابتكار والتجديد في أسلوب القصة حسب بل في الإخراج والتصوير أيضاً . وقلم « زوار المساء » هو البرهان القاطع على هذا التقدم الهائل الذي يحمل لواء الفن السينمائي الفرنسي ، مما جعل الأفلام الأمريكية تبدو الآن قليلة الشأن ركيكة الأسلوب ، متخاذلة باهتة .

و « زوار المساء » يجذب المرء بقوة تعبيرها وتفرد . فالفكرة في القصة بسيطة جداً ، وهي أن الحب أقوى من كل شيء . هو قوة لا تقهر مهما كان السلاح الذي يحارب به . فتاة أحب فتى ما هو إلا رسول الشيطان إلى الأرض ؛ وقد قطع على نفسه عهداً ألا يقع في شرك الحب . ولكن الحب كان أقوى من عهده ؛ فأحب الفتاة وأولع بها حتى نسي عهده ونسى المهمة التي من أجلها أوفده الشيطان إلى الأرض . ولكن هذا الكلف الشديد أغضب الشيطان ، فغض بنفسه إلى الأرض

النظارة . ولم تؤد حقه من الثناء إن لم تتكلم
عن المنظر الختامى حينما يحول الشيطان الماشقين
إلى تماثيل من حجر ، فيسمع دقات قلوبهم
ويحس حنونه ، ويأخذ في الصبح : « إن قلوبهم
يخفق ... يخفق ... يخفق » . ويكرر
كلمة يخفق على وزن دقات أصعب . وهذا يدل
على براعة فنية فائقة في التمثيل .
ومدام ماري ديا والممثل الجديد الآن كوني
أهل لثناء أيضاً . فقد وفقاً كل التوفيق في
أداء دورى الماشقين اللذين انتصرا بحبهما
على الألعيب الشيطان .

وقصارى الكلام أن هذا الفيلم قد جاء به
فنية رائدة موفقة قصة وإخراجاً وتمثيلاً .
ولا عجب في ذلك فإن فرنسا هي مبعث الفن
والذوق المترف في العالم بأسره . ونود لو أن
الاتاج السينمائي الفرنسي يلازم دائماً هذا
الأسلوب الرفيع .

نحو قصر من قصور المصور الوسطى . وقد
رافنا أينما وقف الحركة في المنظر الذي أراد
فيه رسول الشيطان أن يستأثر بالفتاة التي
حبها ، فوقت رميلته الحياة في القصر . وقد
كانت هناك مأدبة والمدعوون يرقصون على
أنغام الموسيقى ، فترى الراقصين قد ثبتوا جثاة
بيناهم يتحركون والموسيقى تقف فجأة كأن
أسطوانة مسجلة وقفت وهي تدور . وأخيراً
نذكر منظر المباراة الذي يظهره الشيطان على
سطح جدول ماء فيبدو كأنه صور متحركة
على شاشة دار للعرض .

وقد قام مسيو جول يري بدور الشيطان ،
فأدومنا برشاقته أولاً ، لأن مسيو جول يري
رجل مسن ، وما كنا لتصور أنه يستطيع
أن يأتي بهذه الحركات الرشيق ، وهذا
التلاعب في نبرات صوته ، وهذه النظرات
والضحكات الشيطانية التي كثيراً ما ارتعد لها

لص غابة شروود (كولومبيا) (١)

الشخصية الخرافية التي تمثل روح الشعب
الانجليزى وطموحه إلى الحرية وتمسكه
بحقوقه . فينسحب اللورد إلى غابات شروود
ويستدعى ابنه وهو شاب شجاع ماهر في شؤون
الحرب ، فهو فارس رشيق ورام حاذق ،
وفي هذه الغابات يدبرون حملة على الوصى
لرد العرش إلى الملك الطفل وإيقاظه من
معروحات الوصى الشريرة . وتتجهج المؤامرة
فعلا ويصل ابن روبن هود إلى دخول القصر
ويأرذ الوصى ويقتله ويرد إلى الملك عرشه .
والقصة لا تخلو من مقارعات غرامية .
فوصيفة الملك تكلف كلفاً شديداً بهذا
الشاب الباسل المحلل لوطنه ولملكه . وينتهي

من الميث أن يحاول مشاهد هذا الفيلم
أن يبحث عن حقيقة تاريخية في حوادثه أو
أن يتحدث العصر الذي تجري فيه هذه
الحوادث . فالخرج حرص كل الحرص على أن
يخفى اسم الملك أو الوصى ما استطاع إلى ذلك
سبيلا ، وحرص أيضاً على ألا يذكر تاريخاً
ما يفسر له ذلك . وكل ما أدلى به من حقائق
هو أن الفيلم يجري في غابة شروود في عصر
وصى طاغية اغتصب الملك من ملك ما زال
طفلاً ، وعبت بالدستور الانجليزى المجناكرات
مباجل اللورد منتجدون بشور هو وأعوانه
على هذا النظام الاستبدادى . واللورد
منتجدون ما هو إلا روبن هود ، تلك

الفيلم بأن يأمر الملك العاشقين بالزواج .
والفيلم بالألوان الطبيعية ، وتجرى حوادثه
في الغابات . فكان من المتيسر على المخرج
أن يستغل هذه الناحية ليقدم لنا صورا
جميلة فنية ، ولكنه أهمل هذه الناحية إهمالا
تاماً ، ولم يوجه اهتمامه إلا إلى الحوادث
دون الديكور ، فأهمل تصوير المناظر
الطبيعية على حين صرف عنايته إلى تصوير
المبارزات وعدو الفرسان في الغابات ودهاء
المنيرين على قصر الملك ، وما شابه ذلك من
أعمال البباله .
ولا يمكن الكلام عن التمثيل في هذا

الفيلم . فقد آثر المخرج أن يختار شابا وسيم
الطلعة ، قوى البنية يتقن ركوب الخيل
والمبارزة والفرز ، واختار فتاة جميلة
لا مميزات لها إلا قتلها فقط .
وقصارى الكلام أن هذا الفيلم إنتاج
رخيص لم يكلف أى عناء أو مشقة في اختيار
الحوادث أو في الإخراج أو في التمثيل . فالسينما
الأمريكية أنتجت مئات من الأفلام المماثلة .
فما على المخرج إلا أن يسلك الطريق التي
سلكها من قبله كثير من المخرجين . والقصة
نافعة تفيد في ركافة حوادث قصة روين هود
أو غيرها من قصص البطولة والمغامرات .

مشرى لأمل

من كتب الشرق والغرب

وحدة العالم وحرية الشعوب

في مختلف الأمم الخليفة والمحايدة . فطاف
باجتي عشرة مملكة ، وزار طائفة من الحكام
والقواد . ثم عاد إلى وطنه وتوفر على
تأليف كتاب يضم مشاهداته وملاحظاته
ومخاوفه وآماله وآراءه واقتراحاته لتوطيد
سلم دائم يقوم على دعائم راسخة تقي الانسانية
وبال حرب عالمية ثالثة قد لا تبقى ولا تذر
تأمل المستر ويلكي طويلا في مشاكل الدول
المختلفة ، وأمن في نفس الأسباب التي تؤدي
عادة إلى اندلاع نار الحروب منذ العصور
القاهرة ، فتبين له أن طبيعة الانسان واحدة
وغرائزه واحدة وأطباعه واحدة في جميع
نواح المعمورة رغم البعد المسافات واختلاف
الأمزجة والامواء ، وتباين طبيعة الاصناع
والانكسار ، كما بدا له وهو يحلق راسيا على
مقن طائرته . أن بلاد الله واسعة الأرجاء ،
ولكنها متصلة انصبت بعضها قرب من
بعض ، لا يفصل بينها إلا طمع الانسان
وبغضاؤه ، وأن العالم الذي نعيش فيه عالم
واحد تقطنه شعوب مختلفة ولكنها كأعضاء
حس واحد إن سقم عضو منه تأثرت بها
السقم بقية الأعضاء . لذلك خلع المستر ويلكي
على كتابه عنواناً جليلاً « عالم واحد »
One World وما كاد ينشر هذا الكتاب
في عام ١٩٤٣ حتى نهالت عليه جمهور سار
من القراء في جميع أنحاء الأرض ، وقد نقل
إلى بعض اللغات الأجنبية منها الفرنسية ، ويقت
منه ملايين النسخ في الولايات المتحدة الأمريكية
نظراً لمكانة واضعه وثاقب فكره ، وخطورة

الف الروائي الفرنسي جول فرن قصة في
أوائل القرن التاسع عشر وسماها « الطواف
حول العالم في ثمانين يوماً » . واعتقد المسكين
أنه روى إحدى الأساطير المجيبة . وأخذ
قراؤه هذه القصة مأخذ الحرافة التي تدعو
للره عند المطالعة إلى ترك الاعنة للخيال
المحسب يسبح في عالم الأوهام . ونرى اليوم
أن جول فرن أخطأ في التقدير وأن أوهام
بني زمنه أضحت دون الحقيقة بمراحل ، إذ قام
المستر ونديل ويلكي في شهر أغسطس من
سنة ١٩٤٢ برحلة سياسية حول العالم استغرقت
خمين يوماً تقى منها ثلاثين يوماً على الأرض
والباقي في أجواز الفضاء .

أما ونديل ويلكي فهو أحد الشخصيات
الأمريكية المعروفة في محيط السياسة ، وقد
كان رئيساً للحزب الجمهوري في أمريكا وتقدم
لانتخابات رئاسة الجمهورية في عام ١٩٤٠
فخلفه فيها للمستر فرانكلين روزفلت . على أن
هذا الأخير كان يطمش إلى كفاية خصمه
ويقدر مواهبه ، ولذا وكل إليه مهمة سياسية
دقيقة في ظروف خطيرة جد الخطورة ، إذ
كانت أمريكا وقتئذ مشتركة في الحرب وكانت
انتصارات اليابان تتوالى بلا انقطاع بسرعة
قائمة لاسيا بعد كارثة « بيرل هاربور » كما
أن زحف الألمان في أوروبا وأفريقية كانت
يثير بشر مستطير .

فادار المستر ويلكي أمريكا مزوداً بأرشادات
الرئيس روزفلت قاصداً تقي حقيقة الأحوال
بتصاله الشخصي برجال الحرب وقادة الشعوب

الأقل . وقد عاب المستر ويلكى على مصر عدم وجود طبقة متوسطة فيها إذ لم ير سوى أقلية مفرطة في الثراء وأغلبية مفرطة في فقر مدقع .

ثم ذكر أن ما راعه في بلاد الشرق الأوسط التي مر بها تهاوت الناس على سؤاله : « هل تنوى أمريكا الدفاع عن نظام يجعل سيادة البلاد الشرقية خاضعة لرقابة دول أجنبية دون أى سبب اللهم إلا أنها تكبت بوقوعها في تقط استراتيجية على مفترق الطرق الحرية والتجارية الهامة ؟ » وعلق المستر ويلكى كتابه على هذا السؤال قائلاً : إنه يرى لزوماً عليه من الوجهة المثالية الاعتراف بأن هذا النظام لا يستقيم مع المبادئ التي تدافع عنها أمريكا في الحرب ، وأنه كلما أمنت الدول في تقرير هذه المبادئ زادت حالة التوتر والهيّاج التي تهدد هذا النظام .

ثم قادر وحالتنا الشرق الأوسط وعم شطر تركيا ، فراحه فيها تقدمها الاجتماعي والعلمي في فترة وجيزة لا تعدو العشرين عاماً . وأعجب بقوة الشعب التركي وعزمه على الوقوف موقف الحياد التام من الصراع الدامي الذي أنهك الدول الأوروبية ، ولكنه أظهر جهلاً تاماً بعلوم الجغرافيا حين ذكر أن عدد سكان تركيا ستون مليون نسمة .

وقد أفرد ونديل ويلكى لروسيا السوفيتية ستين صفحة من كتابه ولذا لم نتحدث عنها في شيء من الأفاضة .

بدأ المؤلف وصفه بقوله إنه لم يمكث في روسيا إلا خمسة عشر يوماً ، وإنه لم تتأت له فرصة زيارتها من قبل ، ولكنه قرأ عنها كثيراً ، وسمع عنها أخباراً كثيرة متناقضة كل التناقض متباعدة كل التباعد . ولذا سره أن يرى بعين رأسه بعض الحقائق عن هذا البلد العجيب الذي جعل العالم بأسره في حيرة من أمره ، وزاد سروره عندما علم أن الحكومة

للسائل التي تناولها بالبحث والتنقيب ، ورجاحة الحلول التي وفق لها بعد التحجيس والتنقيب . وما يبعث على الأسف حقاً أن للنبة لم تهمل المستر ويلكى طويلاً بعد وضعه كتابه إذ توفي في العام التالي - ١٩٤٤ - فلم يقدر له أن يحيا ليلس بنفسه ما سوف تحققه الأيام من آماله وأحلامه التي كشفها في كتابه بشأن عالم الغد . ولعل الله أن يكون قد أراد به خيراً .

والآن أعرض بعض مشاهدات المستر ويلكى عرضاً موجزاً ، وأبدأ بالقول إنه لم يوفق في كل ما عن له من ملاحظات ، ولم ينبج في بعض الأحيان من الزلل ؛ إذ قد سرد بعض وقائع خاطئة ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أنه لم يطل للقاء في كل بلد حل به .

استهل ونديل ويلكى رحلته بمصر ، فاقبل ببعض الشخصيات العظيمة والمحدث . مع أولى الأسر من المصريين وزار بعض رجالات الانجليز والأمريكيين بين قائده ووزير مفوض . ولا نهنا أحاديث الخاصة أكثر مما ذكره عن الشعب المصري وعن حالة البلاد الاجتماعية والصحية والثقافية كما بدت له ؛ إذ لم يخف عليه سوء الحالة الصحية في مصر وتنشئ الأمراض فيها تنشئاً خطيراً بين بلهارزيا وبراكوما ، ولم تخف عليه حالة الفقر وما يحجره في أذيله من جهل ومرض ودعة وتمسك بأساليب عتيقة في الترية والزراعة والصناعة يرجع بعضه إلى سوء توزيع الثروة العقارية وبضه الآخر إلى الاستعمار وشعور الشعب أنه ليس سيّداً في بلده . ولكن المستر ويلكى أخطأ بلا شك حين ذكر أن ليس عند دولة مرسدة وضعية يمكن لمصرى أن يخرج بها عدا مدرسة للبنات تديرها سيّدة تركية لتعليم البنات . ولعل مرشده لم يقطن دعونه إلى زيارة جامعة فؤاد الأول على

السوفييتية منحه الحرية التامة في التجول أينما يشاء ورتب ما يشاء من أداء كمن سواه في ذلك المصانع الحربية . ومصانع النزل والمزب الزراعية والمدارس والمستشفيات والمكاتب ، وخطوط القتال ، كما أتيح له أن يستمر في صراحة دعة عن أية صخرة تثير دعوته ، وأن يلقى ما يروقه من الأسته لمراقبيه .

وقد أطلال المتر ويلكى الحديث عن شجاعة الجندي الروسي وبسالته وحسن بلائه في فنون الحرب الحديثة ، كما أشاد بأخلاص الشعب وتقائه في الدفاع عن وطنه رجالا ونساء وأطفالا ، وأظهر إعجابه بالمال الروس الذين يشتغلون في المصانع الحربية والمدنية لإعداد الأسلحة والأغذية والملابس اللازمة لتزويد الجنود بكل ما يحتاجون إليه في صراعهم الجبار مع العدو . ونوه بفضل هؤلاء العمال الذين دأبوا على عملهم لا يهابون لأخطار الفارات ولا يكلون ولا يملون ، كما نوه بفضلهم في نقل بعض المصانع من أسسها بكامل عددها وآلاتها من مدينة إلى أخرى كلما أرغى الألمان في غزوهم ، ومنها ما نقل مسافة تزيد عن ١٦٠٠ كيلومتر .

وقد دار بينه وبين شباب يائه بنغل مركز مدير الإنتاج في أحد مصانع معدات حوار طريق مفيد . سمع لأنه يلقى ضوءاً على النظام الاجتماعي في روسيا السوفييتية وطرق المعيشة في هذا البلد الذي ظل العالم في جهل تام عما يحدث فيه أحوالاً طويلاً . بأذره للمتر ويلكى بالسؤال الآتي :

— ما النسبة بين أجرك بصفتك مديراً لاتاج هذا المصنع وأجر العامل العادي ؟
— أجرى عشرة أمثال أجر العامل .
— كنت أظن أن الشيوعية معناها المساواة في الأجور ؟
— ليست المساواة ضمن المبادئ

— لعلك تدخر جزءاً من إيراداتك الضخم ؟
— نعم . أنت روحاني عن الاسراف .
— وكيف تنفق بما تدخره من المال ؟
— أبتعت منزلاً جميلاً بجو من رصيدي .
— ومدا تصمم أجزء الدقي ؟
— اشتريت أيضاً منزلاً بسيطاً في الريف أقضى فيه مع أسرتي أيام العطلة .
— وماذا تفعل بما يبق لك من المال بعد ذلك ؟

— أشترى به سندات الحكومة وهي سندات لا تعطى حاملها ربحاً أو فائدة .
— ولماذا لا تستغل تقودك في أوراق مالية تأتي لك بفوائد رابحة ؟

— انقصد يا متر ويلكى أن استغل رأس المال ؟ إن هذا محال في روسيا ، وعلى كل فهو عمل يناق مبادئ .
— إذن ما الذي يحفزك إلى العمل بهذا الحد ؟

— إنني أشرف على هذا المصنع ، ولدي يوم من الأيام سوف أصبح رئيساً له . أترى هذه النباشين ؟ إنني فخور بها لأن الحكومة منحتني إياها لجودة إنتاجي وربما يكافئني الحزب في يوم ما بامتداد منصب حكومي رفيع .
— ومن يمولك في شيخوختك ؟
— إنني أعول على ما ادخرته من المال وإلا فالحكومة سوف تمويني .

— ألا تمنى ان تسبى لابنائك بداة
غيراً من بداةك في الحياة ؟ ألا ترغب في
إبعاد شبح الموت عن زوجتك إذا ما توفيت
نيلها ؟

— هذه أفكار رأسمالية يا مستر ويلكى
إنى بدأت حياتى طاملاً ، وسوف يبدأ أولادى
حياتهم مثلى . أما زوجتى ففى عمل وسوف
تدأب على العمل ما مهدت لها سمحتها ذلك
أما إذا عجزت عن العمل فالحكومة تهولها .
وهنا وجه إليه المستر ويلكى سؤالاً طاملاً
ردده الدول الغربية لتثبت أن نظام
السوق لا يمنع الفرد حرية القول والفكر :
— افرض جدلاً أنك تخالف نظريات
الدولة السياسية أو الاجتماعية فهل لك سبيل
لإبداء آرائك والدفاع عنها ؟

فتدب أنكر الروسى إمكان حصول مثل
هذا العرس وهز كتبه ولم يحب الرد
السز ويلكى :

— أستعصى من موقفك أنك لا تتمتع
بأية حرية !

هنا اختد الشاب وأجاب فوراً :

— أنت عاجز عن الفهم يا مستر ويلكى .
... تمت بحرية لم يرها والداى طوال حياتهما
... فلاحين استعبدتما الأرض فلم ينالا
... نسط من التعليم ، وإذا مرضا لم يجدا من
... برهما . أنا أول شخص من سلالة
أجدادى المريقة صنعت له فرصة التعليم
والتقدم والعمل لانجاز فكرة وهذا ما أسمى
الحرية . قد لا يعنى هذا الحرية في نظرك ،
ولكن لا تنس أن نظامنا يجتاز مرحلة
التطور وسوف يحظى في يوم ما بالحرية
السياسية أيضاً .

والآن أعود إلى رحلة ونبدل ويلكى
لأروى زيارته لأحدى «العزب الاجتماعية» .
لقد تغير نظام الزراعة في روبيب إذ صارت
الأراضى الزراعية مسكاً لدولة أما هذه العزب

فعلى رأس كل منها مدير ، ولكل عزبة أحد
في أن تستأجر من مخازن الحكومة مآلات
ارراعية حديثة وجميع أنواع المعدات
الميكانيكية اللازمة لفلاحة الأرض فلاحه علمية
على أن تدفع قيمة الايجار للحكومة بتسليمها
حصه من المحصول ، وأما باقى المحصول فيوزع
على أعضاء العزبة كل حسب أيام عمله . ولكل
فلاح الحق في أن يستبدل بتصيبه من المحصول
أية سلعة يريد ما من متجر قريب من العزبة ،
كما له الحق في بيع نصيبه إن أراد ، إلا أن
الحكومة تشجع الفلاحين على أن يكون البيع
لها مباشرة . وقد لاحظ المستر ويلكى أن
لدى الفلاحين وصيداً من المال غير قليل وأن
الفساد لديهم وفير ، فخطر له أن يسأل
بعضهم أيتمنون امتلاك قطعة أرض لأنفسهم ؟
فلم يفتخوا لسؤاله معنى وأجابوه أن أجدادهم
لم يملكوا أرضاً في حياتهم .

ثم ختم ونبدل ويلكى جولته في روسيا
بعقابة المارشال ستالين ، فألفاه رجلاً
بسيطاً هادئاً الطبع شديد المراس لا يأبه
إلا للحقائق ولا يسبح في الخيال والأوهام ،
منافياً بكل تفاصيل القتال وبكل ما يحدث
في روسيا وفي العالم الخارجى . وقد
قال له ستالين ذات مرة في ساحة مؤثرة :
« يا مستر ويلكى إنى نشأت نشأة فلاح في
مقاطعة جيورجيا ولا أعرف الكلام المنسق ،
وغاية ما أستطيع أن أؤكدك لك هو أنى أميل
إليك كثيراً » . ثم قابل الضيف الأمريكى
رهطاً من رجال روسيا المسئولين ، ذكر منهم
مولوتوف ووزير الخارجية وفيتشكى
ولوزوفسكى مدير قسم الأخبار والمارشال
فوروشيلوف ووزير الدفاع الأسبق والسيدة
ميكويان ووزيرة التموين ورقيقة إدارة العلاقات
الاقتصادية بين روسيا والبلاد الأجنبية ، وقد
ألفاهم جميعاً رجالاً مثقفين ملينين بالمشاكل
الدولية إلى ما تماماً ، ولا يشبهون البتة لاشكلا

مورافوف حاكم البلدان اثنين في المائة فقط من سكان هذه الجمهورية كان لهم إلمام بسيط بالقراءة والكتابة قبل عام ١٩١٧ وأما الآن فقد انكسرت هذه النسبة تماماً . ثم أردف مبشراً : « إنى تلقيت أوامر من موسكو تنص على » تصفية « هذه البقية الباقية من الجهلة وهى اثنان في المئة » . ثم طاف المستر ويلكى بدار السينما وهى دار مشيدة بالأمنيت المسلح على أحدث طراز . كما طاف بدار مركز الحزب الشيوعى بهذه المدينة فأهدى إعجابه ببنائها ونظامها حتى لقد حدثه رفيقه الروسى متباهياً : « لا يفرب عن بالك يا مستر ويلكى أن هذه الجمهورية أنشئت فى عام ١٩٢٢ بعد أن أخذت الثورة ، واليوم أصبحت ميزانية هذه الجمهورية ثمانين ضعفاً لما كانت عليه فى عام ١٩٢٢ ويشعر بهذا البون العظيم جميع السكان بتعليمهم ومعدتهم . كانت مقاطعة ياكوتسك فيما مضى بقعة يئس على جميع خرائط العالم ، وأما اليوم فإن مناجم الذهب فيها بلغت لوفرة إنتاجها ثأواً عظيماً وضمها فى المرتبة الثالثة من مناجم روسيا التى تنتج معادن غير الحديد . وقد عثر المستكشفون فى أرض هذه الجمهورية على ثروات معدنية جديدة ، منها الفضة والتحاس والرصاص ، كما وجدوا فيها آباراً للبتروى . ولم يفت المستر ويلكى أن يشير إلى أهمية الدور الذى سوف تلعبه روسيا فى السياسة الدولية بعد الحرب ، فألح فى التعاون معها كى يستقر السلم . وأظهر إعجابه بتلك الدولة الفتية المتوتبة متوها بنجاحها الباهر فى إقامة نظام رائع للصحة العامة جعل من الروس قوماً أصحاء أعداء يعدون فى طليعة الأمم فى هذا المضمار ، فضلاً عن انتشار التعليم . انتشاراً عم جميع طبقات الشعب بلا تمييز . أن كان يشغبط فى ظلام الجهل الخالك حيناً عدة . وقد أشاد المستر ويلكى كذلك بحب الروس لوطنهم وتغاتهم فى الذود عنه والتضحية

ولا لفة ذلك المظهر النسيج الذى يصوره الرسامون الهزليون للبلاشفة . غادر وندل ويلكى روسيا الاوربية واستقل طائرته قاصداً أصقاع سيبيريا — روسيا الاسيوية — المترامية الأطراف التى يقطبها الجليد فى أكثر شهور السنة لزيارة إحدى مقاطعاتها وهى جمهورية «ياكوتسك» الاشتراكية المستقلة الداخلة ضمن اتحاد الجمهوريات السوفيتية . أما هذه المقاطعة فيقطعنها قوم يتحدرون من المغول فروا إليها أيام غزو جنكيز خان . وكان معظمهم فى الزمن السالف يتعيش من صيد الفراء والبحث عن مناجم الذهب ، لا يسكنون إلا أكواخاً من الطين تشاركهم فيها بهائمهم ، وكانت الجماعات والابوثة تفكك بهم فسكاً ذريعاً حتى انقضوا تدريجياً أو كادوا . ولجمهورية ياكوتسك فى عهد القيصرية شهرة بالزهرى والسل والفراء ولذا جعلوها مأوى للمجرمين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة والسجناء المتدين لجرائم سياسية .

قدم الضيف الأمريكى عاصمة تلك المقاطعة على متن طائرته ، فألفاها مدينة جميلة استوتوه لفرابتها ، فسأل رفيقه رئيس مجلس قوميسيرى الشعب : هل بالمدينة مكتبة عامة ؟ فقادته إلى مكتبة نظيفة واسعة الأرجاء مضأة بالكهرباء تحوى خمسمائة وخمسين ألف مجلد على حين لا يربى عدد سكان المدينة على الخمسين ألفاً . وقد دلت إحصائيات المكتبة على أن عدد مرئادها خلال التسعة الشهور الأخيرة نيف ومائة ألف شخص جاء بعضهم من المدن الريفية المجاورة . ثم استفهم الزائر عن الملامى بهذه المدينة ، فدعاه رفيقه الروسى إلى مشاهدة مسرحية غنائية واقصة من نوع الأوبرا على مسرح فخم كامل المعدات ، فأعجب الضيف بالرقص والفناء إعجاباً عظيماً . وسأل مرة أخرى عن نصيب الشعب من التعليم فى هذه الجمهورية النائية فأجابه الرفيق

نعمهم في سبيل توطيد أركانه وإعلاء شأنه .
 ثم حديثه عن رحلته قائلا إن روسيا أصبحت
 اليوم أمة غنية قوية يجب أن يقام لها وزن
 في عالم المستقبل . وشهد أنه رغم عدم
 ميله إلى النظام الشيوعي لا يسهل إلا الاقرار
 بأن هناك أشياء كثيرة في روسيا تستحق
 الإعجاب ، ولذا فهو يبحث الشعب الأمريكي على
 التقرب من الشعب الروسي لأدراك عقليته إذ
 يرى أن أمريكا وروسيا في الوقت الحاضر
 قوتان جبارتان لا تدانتهما في قوتها دولة
 ثالثة ، قوتان إن اتحدتا تمخض العالم عن سلم
 ثابت راسخ ، وإن تنازعتا تردى العالم في
 كارثة فاجمة .

تأريخياً أجوف لا طائل تحته .
 والآن أعود إلى الكلام عن الأهداف
 التي يتوخاها وندل ويلكي في الحرب العالمية
 الثانية والتي يأمل أن يحققها حتى لا تكون
 الملايين من ضحاياها قد فاضت أرواحهم عبثاً .
 أما هذه الأهداف فيمكن تلخيصها في كلمة
 واحدة موجزة وهي « الحرية » . ومن
 الحقائق المرة المؤلمة أن شعوب العالم تتشوق
 منذ الأزل بهذه الكلمة البسيطة الخلاقة .
 والجميع يتحدث عنها ، ولكن بعضهم يتحدث
 عنها ليسلها ، وبعضهم الآخر ليستردها بقوة
 السلاح إن لم يكن من ذلك مقر ، إذ لم
 يسجل التاريخ على قدمه أن دولة غاصبة أهدت
 إلى شعب منصوب حريته على « طبق من الفضة »
 كما يقول الفرييون ليتناولها لقمة صائفة
 عذبة المذاق .

وقد جاء على لسان المستر ويلكي قول
 أرى أن أنقله لما فيه من سخرية . ولعل تلك
 السخرية حقيقة واقعة فيكون الأمر أدهى
 وأمر : « إنى لا أزال أخشى أن أرى هذه
 الحرب تدنو من نهايتها قبل أن تستبين
 الشعوب الأسباب التي دعتها إلى القتال

عندما أفاق العالم من ذهول الحرب العالمية
 الأولى ظن المتفائلون أنها آخر حرب يشهدها
 البشر فأغرقوا في خيالهم الخادع ، ولم يمل
 أحدهم شيئاً نافماً للآفة وقوع كارثة أخرى .
 واتضح لذوى البصيرة النافذة من المفكرين
 أن الحرب الأولى كانت نزاعاً بين دول
 مستعمرة لم تعد منها لاسبانية فتيلة ، وهي
 حرب تحمل في نواياها أي مبدأ جديد من
 مبدأ لدوى السامية التي تتمحور عنها اندلية
 التي تدعى الأمم إلى التقدم المعكرو والتحرر
 من الأوضاع القبيحة البالية التي لا تتشبع مع
 تطور الأذهان ، كالاستعمار والاستغلال
 الاقتصادي ، وهما صورتان يشقان من صور

النظام الاستعماري ، وسواء رافنا هذا الكلام أو لم يرقنا ، فهذه هي الحقيقة التي لا مرء فيها .

وليت المستر ويلكي استرسل في دفاعه من الحرية إلى النهاية الطبيعية التي يقودنا إليها للنظر السليم ، فيجزم بشدة أن الدول المستعمرة خديق بها أن تجلو عن البلاد التي تحتلها حيوسها على الفور أو يعد أن تضع الحرب أوزارها مباشرة . ولكنه وقف في منتصف الطريق المؤدي إلى الحرية الحقة — وكان ، ندم على اندفاعه في هذا التيار الحامي الجارف — وعرض حلاً لوضع حد للاستعمار لا يشيع ولا يقنع ، إذ اقترح أن تندمج الدولة المحتلة مع الدولة المستعمرة اندماج الماء بالراح أي اندماج بريطانيا العظمى مع البلاد المكونة لها بسببه الانجليز كومونولث . ولعله يخشى أن تخرج الأمم المحتلة لجأ من ظلام الاستعمار الموحش إلى نور الحرية الساطع فتبهر أنظارها أو يملوها غشاء يحجبها تفل وتنكب سواء السبل ، فلهذا استصوب أن تسندها الدولة المستعمرة لئلا تنمر في حبوها وهي حديثة عهد بالاستقلال فتزل قدمها وتهوى إلى الحضيض . ومن الغريب أن المستر وندل ويلكي لم يلفظ كلمة « الاستقلال » وإنما كل ما جادت به ريقه السمعة لم يمد لفظ « الحكم الذاتي » . وهناك ، على ما هو معلوم ، دول تتمتع بالحكم الذاتي دون أن تنقسم العرى بينها وبين الدولة الراعية — أو الدولة الوصية كما يبدل الآن في لغة هيئة الأمم المتحدة — أنصافاً كاملاً . وما أيقض إلى النفس من أنصاف الحلول !

بعد أن فرغ المستر ويلكي من التحدث عن الاستثمار الخارجي وبجافاته المثل العليا التي يأمل أن تحتقها الحرب حتى لا يكتب لها الاخفاق كما بقاتها ، تناول موضوع الاستثمار

والآمال التي تعتمدها على الفترة التي تمثب الحرب . « هذا ما يخشاه المستر ويلكي . وأما ما لا أخشى التصريح به فهو أن هذه الحرب الأخيرة إن هي إلا حرب استعمارية كما بقتها أقادت منها الدول المستعمرة كل الافادة ، ولم تتم منها الشعوب المهسومة أي غنة إلا محاق بها من خسائر مادية فضلاً عن خسائر الأرواح في سبب لاجوال . وإلا فما الذي غنمته الهند مثلاً من إقعامها في هذه الحرب رغم أنفها ؟

لقد أبرز وندل ويلكي هذه الحقائق سافرة ، وأثنى على الحريات الأربع أو الخمس وعلى ميثاق الاططنطي وعلى كل العهود التي قطعتها على نفسها الدول الخليفة إبان للسمعة ، وحذر تلك الدول من العواقب الوخيمة التي تمحق بالعالم إن هي نكثت وعودها ، وقال تلك المجلة الرائعة « إن الحرية كلمة لا تتجرأ » . وذكر حديثاً أدلى به إليه أحد أرباب المقول الراجحة في الصين بصدد حبوط المفاوضات التي أجرتها انجلترا مع الهند أثناء الحرب فوطلة لثمنها نوعاً من الحكم الذاتي — تلك للمفاوضات التي قام بها وزير التجارة الحالي في بريطانيا العظمى السير ستافورد كرييس ، قال هذا الصيني للمستر ويلكي : « يوم أجبت مطالب الهند الشرعية للحصول على الحرية لم تهو انجلترا وحدها في عيون شعوب الشرق الأقصى ، وإنما هوت معها الولايات المتحدة أيضاً » .

ثم تناول الكاتب الأمريكي الحديث عن طموح شعوب الأرض قاطبة لثبل حقها الشرعي في الحرية والاستقلال قائلاً : « لقد أدرك العالم أن سيطرة شعب على شئون شعب آخر ليس هو الحرية ولا هو ما ينبغي الدفاع عنه بقوة السلاح . ففي أفريقية وفي الشرق الأوسط وفي كل العالم العربي وفي الصين وفي سائر بلدان الشرق الأقصى الحرية معناها إلغاء

كل الفم في كفة والغرم في الكفة الأخرى من
الليزان . ويقترح للستر ويملك في هذا الصدد
إلغاء الحواجز الجمركية التي تشل التجارة
الدولية أو تموق ازدهارها الطبيعي .

على أن هناك نوعاً من الاستثمار الداخلي
لم يشر إليه الكاتب ، ألا وهو استثمار بعض
طبقات الشعب للطبقات الأخرى أو استثمار
الطبقة المالكة للطبقة العاملة استثماراً قاصداً .
كما أنه لم يتناول موضوع تحرير الفرد من
العوز والجهل والمرض والبطالة ، وهو الأمر
المعروف باسم « الحريات الأربع » . ولعل مرد
تجنب المؤلف هذه النقطة الشائكة ماجاء على
لسانه في سياق حديث آخر : أنه لا يعيل إلى
المبادئ الشيوعية أو الاشتراكية . ولا غرامة
في ذلك إذ هو أحد الأمراء المدودين في
أمريكا ، وأمريكا حصن منيع للرأسمالية
للتطرفة .

وخلاصة القول أن وحدة العالم توحى إلى
المرء التضامن والارتباط الوثيق . وبلاد
الأرض فاطبة تصبو إلى الحرية التامة بعد
أن أهدرت هذه الكلمة لفظاً ومعنى أجيالا
طوالا . والحرية إما أن تمنح للجميع أو تمنع
عن الجميع ، إذ أصبحت الحياة لا تطاق في عالم
أقله سادة وأكثره عبيد . فإن حققت الحرب
هذه الأمانى التي تجيش بها الصدور ، ردد
الناس قوله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا
وهو خير لكم » ، وإلا فلي الأرض الغناء .

فؤاد وصفي أبو الدهب

الداخلي أو الاستثمار الداخلي احدى لا تخلو
منه دولة من الدول الرأسمالية ، وله تواج
متنوعة ، منها ما هو خاص بأمريكا كشكلة
الزوج فيها ومعاملة الأمريكيين لهم معاملة
شاذة قاسية لا مسوغ لها إلا اختلاف لون
البشرة ، ومنها ما هو عام يشمل الدول كافة .
وقد قال المؤلف في سياق الحديث عن هذا
النوع من الاستثمار أو الاستثمار : « ندأونا
بأهدافنا التي نرى إليها من وراء هذه الحرب
كشع لنا القناع عن ظلماتنا . عندما نتحدث
عن الحرية وتسكافؤ الفرم لجميع الأمم تطهر
ننا مفارقات مجتمعتنا المضحكة ظهوراً جلياً
لا نستطيع معه سترها أو تجماعها . إذا أردنا
أن نتحدث عن الحرية يجب علينا أن ندرك
هذا اللفظ على صحته ، وهو أن لنفردنا أن يتمتع
بالحرية كما يتمتع نحن بها سواء . فالحرية يجب
أن تمنح للجميع داخل حدوده وخارجها .

فمنصون مثلاً حقوق الأقليات التي لا غنى
كثرة عنها ، إذ تعد الحافز القوي الذي يدفع
عناصر كل أمة إلى المنافسة والابتكار في
شئ للميادين . »

وهناك حرية لا تقل شأناً عن الحرية
السياسية ، وهي حرية الدولة الاقتصادية ،
فلكل دولة الحق كاملاً في توجيه اقتصادها
الوجه الذي تراه ملائماً لمصالحها دون التقيد
بشروط أو اتفاقات اقتصادية تعلى عليها ودون
ربط عملها قسراً بملة أجنبية بحيث يصبح

من وراء البحار

روسيا وسياستها الخارجية

وهو الطريق الذي سلكته فرنسا مرة وألمانيا مرتين ، وتمثل له روسيا الآن . لقد تمكنت روسيا بفضل شجاعتها من جهة ، وبفضل بعد نظرها ووحدة غرضها من جهة أخرى ، وبفضل الكوارث السياسية التي حلت بالإنجلترا أثناء الحرب ، من أن تكون العامل الأساسي في طبيعة السلم ، ولا تزال كذلك ، فهي الوحيدة بين الدول الكبرى المنتصرة التي حصلت على ما هو أكثر من هزيمة العدو المشترك ، فهي تهاجم الأعداء والخلفاء والمحايدين - الأعداء بالقوة الحربية وقد وصلت في أقل من خمس سنوات إلى فتوح من أكبر ما عرف في التاريخ ، ولكن هذه الفتوح في بدايتها ولا تنتهي حتى تكبر .

لروسيا السيادة على أوروبا ، وحتى تحقق وحدة نفوذها في آسيا ، وحتى تبلغ من القوة مبلغاً تتدخل به في أمور العالم بأسره .

ولقد أرادت الحكومة الإنجليزية أن تنهي الحرب عن طريق الشرق ، ولكن روسيا عارضت وأبت إلا أن يهجم الإنجليز من الغرب ، وبهذه الطريقة تمكنت من أن تفرض سلطانها على شبه جزيرة البلقان ماعدا اليونان ، وهدماً أيضاً لا تزال مهددة . وفي طهران كبت روسيا السلم ، وخسرت بريطانيا . ولقد صارت إحدى عشرة دولة خاضعة لروسيا ، وهن فنلندا وأستونيا ولاتفيا وليتوانيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا والمجر ويوغوسلافيا وألبانيا وبلغاريا . ولقد استطاعت روسيا أن تدمر أراضي كبيرة من ألمانيا ، وبلغت من لف

بيتهم مسير قويحت في مقالاته التي نشرها بمجلة « القرن التاسع عشر وما بعده » يتتبع سياسة روسيا الخارجية وما تنطوي عليه من أخطار نحو الامبراطورية البريطانية . ولقد ظل طوال سني الحرب يكتب في حماسة في ذلك الموضوع حتى أثار عاصفة من النقد في بعض الصحف قبلت عليه ، وأدى ذلك إلى قضية قذف شغل بها الناس منذ سنتين .

وهو الآن يباود الكتابة في سياسة روسيا . ففي العدد الأخير من تلك المجلة (عدد أبريل سنة ١٩٤٦) عاد يشرح خطر هذه السياسة على إنجلترا ، فهو يقول : إن إنجلترا حاربت نابليون دافعاً عن سلامتها ، وقد قال وليم بت رئيس الوزارة في ذلك العهد إن إنجلترا تحارب « مذهباً مسلحاً » . ولكن الواقع أن إنجلترا لا تحارب من أجل المثل العليا ، وإنما تقصد السلامة ، ولو ضمنت سلامتها قبل التقلب على نابليون لما ترددت في مصالحتها . ولقد ضمنت السلامة بعد التقلب عليه مدة قرن كامل . وفي سنة ١٩١٤ دخلت إنجلترا الحرب من أجل السلامة أيضاً . وفي سنة ١٩١٩ تدخلت في الحرب الروسية الأهلية وقيل إنها فعلت ذلك من أجل المبادئ ، ولكن الحقيقة أنها تدخلت إذ كانت تحسب اتفاق روسيا وألمانيا حين يداها أن ألمانيا ستقلب شيوعية .

ومما لا ريب فيه أن هناك طريقين لضمان السلام : أولهما توازن القوى ، وهو الطريق الذي تسلكه إنجلترا ، وثانيهما تفوق القوى

دكتاتورية من أى نوع . وكذلك الثورة على الحكم البريطانى لم تنجح ، لأن الطبقة الحاكمة البريطانية أظهرت مرونة لم تكن متوقعة ، ومع ذلك ظل ستالين حتى سنة ١٩٢٥ يداعبه هذا الأمل .

لقد كان ستالين مخطئاً فى أنه ظن وقوع هذا الحادث فى سنوات قليلة . ولكن هل يكون مخطئاً لو توقع حدوثه فى عشرين سنة عند ما تصبح روسيا قوية بحيث يكون لها أصعب فى تسيير الأمور ؟

لقد حاولت بولندا فى سنة ١٩٢٠ أن تقضى على خطر الروس ، وكان من الطبيعي أنها لا تنجح . والآن قد عاد إليها الروس فاتحين ، وفرضوا عليها الثورة ، وروسيا عازمة الآن على ألا تقف بولندا فى سبيل أغراضها فى أوروبا ، ولن تسمح روسيا لبولندا بقطرة من الاستقلال الحقيقى . ويمكن لروسيا الآن أن تسيّر فى الطريق الذى لم تنجح فيه من قبل وهو التحالف الثورى بين روسيا وألمانيا . وهى تستطيع أن تفرض إرادتها فى شرق ألمانيا وأواسطها ، ولكنها الآن لا تستطيع أن تفرض هذه الإرادة فى غرب ألمانيا ، لذلك نراها تتأدى بالوحدة الوطنية الألمانية ، لأنها تريد أن تجعل من ألمانيا تابعة . وهذا التحالف الذى تسمى إليه روسيا ، ويفرض على أوروبا الثورة ، يهدد الامبراطورية البريطانية بالزوال .

فى النفس أنها تستطيع من هذا البلد أن تكون لها الكلمة العليا فى مستقبل أوروبا .

لقد حققت روسيا أحلامها داخل بلادها كما حققتها فى الخارج ، ونحن نعلم أن الكثيرين من أبنائها ، منهم دستويشكى الكاتب الشهير ، كانوا ينادون بالتحاد الشعوب اللاتينية تحت زعامة روسيا ، ولقد أدت السياسة الحالية إلى تحقيق هذا الحلم . وليس الغرض الذى نرى إليه روسيا هو تحقيق السلام ، ولا هو غرض أدبى كما يفهم فى غرب أوروبا . وإنما قوة هذا الغرض ناشئة عن الحيوية الكبيرة فى الروس ، وما ينطوون عليه من ذكريات تاريخية . فروسيا فى عهد القيصرية فى ميولها الاستعمارية واعتقادها بأنها متقدمة البشر ، وروسيا لينين التى تمتد فى الثورة العالمية ، يتلاقان الآن تحت ستالين فى صعيد واحد .

لقد كانت الثورة الروسية بعد انتصارها فى أكتوبر سنة ١٩١٧ تقاوم كل نوع من الاستعمار ، بما فيه الاستعمار الروسى به . قد كان القائمون بها يعتقدون اعتقاداً قاطعاً بأن الثورة لا تلبث أن تشتمل العالم بأسره ، وكانوا يراقبون فى اهتمام أمرين : الثورة الألمانية ، والثورة على الحكم البريطانى فى آسيا . وانتظر لينين فى هذه نجاح الثورة فى ألمانيا ، ومعنى ذلك حدوث انقلاب شيوعى فى سائر أنحاء أوروبا . ولكن الثورة لم تنجح لأن العمال الألمان كانوا لا يرغبون فى

الحياة فى برلين

أحسنا حورا وسعت عليها نوحات يصب ، تد على ألب مؤقنة . ولكن القطار يمر فى منطقة روسية وحيث يتغير منظر هذه اللوحات إذ كانت اللوحات الروسية مليئة بالعلامات التى تنتهى بعلامات التعجب ، وهى تحمل على

فى العدد الأخير من مجلة «هورايزن» الإنجليزية (عدد مارس) رسالة كتبها كلاريسا ترشل تصف فيها الحياة فى برلين ، فقد كانت قادمة إليها من وستفاليا حيث منطقة الاحتلال الإنجليزية . وكان القطار يقطع

بمعلومات في السوق السوداء . حذر في رابعة النهار كما في برلين . فذلك حال تدعى على منتهى الناس . هناك ترى جماعات المتعاملين واقفة في الساحة الخضراء التي كانت تيرجاردن فيها مضي ، يطل عليهم ذلك الأثر الذي أقامه الروس ليخلدوا ذكرى انتصارهم على برلين وأقاموا فوقه تمثالا من البرنز يمثل بطلا من رجال الجيش الأحمر ، لهذه الكتل البشرية لا بد إذا ما أويح الضغط عليها أن توجه نشاطها بعد اليأس ، إلى أن تملك أقرب طريق لحياء ألمانيا كأمة من الأمم .

وبين هذه الحرائب نجد حياة ثقافية يحاول أن تقف على قدميها ويساعدها الحلفاء . فقد قامت فرق الممثلين وجوقات الأوركسترا . تعمل بعد أن ظهرت من العناصر النازية ، يساعدها المحتلون . فقد عمل الروس على مثل أوبرا «أورفيوس» للموسيقار جلوك في الحريف الماضي بم عهد أوبرا الدولة . مثلت الأوبرا الروسية «أوجين» أو «نجين» ومثلت كذلك أوبرا «ريجنوليتو» .

وفي مسرح دويتش مثلت رواية «ناثان الحكيم» ، وقام الممثل بول فيجنر بالدور الرئيسي ، ومثلت كذلك رواية «فاوست» . وتمثل فرقة الفلهارمونيك الشهيرة . تحت قيادة موسيقار رومانو شاب اسمه سليبيدك إذ أن رئيسها ليوبوخرارت الذي خلف فورتنجلر أصيب خطأ برصاصة من حارس قضا عليه . ولقد أقيمت عدة معارض في التصوير والنحت ولكن لم يظهر فيها ما يلفت النظر شوع خاص .

وفي كل منطقة من المناطق المحتلة عدد من الصحف والمجلات ، منها ثلاثة تبنى بالأمور الأدبية أولها «ديراوث باو» التي تصدر في المنطقة الروسية تحت رقابة الميجر شليجلوف الكاتب المسرحي الروسي ، وهي حرة الآراء وتدل آراؤها على نظر بعيد في مشاكل ألمانيا

القالب النداءات المألوفة لدى حكومة السوفييت وقد وضمت حولها رايات حمراء عدة .

والمقادم إلى برلين من الضواحي قد يتجدد في منظرها ، فلا تزال البيوت قائمة ، يدل منظرها الخارجي على أنها سليمة ، ولكنها في الحقيقة ليست إلا مجرد قشور مجوفة من الداخل ، أما وسط المدينة فهو أشبه ، يكون بمنطقة جوية أخرى ، فكانت جيل عال لا تعيش فيه الأحياء ، وبقل فيه الزرع حتى ينعدم .

ولقد اتخذت اللجنتان البريطانية والأمريكية مقر لها ، ولحاهما في المنازل السليمة بالضواحي . ويسمح لأصحاب المنزل من الألمان بأن يقيموا في الدور الأرضي إذا كانوا من المعروفين بعنائهم للنازيين ، أما غير هؤلاء فيطردون طردا . وكلما زادت أعمال اللجنتين وزاد عدد الموظفين فيهما زاد عدد الألمان الذين يطردون من منازلهم فينضمون إلى الآلاف من الألمان الذين لا يجدون مأوى إلا في المنازل المحطمة وتحت سلال البيوت أو في الحرائب .

ومن المشاكل الكبيرة لدى الألمان في برلين أمر التدفئة . لذلك تجددهم يدورون في الغابات المحيطة بالمدينة ليحصلوا على شيء من الوقود . ولقد أتى الألمان على الأشجار في تيرجاردن ، حتى لم يبق من هذه الحديقة المنظمة غير التماثيل التي أنشئت تحيط بها الأشجار ، وهي الآن قائمة وسط ميدان كبير من الطين . ويحاول كل ساكن في برلين لديه شيء من القوة أن يحصل على عمل في تنظيف المدينة ، قال ذلك يضمن له بعض القوت .

ولقد نشأت في كثير من بلدان أوروبا السوق السوداء حيث يحصل فيها الناس على ما لا يستطيعون الحصول عليه من طعام ، ولكنها تكون عادة مستخفية ، أما أن يظهر

الماضرة والمستقبل من الوجهة الثقافية .
والثانية نيواوتليسي وهي تصدر في اسطنة
البريطانية . أما الثالثة فتصدر في المنطقة
الأمريكية .
وليس هناك حياة ثقافية بالمعنى المعروف
إذ أن تبادل الآراء غير قائم . وقد ابعد جميع

رجال الادب والفن ذوى النزعة النازية ،
وتتشدد بعض سلطات الاحتلال في ذلك
مثل الأمريكان مثلاً إذ يقتلون كل من
يظنون فيه ميلاً للنازية ، ويهددون إليه
بأعمال يدوية مهما يكن من مواهبه الفنية
والادبية .

موكب النصر في لندن

تكلم ريتشارد جنينجز في ملاحظاته
الطريفة بمجلة « القرن التاسع عشر » عن
العرض العسكري الذي يقام احتفالاً بذكرى
النصر في لندن ، فقال : لقد حذرنا بأنه لا يأتي
العصف حتى يكون ملايين من الرجال والنساء
والاطفال الذين لا شك في براءتهم في مجاعة
محبات واسعة من أواسط وشرق أوروبا ،
ونحن نعلم أنه حتى الآن لا توجد أمة أوروبية
لم تسلم من الخوف وخيبة الأمل الذي يجتمع
تلك الخيبة شادة التي نسيها الحرب الاجماعية .
فلايين من الناس بلا مأوى ، وأولئك الذين
نحووا من وبال الغزو يعيشون كمنقط صغيرة
من الثبات النسبي في محيط من الفوضى هو
في احتياج إلى جهود هائل ليعود إليه شيء من
النظام . ففي كل مكان نرى الكراهية
والاوتياب . وقد تزيد صعوبات انجلترا نفسها
وقد يزيد ما هي فيه من حرمان . فهل من

المستطاع وهل من المتصور أنه في مثل هذا
المازق الذي يقف فيه العالم يوافق شخص
ذو تفكير أو شعور إنساني أو يصفق لمرض
النصر المقترح الذي سيحدث في وقت يقام فيه
عيد القديسين الذي هو من أجل وأهدأ
أعياد الكنيسة ؟ وهل يرضى عن ذلك رجال
الدين ؟ وما رأى الناس ؟ ولماذا لا تأخذ الرأي
بطريقة جلوب لكي تتحقق من الرأي العام ؟
نقد احتج بعض أعضاء البرلمان على الضغط
الذي ينشأ بسبب هذا العرض على النقل وإدارة
الآمن وحال الطعام . ولا شك أن وجود عدد
هائل من الناس في مدينة كبيرة قد يسبب
كوارث كثيرة كالتي حدثت في حادثة بولطن
منذ شهرين . الواقع أنه من الواجب أن يقضي
هذا العيد في التفكير والصلاة من أجل السلم ،
لا أن يقضى في عرض جدير بأن يطلق عليه
— على طريقة القرون الوسطى — رقصة الموت .

باريس تستعد للصيف

ينتظر في هذا الصيف كما تقول الأنباء
الفرنسية أن تعرض خمسمائة من صور كبار
المصورين الفرنسيين من القرون الوسطى إلى
القرن التاسع عشر ، ويقام هذا المعرض في
القصر الصغير ، وذلك بمناسبة مؤتمر الصلح

الذي يقام في قصر لوكسمبرج . وسنبذل
السلطات كل ما تستطيع كي تتخذ باريس
مظهرها قبل الحرب ، وتكون الفنون عنصرأ
أساسياً في هذه النهضة .
وتتترك المتاحف الباريسية في شرف عرض

الصغير على نوعين : تلك التي تمثل الفن النحيل
تمثل الاربع والعشرين والقدسين وتلك التي
تمثل الفن الطريف كصور الآلهات ونبات
الغاب .

هناك لآلهة سيخوي على صور كلوي
وشاردان وداقيد و... إلى دي لاكروا .
وكوريه ، والقسم الثاني سيخوي على صور
ساحرة من فونتبلي وصور لليزيد وليبران
ويأتي إلى قانو وفراحم ناور .

زهرة مجموعاتها الوطنية . وسيكون متحف
اللوثر بطبيعة الحال هو المركز . ونجمع
مجموعات القماش المصور النادر في متحف الفن
الحديث ، وتعرض في متحف الأورامري
الصور التي مررها الألمان ثم أعيدت إلى
فرنسا . وفي متحف جي دي يوم تعرض
صور المدرسة الفرنسية من عصر أصحاب مذهب
اللمحة .
وستكون الصور التي تعرض في القصر

ظهر حديثاً

أرميه المسمى تأليف أنطوان دي سانت إكسوپرى ترجمة مصطفى كامل فوده
(دار الكاتب المصرى)

يملكون على خطوط الطيران ، فينقلون الناس
والانتقال كل ليلة من قطر قريب إلى قطر
بعيد ، فى قصة معيشتهم وانقطاعهم إلى علمهم ،
وارتباطهم بالمواعيد ارتباطاً أشبه بالأسر ،
وركوبهم متن الجو ، حيث لا مساومة فى
الخطأ ، فأقل خطأ يرتكبه الطيار معناه
القضاء والعدم ، أو الأبدية إن شئت لذلك
اسم آخر .

وهى قصة الآلة التى اخترعها الانسان فى
سلفه غير مكنته بأن يسيطر على جوانب
الأرض التى جعلت له ولغيره من المخلوقات ،
وأن يتغذى إلى أقصى جوانب المعمورة ، حتى لم
يكدر يترك السبيل لهذه المخلوقات لتعيش فى
أى جهة من الجهات إلا إذا ذلت له من
قيادتها ، ونزلت عن حريتها ، وغير مكنته
بأن يركب متن البحار حتى صار الآلاف من
بني البشر يعيشون فوق ظهر البحر لا يكادون
يعرفون اليابسة ، وحتى كاد الانسان يسخر
أجواء السماء لأوامره ، فهو الآن يريد السيطرة
على طبقات الجو . وقد ذهب فى ذلك شوطاً
بيداً فى السنوات الأخيرة .

ولكن قصة «أرض البشر» وكنت أفضل
تسميتها «أرض الرجال» أى الرجال المتأزنين
بالصلابة والقوة ، وهى أحب صفات الرجولة ،
إنما هى قصة أولئك المفكرين الأوائل الذين
كانوا يطربون فى آلات لم تبلغ بعد ما بلغت آلات
الطيران الحالية من الاتقان . فالإنسان فى
هذه المرحلة لا يكون قد سيطر على وسائله

عند ما أخذ أنطوان دي سانت إكسوپرى
ينشر قصصه ، واتخذ حياة الطيار ، والطائرة ،
وعيشة العاملين فى الطائرة موضوعاً لهذه
القصص ، انتقل بفن الطيران إلى عالم الأدب .
والواقع أنه من الصعب خلق أدب يدور حول
المخترعات الميكانيكية ، فالأدب كالفن يقو
أولاً على الشاعر والمواظف ثم يقوم على
المؤثرات الطبيعية التى تحيط بنا وتصل بمحيطاتنا
اتصالاً لا يمكن تجاهله ، والعوامل الطبيعية
هى جزء من القدورات التى لا مبدى للانسان
عنها ، ولا يستطيع أن يتجاهلها فى حياته ،
لذلك كان تأثيرها شديداً ، وهو أشد فى
الازمنة الأقل حضارة . ولذلك كان الأدب
الذى نشأ فى تلك الازمنة شديد الاتصال
بالطبيعة ، وهو فى الازمنة الأخيرة ، بعد أن
سيطر الانسان على العالم الطبيعى أقل اتصالاً
بالطبيعة ، ولكن الطبيعة خلقت فى كل وقت
أدياً ، أو كان لها فيه أثر .

أما الآلات فلم تخلق أدياً ، أو يصعب
أن تخلق أدياً . على أن سانت إكسوپرى
شعر «بأن الذى تحده مهبة وعمل فيه «مخرج
ول قصص بعد فى مصاف القطع الأدبية
عن الانسان وهو فى جو الطائرة ، حيث
يستشعر ذلك الهواء النقي الذى يرق كلما ارتفع
الانسان فى الجو .

دعى قصة «أرض البشر» التى نقلها الأستاذ
مصطفى كامل فوده البوس ، وأخرجته دار
الكاتب المصرى ؟ إنها قصة أولئك القوم الذين

وقد نشرتها دار الكتاب المصري في طيبة
لا تقل إتقاناً عن خير الطبقات الأوربية .
ولا ريب عندي في أن الدار ترمي إلى أن
يكون إخراج الكتاب العربي في مستوى
الكتب الأوربية . وإني لأرجو مخلصاً أن
تنافسها في ذلك دور النشر الأخرى ، فإن تلك
المنافسة تعود بالخير على الكتاب العربي ،
وتوجد فتناً جيلاً جديداً كان إلى وقت قريب
غير قائم .

كل السيطرة ، بل هو مسير إلى مجاهر ، باذل
نفسه في سبيل نفع الإنسانية ، أو ما يعتقد
أن فيه نفعاً .
ولقد وفق الأستاذ مصطفى كامل فوده في
نقل هذه القصة كل التوفيق ، واختيارها دليل على
سلامة الذوق ، إذ أنها تدخل إلى الأدب العربي
عنصرأ من أحدث ما ظهر في الأدب الأوربي
وهو أدب الطيران ، كما أنه نقلها في عبارة
جميلة وأنيقة فيها كل مزايا المؤلف ومميزاته .

الفتح ومزاهبه في الشعر العربي تأليف الدكتور شوقي ضيف (مكتبة النهضة المصرية)

فهو يقسم موضوعه إلى ثلاثة أقسام : مذهب
الصنعة ، ومذهب التصنيع ومذهب التصنع .
ثم يتتبع بوصف مذهب الصنعة ثم يطبقه على
النثر الجاهلي ثم النثر في الصدر الاسلامي ثم
النثر العباسي فيتناول زعماء النثر في كل من
هذه العصور واصفا حياتهم ، مبينا مميزات
نثرهم ، فيشكل عن عبد الحميد الكاتب وابن
القفق وسهل بن هرون والجاحظ .

ثم يعود إلى مذهب التصنيع فيصفه ويبين
أثره في الحياة العربية ودواوين الخلافة
المسيحية والامارات الدارسية . ويشكل عن ابن
المعدي وابن عباد وأبي إسحاق الصائبي ، ثم
يشكل عن الخوارزمي وبديع الزمان وقابوس
ابن وشيك .

ثم يأخذ في مذهب التصنع واصفاً حياة
أبي الصلاء ومؤلفاته والحريري وتقليداته
والحصكفي .

وفي قسم آخر يشكل عن مذاهب النثر في
بلدين إسلاميين لها شخصية قاعمة بذاتها وهما
الاندلس ومصر .

وإننا لنعقد أن هذا الكتاب جدير بأن
يجد مكاناً في مكتبة كل أديب أو مثقوب .

ليس عندي ريب في أن الدكتور شوقي
ضيف أسدى إلى القراء والادباء أيضاً ، يدا
بتأليفه هذا البحث الطريف بعد أن ألف كتابه
في « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ؛
فإن هذه البحوث ذات قيمة خاصة في هذه
الأيام التي تری نهضة في التأليف ليس لها مثل
في الأدب العربي منذ مئات السنين ، وهو
هذا البحث يذلل للقارئ المصري ، وللمؤلف
المصري دراسة النثر العربي في آياه مرات
الأعداد .

ولا ريب في أن الشعر العربي قد ظفر
بالعناية والبحث منذ قديم الزمن ، وبمض الكتب
التي وضعت في نقد الشعر في زمن ازدهار
الحضارة العربية ، لا يزال يقرأ حتى الآن ،
ولا يزال من السهل على الكاتب المعاصر
دراسة الآراء القديمة في الشعر . أما البحوث
في النثر فقليلة لا تفي ، وهي فوق ذلك عنيرة
على القارئ المعاصر ؛ لذلك كان كتاب
الدكتور شوقي ضيف هدية ثمينة للمكتبة
العربية .

وهو على ما فيه من بحوث وآراء جديدة
في عدة مواضع منه قد قدم وبوب خير تبويب ،

وكيف بود أن يكون إخراج الكتاب
أنفاً جديراً بأهمية موضوعه ، فإنه مما يؤسف
له أن أخرج في حجم كنه منيع بحيث لا سهل
جده لقراءته ، مع أن أكثر الناس يقتطعون

من أوقات غدوهم ورواحهم للعمل ، أو فائتاً
للقراءة ، فيستفيدون من هذه الأوقات .
وكان هذا الكتاب من أجدر الكتب بأن
يكون دائماً مع راغبيه في غدوهم ورواحهم .

الافكار تأليف ميخائيل نعيمة (مكتبة صادر بيروت)

عند ما ظهرت منذ عشرات السنين تلك
مجموعة من النظم التي سميت « شعراء العرب
في القرن العشرين » انجذبت أنظار العالم العربي
إلى ذلك الأدب الوليد الذي نشأ في بلاد
مغربية هي أمريكا بين نخبة من الشبان الذين
هاجروا من أرض لبنان في سبيل ابتغاء
الرزق ، فلم يثقلهم جهنم المادى عن الاتصال
الروحي ببيت وطنهم . ونفعت الحياة الجديدة
والآفاق الواسعة التي رأوها فيهم روحاً
جديدة كانت قصة حياة هبت على التقاليد
راسخة فأفنتها ، وما زالت تعمل على إيمانها .
وقد تلاحق في طليعة هؤلاء المجاهدين اسم
جبران خليل جبران ، وأقبل الشباب في أنظار
البلاد العربية ينهلون من أدبه . وثمة اسم آخر
من هذه النهضة الأدبية هو اسم ميخائيل
نعيمة الذي نشر وقتئذ كتابه « الغراب » وهو
مجموعة مقالات في النقد ولكنها كتبت بأسلوب
جديد وبروح جديدة ، وتناولت موضوعات
نثرية ما يكتب فيها كتاب الغرب ، فكانت نبراساً
لشباب العربي في تناول موضوعات النقد .

وهو اليوم ينشر قصة « اللقاء » وليست
هي الأولى بين ما تقرأ له من قصص ، فقد قرأنا
له « الآباء والأبناء » من قبل .
وهاتان القستان من كاتب في مقدرة
ميخائيل نعيمة لا يمكن إلا أن تكونتا جديرتين
بالقراءة . ولكننا نعتقد أن للمقام الأول لتفوق
الاستاذ ميخائيل نعيمة هو في النقد قبل أن
يكون في القصص . وإذا كان قد أحسن كل
الاحسان في كتابه عن « جبران خليل
جبران » فذلك لأن كتابة حياة شخص تتطلب
قوة في النقد أكثر مما تتطلب مقدرة في
الرواية .

ولسنا نريد أن نقول إن قصة « اللقاء »
خالية مما يجذب القارئ ، بحسبه أنه لا يستطيع
أن يتركها قبل إتمامها ، وإنما نريد أن نأخذ
عليها شيئاً من الاغراق في الخيال ، وقد
نأخذ عليها كذلك أنه ليس بين أشخاص القصة
من هو جدير بالحب أو بالمعطف من القارئ ،
حتى تلك الفتاة التي سحرت بالحنان كمنجى ولم
تقم من نومتها إلا إلى القبر .

الأرواح بقلم ميخائيل نعيمة (مكتبة صادر بيروت)

أما كتاب « الأرواح » فهو تحفة من تحف
الاستاذ ميخائيل نعيمة ، وهو مجموعة آراء له
في الأرواح التي يصدها العالم الحديث . فقد
تكلم عن المال والقوة والسلطان والرأى العام
والقومى والكلمة السوداء والعلل ، كل ذلك

في أسلوب طريف وآراء مبتكرة .
ونحب ألا نترك هذين الكتائين دون
أن ننوه بالجهود الطاهر في إتمام الطباعة
والتوب الجميل التي ظهرت فيه قصة « اللقاء »
بصفة خاصة وما فيها من صور جميلة مثقنة .

التاريخ الانجليزي تأليف ا. ل. رواس ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة (مكتبة النهضة)

رواس ، وهو الذي رأى الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة سداد تاريخ خدمة فؤاد الآداب ان يندله إلى اللغة العربية ، كما ذكر في مقدمته ، دينا لانجلترا عليه هو دعي تنقذه في جامعاتها .

فالكاتب إذن في توبه مرنى حيرمة مة لمعرفة لاناريخ إنجلترا ، وإعجا للمعات من هذا التاريخ الذي لا يمكن أن يستوعبه هذا الكتاب الصغير . ولعل مؤلفه بالغ في الاختصار ، أو لعل مؤلفه بالفرق محاولة إظهار وجوه مختلفة من نواحي التاريخ الإنجليزي وسميزات كل عصر من العصور المختلفة ، فأهل النواحي الأخرى . فتاريخ إنجلترا كما أشرف يمكن أن يدرس من وجهات كثيرة متعددة ، وتوجد في كل ناحية من هذه النواحي سلسلة غير منقطعة من الآثار والمستندات والوثائق تمتد إلى آلاف السنين . فقد تريد أن تدرس تجانس الشعوب التي تكون منها سكان الجزيرة واختلافاتها ، أو إنجلترا في القرون الوسطى وتأثير النظام الاقطاعي فيها ، أو استتباب الأنظمة الدستورية ، وتاريخ إنجلترا خير تاريخ يدرس من هذه الجهة ، أو توسع إنجلترا فيما وراء البحار ومحاولتها السيطرة على العالم ، أو تحولها الصناعي أو نمو الأدب والعلم فيها ، كل هذه الأمور جديرة بالدرس ، وفي تاريخ إنجلترا مجال متسع متواصل .

إذن نحن نرحب بنقل هذا الكتاب للغة العربية أسكب ترحيب وإن كان قطرة في محيط من الدراسات الشيقة المفيدة . وقد أسدى الأستاذ يدأ لقراء العربية بنقله ، بقدر ما أوفى بدينه . ولا ريب في أن أثبت الذي وضه تلميذه الأستاذ أحمد عيسى للرجوع إلى مواضع

قد تكون العناية بالاطلاع على تاريخ إنجلترا بين جموز القارئ في بلاد الشرق أقل من العناية بتاريخ أمم كبيرة أخرى مثل فرنسا . وربما كان لدى القراء بعض العذر ، ففرنسا دولة تعيش قريبة من الدول الشرقية وعلى شواطئ بحر واحد ، وفرنسا تحتل قسمها من أمر أقسام القارة الأوروبية ، وفي تاريخها حادث واحد كان له رجة طلية ولا يزال دويه يتردد في أنحاء المعمورة ويؤثر في الأجيال المتعاقبة من بني البشر ، هذا الحادث هو الثورة الفرنسية . ولقد تدخلت فرنسا في حياة الشرق في الأزمان الحديثة تدخل كبيراً وأصاب الشرق منها خير قليل وشر كثير . على أننا لو أمعنا النظر قليلاً لوجدنا أن إنجلترا أكثر تدخلًا في أمور الشرق والمسلم ، وشرها في العالم أكبر ، فكان تاريخها جديراً بالعناية والدرس .

والواقع أن تاريخ إنجلترا ، إذا كان لتاريخ قيمة ، حافل بسلسلة غير منقطعة من الحوادث ، يستطيع منها الباحث أن يقف على معلومات في الاتجاه الذي يبحث فيه يصعب أن يعثر على مثلها في تاريخ الأمم الأخرى . ولعل تكييف تاريخها نائي من مركزها الطبيعي كجزيرة منفصلة قد تستطيع أن تتلقى تأثير الدول الأوروبية الأخرى إذا رغبنا في ذلك وأن تؤثر في دول القارة الأوروبية إذا ما أرادت .

ولقد أراد المجلس البريطاني ، وهو الهيئة التي أنشئت في السنوات العشر الأخيرة لتفشر الثقافة الإنجليزية ، أن يصدر كتاباً باللغة الإنجليزية من قلم مؤرخ معروف عن روح التاريخ الإنجليزي ، فكان كتاب الأستاذ

أن ينقلها إلى اللغة العربية . ونحن لا نوافق على هذه الطريقة ، بل نرى أنه ليس من حق المترجم أن يفعل ذلك ، وعليه أن يحترم الأصل ويضع التفسير الذي يراه في حاشية بسيطة في ذيل الصفحة .

الكتاب مليس . وحيداً لو أضاف المترجم القائمة المختصرة من الكتب التي يرجع إليها والموجودة في الكتاب نفسه . ولقد أشار المترجم في مقدمته بأنه فسر بعض المواضع التي ظن أنها تكون غامضة على القراء بدلاً من

مصر محمود

تُدرج: القوائم في السودان للأستاذ محمد أحمد محمود (مطبعة مدني) (الخبي)

بالمؤلف ؛ لأنه كل ما بلغت إليه من المعرفة بالمؤلف ؛ وقد كنت في غنى عن ذكر ذلك لولا أن له هو أيضاً دلالة على موضوع الكتاب ! أما موضوع الكتاب فهو الحكومة المحلية في السودان كما يدل عليه عنوانه ، وقد بدأ المؤلف بمقدمة يقول في فاتها :

« إن الاهتمام بشئون الحكومة المحلية في السودان في السنوات الأخيرة ، وصدور القوانين واللوائح الخاصة بتنظيم عمل الحكومة المحلية وسلطاتها وأجياتها ، وإنشاء المجالس ذات الصيغة التمثيلية والسلطات التنفيذية ، جعلت اهتمام الناس بأمر الحكم « الذاتي » المحلي يتزايد يوماً بعد يوم » .

ويعنى في مقدمته ذاكرة الدواضع التي حدثته إلى تأليف هذا الكتاب ، ونهجه في البحث ، وطريقته في تناول الموضوع ، ثم يقول :

« إنه عمل متواضع أقدم به كلية في أساس نهضتنا القومية وجهادنا في سبيل ترقية بلادنا ونيل استقلالنا كشعب يحكم نفسه بنفسه . . . وإني لأتمنى مخلصاً أن يحفل به أساء مصر حكومة وشعباً وأن يوليه إخواننا في الشرق العربي عنايتهم . . . »

فاذا فرغ المؤلف من مقدمته مضى في بحثه فوصف البلاد وسكانها ، ثم استعرض تاريخها

هذا كتاب وضع في سنة ١٩٤٤ ، وطبع في سنة ١٩٤٥ ، وأتى إلى في سنة ١٩٤٦ ، وإنما ذكرت هذه التواريخ المتعاقبة لما لها من الدلالة في مثل الموضوع الذي يماله هذا الكتاب ، وهو موضوع يشغل بال المصريين والسودانيين على السواء في الوقت الحاضر ، بل لعله الموضوع الأول الذي يشغل بال المصريين والسودانيين في الوقت الحاضر ؛ لأنه يتناول طرفاً مهماً من قضية السودان التي تدور بشأنها المفاوضة في الوقت الحاضر بين مصر وبريطانيا ، أو التي تأمل أن تدور بشأنها المفاوضة ؛ فهو إذن كتاب يطهر في أوانه ، لأنه يلقي ضوءاً على بعض الحقائق ، أو بعض الأباطيل ، التي ينبغي أن يلم بها للمفاوضين المصريين ، أو المصريون عامة ، حين تتناول مباحثهم نظام الحكم في السودان إن قدر لهذا الموضوع أن يكون موضع البحث والمفاوضات في هذا الأوان !

أما مؤلف هذا الكتاب فهو سوداني فيما يبدو ، وأحسبه من أهل الجنوب ، عرفت ذلك من طريقته في عرض الموضوع ، وأسلوبه في البحث ، ونهجه في الاستدلال ؛ وثمة ستناح آخر وملت إليه من طريقته وأسده به ونهجه ، هو أن مؤلف ذلك الكتاب موظف في حكومة السودان . . . وحسبي هذا تعريفاً

فيها المؤلف لشيء من حديث السياسة العليا
يقول صريح ، وإن لم يفصل عن الإيجاء
والتمليح والاستخفاء في كثير من المواضع
وراء الضباب ، وهو مسلك لعل له ما يفسره
من موظف في حكومة السودان الانجليزية ...
المصري ! وفي الوقت الحاضر !
ولكنه على كل حال كتاب في أوانه .

وتطور نظام الحكم فيها ، ثم انتقل إلى نظام
الحكومة المحلية في السودان ، وعقد فصلا
للتعريف بنظام الحكومة المحلية في إنجلترا ،
وقارن بينه وبين النظم المحلية في بلاد أخرى ،
ثم عرض صورة للحكومة المحلية في السودان
كما يود أن تكون ...
تلك هي خلاصة مباحث الكتاب .

بين العلم والادب للأستاذ قدرى حافظ طوقان (المطبعة التجارية بالقديس)

غاياتها وما تنهى إليه . فن أين يبلغ الأدب
منزله في التعبير عن صور الحياة إذا لم يتس
من العلم أسبابه للنفاذ إلى عليها والاستشراف
في غايتها القريبة أو البعيدة ؟
وما كان توهم الخلاف بين العلم والأدب
نتيجة لتلك الكتب الأعجمية التي يرميها بعض
الباحثين في العلم في لغة لا يكاد يسيغها من
القراء غير أهل التخصص المنقطعين لغتها ، بل
لا يكاد يسيغها المتخصصون المنقطعون لغتها إلا
لأن عدمهم من مقدمات العلم ما يتيح لهم أن
« أن يستنجوا » ما يريد كاتبها أن يقول ؛
ثم نتيجة لبس الكتابات الأدبية التي كان
يلتزمها كتاب العربية في حيل مضى وبصرفون
همهم في إنشائها وتجيدها إلى الصنعة بصقل
اللفظ ورنين المقاطع ومحسنات البدع ،
لا شيء وراء هذه الموسيقى وذلك الرنين وتلك
الزخارف مما يصح أن يسمى أدبا . من تلك
الكتب الأعجمية لبعض الباحثين في العلم ، ومن
هذه الكتابات التي لا تصور حياة ولا تصف
حقيقة ولا تنفذ إلى أعماق نفس إنسان .
نشأ توهم الخلاف بين العلم والأدب وليس
ثمة خلاف .

ومعذرة إلى القارئ ، فليقل قد بدت
عما قصدت إليه حين همت أن أعرض هذا
الكتاب ، ولكن في بعض ما قدمت من بيان

جمع إلى عنوان هذا الكتاب اسم مؤلفه
تعرف موضوعه ؛ فهذا الكتاب عنوانه
« بين العلم والأدب » ومؤلفه هو الأستاذ
قدرى حافظ طوقان ، وهو أديب من أديبنا
القلائل الذين جموا بين العلم والأدب ، فكان
إتاجهم الأدبي بابا من أبواب العلم ، وكانت
مباحثهم العلمية فنا من فنون الأدب ؛ وما أقل
أهل البيان في العلماء ، وأقل منهم الذين يمتون
بالعلم ويتسقون نظرياته من أهل الأدب !
هل كان ذلك لأن بين العلم والأدب عداوة
فلا يجتمعان ؟ فكيف كان في الأمة العربية
أمثال الخوارزمي ، والبيروني ، وابن سينا ،
وابن الهيثم ، أهل العلم وذوى البيان ؟
وكيف كان فيهم من مشاهير هذا العصر
أمثال فلان وفلان وقدرى حافظ طوقان ؟
وهذا الكتاب الذي تعرضه اليوم هو
برهان جديد على أن العلم والأدب قد يلتقيان
فيكون كل منهما عامما لصاحبه وزينة له وزيادة
في مناه . بل هو برهان — إلى براهين
كثيرين — على أن العالم الذي لا يحسن البيان
لبس حقيقا بصفته بين أهل العلم ، وعلى أن
الأديب الذي لم يأخذ بمحطه من العلم هو أديب
ناقص الأداة فارغ المعنى سطحي التفكير ؛ فقد
تقلل العلم اليوم في كل ناحية من نواحي
الحياة وكشف عن غلها المستورة وأبان من

ونشرها في مناسباتها في مجلات مصر والشام
أو أذاعها من محطة الشرق الأدنى ثم جمعها
بين دفقي هذا الكتاب .
هو كتاب قديم إذ لم يخرج له المطبعة
إلا منذ بضعة أشهر ، ولكنه بطرأة
موضوعاته وأسلوب كتابه سيظل جديداً في
يد كل قارئ من قرائه في كل بلد من بلاد
العربية التي عرفت كتابه الأديب العالم .

العلاقة بين العلم والأدب ما قد يشغى عن
التعريف بكتاب الأستاذ طوقان ، فما هو
إلا فصل من ذلك الباب ، وعنوان من ذلك
الكتاب .

وضع وثلاثون مقالة أنشأها كاتبها في
فترات متباعدة بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٤٥
تناول فيها بعض مباحث العلم بأسلوب الأديب
وعقل العالم مع سلامة اللغة ودقة التعبير ،

عصر المنصور الموحدي للأستاذ محمد الرشيد مليس (منظمة تجمعية بالمغرب)

ابن رشد ، وكان عصره من العصور الذهبية
في المغرب والأندلس .
وقد قسم المؤلف كتابه بعد المقدمة ثلاثة
أقسام :

القسم الأول : الحياة السياسية ، وفيه خمسة
فصول ، يسطر فيها المؤلف حروب المنصور
وفتوحه في المغرب وفي أسبانيا .

والقسم الثاني : الحياة الفكرية ، وفيه
أربعة فصول ، يسطر فيها بعض مظاهر الثقافة
في عصر المنصور ، وتحدث عن اللغة والنحو
والأدب ، والشعر والشراء ، والعلم والعلماء
في ذلك العصر .

القسم الثالث : الحياة الدينية .
ثم ألق بذلك خاتمة في بعض صفحات تصور
آخر حياة المنصور .

وقد عني المؤلف بذكر مصادر بحثه ، كما
أثبت في آخره طائفة من الفهارس الوافية
لموضوعات والأعلام وأسماء المدن ، وجاء أيضاً
بحاجة كل قارئ يريد أن يقف على تاريخ
هذه الحقبة من تاريخ المغرب في العديتين .
وأسلوب المؤلف أدبي وشيق يجمع قارئه
ويشوقه ، ولفته سائفة عذبة لا يكاد القارئ
يشعر معها بمرور الزمن .

هذا الكتاب — كما يقول مبدية —
هو أحد المؤلفات التي أخرجتها المطبعة المغربية
في هذه السنة ، وهو أثر من آثار النشاط
الفكري بالمغرب . وفي المغرب اليوم نشاط
فكري يراه بتشجيعه وعنايته صاحب الجلالة
السلطان محمد بن يوسف ، وفي مطبعته المحمدية
أذن جلالاته بطبع هذا الكتاب ، وعن دار
التأليف والنشر السلطانية كانت إذاعته .

وهو حلقة أولى من سلسلة بحوث يقصد
منها إطلاع شباب البلاد العربية على المستوى
الناثق الذي بلته المدينة بالمغرب في عصوره
الذهبية ، متدرجة مع التاريخ حتى تبلغ عصر
السلطان محمد بن يوسف الجالس على عرش
لمغرب اليوم .

أما مؤلف هذا الكتاب فهو الأستاذ محمد
الرشيد مليس مدير المطبعة المحمدية السلطانية .
وأما موضوعه فهو عصر المنصور يعقوب بن
عبد المؤمن سلطان الموحدين بالمغرب والأندلس .
وقد تولى المنصور عرش الموحدين بعد أبيه
يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٥ هـ الهجرية ،
ونزل عن العرش طائفاً لولده محمد الناصر سنة
٥٩٥ هـ وسنة يومئذ ٤٨ سنة فاقطع لمد
ودراسة الفلسفة وصاحبه يومئذ الفيلسوف

مصادر البحث ومقيم في جوه و فلا عجب ان يكون كتابه — كما أراه — شيئاً جديداً من تاريخ تلك البلاد ينبغي أن يعرفه كل عربي .

على أن أحسن ما ينبغي أن أتوه به حين أذكر هذا الكتاب ، هو دقة المؤلف في البحث وحرصه على التحري ، وهو إلى ذلك مفرى يؤرخ حقه من تاريخ بلاده ، فهو قريب من

هزرات الشياطين للأستاذ عبد الحميد جودة السحار (مطبعة مكتبة مصر)

امرأة مسولت له منه . سولت حتى أركلت .
هـ . إلى الندم والتوبة .

والقصة الثانية عنوانها « على القبر » وفيها يصف كيف يتقلب الشيطان على عوامل الموعظة والنبوة فينفذ إلى سرائر المشيعين يداعب أمانتهم ويوقظ شهواتهم وواعظ الموت لا يزال مانلاً أمام أعينهم !

وعلى هذا النسق ترى صوراً شتى من هزرات الشياطين في كل ما قرأ من الأقاصيص في ذلك الكتاب ، وعدتها اثنتا عشرة أقصوصة .

وقد يحس القارئ في بعض ما يقرأ من هذه الأقاصيص أن المؤلف قد أسرف في التحليل إسرافاً فيه بعض المبالاة ، وبالغ في وصف بعض البديهييات مبالغة لم تكن إليه حاجة ، ولكن ذلك لا يصرف القارئ عن متابعة الموضوع بشوق ولذة .

وقد يحاول بعض القراء أن يحاول تطبيق ما قرأ في صدر الكتاب عن فن القصة على ما يطالع بعد ذلك من أقاصيص المؤلف « لا تستقيم له القاعدة ولا يستبين سبيل القياس » ولكن ذلك لا ينقص كثيراً من قيمة البحث الذي صدر به المؤلف كتابه ، ولا ينقص من قدره كقاص يحاول فناً من فنون الأدب لا يتحصر دائماً للقواعد الموضوعية ولا يتقيد بالتقاليد

هذا كتاب قصص ، أو هو كتاب في القصة ، فن شاء طبعه لونا من ألوان الانشاء الأدبي يستمتع بما ساق مؤلفه من أقاصيص شائقة ليست بعيدة مما نراه حولنا من صور الحياة أو نحس في ذات أنفسنا من صور العاطفة ، ومن شاء ، يسجده كتاباً يعرف فيه من أوليات فن القصة ما يريد أن يعرف . ليكون قاصاً يلتزم القاعدة في هذا الفن كما يريد ما مؤلف هذا الكتاب ، أو ليكون نافداً يزن ما يقرأ من قصص المؤلفين بعزائه . فقد صدر المؤلف كتابه يبحث مبسوط

جعل عنوانه « بين الرواية والأقصوصة » تحدث فيه عن معنى الرواية في اعتبار أهل ذلك الفن ، والشروط التي يرى أن تتوافر فيها ، ومراحلها من حيث تبدأ إلى حيث تنتهي ، ثم عن الفرق بينها وبين الأقصوصة ، وغير ذلك مما قد يحتاج إليه القاص ، أو الناقد .

ثم أردف هذا البحث بطائفة من الأقاصيص لعله كان موفقاً حين اختار أن يكون عنوانها على الجملة « هزرات الشياطين » فكلمتها تصوير لبعض ما يصطرع في عواطف الناس من توارع الخير والشر وما يتجاذبهم من دواعي الهوى وعوامل الفضيلة . فالقصة الأولى وعنوانها « وسوسة الشيطان » تصور شاباً قد نشأ على الخير والفضيلة ، ثم بدت في حياته

في مجلات الشرق

بركة الوالدين !

عمارها ، وعرض الأوسمة التي نالها ، وانتظار
الأهل ! وهو بالحقيقة ميت لم يدفن بعد ،
جميع حياته وراءه وليس أمامه إلا القبر . فعلى
الشباب العربي أن يولي وجهه نحو المستقبل .
وأن يبعد اليه على أن يكون مستقبل العرب
خيراً من ماضيهم ، وإذا افتضت الحال أن
يخرج على الجيل القديم في بلده فليقبل ؛
لأن بركة الأجيال القادمة خير من بركة
الوالدين . . . »

في عدد مايو الماضي من مجلة « الأدب »
— بيروت — مقال بقلم الدكتور نبيه أمين
فارس عنوانه « رسالة الشباب العربي »
يقول فيه :
« يعيش الشباب العربي اليوم في بيئة تعودت
النظر إلى الماضي والتغني به دون أن يستفيد
من وحي التاريخ شيئاً . وهو أشبه بمجندي
تجاوز السن فأحيل إلى التقاعد : لا عمل له
سوى التحدث عن المعارك الحربية التي خاض

تعريب الآداب العربي !

يشب على عقيدة عربية واسعة . ومن واجبنا
أن نهيب للنشء الجديد رواية من طينة
عربية . وإلا كنت ساء وراء الترجمة والنقل
يعنون بالرواية العربية ، لاسيما تلك التي تلسج
لحنها من حياة العرب في هذا العصر . وتاريخ
العرب قديمه وحديثه مفعم بالوحي والالهام ،
يلتظرون مصطفى من أرباب الأقلام ليحطّم
الاصنام ، ويحرر أدب قومه من ربة الأجانب
وتفكير الأنعام ! »

ويعفى الدكتور نبيه في مقاله ذلك عن
رسالة الشباب العربي حتى ينتهي إلى أنه
يقول :
« لقد حان الوقت لتعريب أدبنا ولإنشاء
رواية عربية حديثة منبعثة من الحياة العربية ،
ولن نرضى بعد الآن بماجدولين وسيرانو دي
برجراك والبنوساء وغيرها من روايات
الأجانب . ومن الصعب أن نرتجى من نشء
لم يتعرّض إلا على مثل هذه الروايات أن

كيف يكتب أندريه جيد . . .

أسرة مجلة « الأدب الجديد » الناشئة في
بيروت أن يوصف لقراءها طريقته في
الكتابة .

زار الإديب الفرنسي الكبير أندريه جيد
لبنان ، فاحتفت به الأوساط الأدبية تقديراً
لمكانته في الأدب العالمي . وقد طلبت إليه

فكتب إليها يقول :
 « هذا لو تبسط فكرتي ...
 « أبقى في غرفتي دون أن أعمل شيئاً
 وودى أن أعمل كل شيء ...
 « أملك عشرين كتاباً ابتدأت في مطالعتها
 جميعاً وما انتهت من أحدها . أنظر ثلاثة
 أسطر ثم أفكر ...
 « في غرفتي سرير واطىء وطاولة صغيرة
 مريحة وكريسي ...
 « أنجس نائماً ، وأولف ماشياً ، ثم
 أكتب واقفاً ، وأنتل ما كتبت في أوراق
 جالساً ...
 « الخيال عندي لا يستبق الفكرة فهو
 بدون لا يمضي شيئاً ، بينما الفكرة هي كل
 شيء ... وكثيراً ما تأخر تلك الفكرة
 فطيناً حينئذ أن تمسك بالصبر اللاتهاى ،
 لأنه يجب ألا تنزعها انتزاعاً بل ندعها تأتى
 مختارة ...
 « فالفكرة المنضلة تأتى عند منسحق غير ...
 « في بعض الأحيان أنتظر بمجيئها ساعة ،
 فان تخلصت أكون قد أضمت ساعة من الزمن .
 « الأشياء القائمة بالجمال هي التي يوحها
 الجنون ويكتبها العقل .
 « يجب البقاء بين الاثنين : قريين من
 الجنوب عند ما نحرم ، ومن العقل عند
 ما نكتب . »

روحية اشرق ...

ويتحدث الدكتور قسطنطين ذريق عن
 « علل التنظيم » في الجزء السابع من السنة
 الثانية لمجلة « عالم الغد » التي تصدر في بغداد
 فيجعل أول عوامل التنظيم في الانسان هو
 العقل ، ولكن الشخصية الانسانية ليست
 عقلاً كلياً ، بل إنها تنضم إلى جانب العقل
 عنصراً آخر ليس في جوهره منظماً وإنما هو
 الذي يولد الدافع للتنظيم . هذا العنصر الذي
 يسمونه « الروح » . وحين ينتهي الكاتب من
 تحديد هذين العنصرين من عناصر التنظيم يقول :
 « وقد يخطر لبعض أننا إذا كنا في مجتمعنا
 العربي مقصرين في العنصر العقلي من العنصرين
 الانسانيين اللذين يخلقان التنظيم ، فليست
 الحال كذلك فيما يختص بالعنصر الثاني ، أي
 الروح ، كيف لا وقد اعتدنا أن نصف
 أنفسنا كعرب أو كعسكريين بأننا أغنياء
 بالقيم الروحية ، وأن تقابل روحيتنا هذه
 بمادية الغرب . على أننا لهذا أنعمنا النظر
 وتفحصنا حالنا الحاضرة باخلاص وتجرد لم
 نستطع أن نعرف لماذا بدأ العمل ...
 عرف أجدادنا الروحية العميقة . ونشأ
 بما نعت بهم من قوى ساء شامخاً وحضرة
 مجيدة . أما اليوم ذلك لم نجد لهدهده
 مينا أنراً بقي تستطيع الوقوف عنده ...
 نراها بالعكس غرق في خضم من المادية وسع
 عميق ، وفي نوع من العيش الفردي والتعامل
 الاجتماعي هو أبعد ما يكون عن خلوص الروح
 وتقواة النفس . وأعظم دليل على ما أقول
 تأخرنا الشائن في شتى الميادين ، هذا التأخر
 الذي ما كان ليطو علينا ويمنعنا عن كل
 حيوية منتجة لو أننا نعمنا بنعمة الروح
 واهتدينا بقيمتها الوضاء . فلننضم إذن ،
 ولنسع إلى أن تنمى في نفوسنا الخلق الكرمي
 والجيد ، وتقدير للمسئولية ، وسواها من
 الصفات الروحية ، التي بدونها لا يكون أي
 تنظيم ، بل لا يكون أي خلق . إذ ما التنظيم
 في النهاية سوى نوع من الخلق وشكل من
 الاداء . »

السعادة فن

كل منها وردة جملة على غصن شجرة صغيرة
فيهم أحدهما ليقطفها فيغزوه شوكها ،
فيقول : ما أقى الدنيا وما أفسها حق
الورد قد أخط بالشوك فلا نستمتع به ! وأما
الثاني فيقول : لله در الحياة ! ما أهيها
وأحلاها ، لحن الشوك قد وضع بينه
الورد !

« وقد روى أن أحدهم مر بكلب ملق في
الطريق رث الهيئة قبيح الشكل ، وكان جميع
للارة يشتمون منه ، فنظر إليه وقال :
ما أشد يأس أستانه ! »

وفي العدد الثاني من مجلة « البطحاء »
البندادية يحاول الأستاذ دانيال يوسف أن
يتحدث عن « السعادة والحياة » فيسأل
أين يجد الإنسان السعادة ؟ ولكنه قبل أن
يجد جواب سؤاله يعود فيسأل : ما هي السعادة
فيها ؟ ويتردد بين السؤالين في حيرة ينتهي
بها إلى أن يقول : « السعادة فن : ليست
السعادة فينا نملكه ، أو ما نرى ، أو ما يحيط
بنا ، وإنما هي في كيف نحسن استعمال
ما نملكه ، ونحسن بالجمال فيما نرى ، ونحظى
بما يحيط بنا ، فقد يدخل أثنان حديقة ويرى

بين جيلين

للناجح ، يتعلمون ليحملوا شهادات لا يلبسوا
مراغا ستكره الباقية للمناضلة حتى الساعة ، ولولا
هم لخلت الساحة . يتعلم هؤلاء الناشئون
ليجعلوا من شهاداتهم مفاتيح لأبواب
« الدراي » لا أسواراً تحمي ثقافتنا وتنمينا
فإذا يجل بناء في خلج الجبهة من الأبطال ؟
إن الفن قائم الإعماق حاوي المحرق : للشائل
خالية من الفرسات التي يدها البستان لتلج
حل الشجرات التي تنقرض ! »

ويعض الكاتب فيها يصف من إنتاج أدباء
الجيلين ، وفي المجاعة الأدبية التي يتوقع أن
تحل ببلدان ، ثم ينشئ حواراً لطيفاً بينه وبين
« الكلمة » التي بنا بها موضوعها في كلام
أولئك الأدباء ، فلا هم وضموها حيث أرادت
اللفة أن تبين عن معناها صريحاً ولا هي
كشفت عما يريدون لها من معنى يقتسرونها
على أدائه .

ويصيب الأديب مارون عبود في عدد ٣٠
أريل من مجلة « الطريق » — بيروت —
على الأدباء الشيوخ في لبنان جودهم بمد
شباط وقصورهم بمد حراوة ، ويصيب على
أدباء الشباب ثمة عجزهم وضف أداتهم وعدم
إحسانهم استعمال « الكلمة » في موضعها من
لكلام ، فيقول :

« إننا لقبول على سنوات مجاف ، على
فعل وجذب أدبيين ، فالخارجون القدماء ألقوا
سلاحهم ، والنازلون إلى الساحة في أيديهم
محاربين لاعبين : ألفاظ معدودات ملمومات
من هنا وهناك رزون كل الشعر فيها ، تماير
والألفاظ لا تتجاوز حبات اللبسة ، وهم
يسارون بها مستخبرين آلهة الشعر ، والفن
لا يقوم على الخبرة ... »

« أما الجيل الطامع — رجال اليوم
وغد — فيتخبطون هم وأساتذتهم في ظلمات

الآبوة حرفة !

يت أن مدرس من له لم يشاء . .
« وفي ليل اعلمني يعني لأظنه حبر
العامة ، وما الضمير إلا محاور صغير
يمكن استقله أن يصبح أو يشوه تما الحروب
العامة التي تلحقها صغيرا . وقد نجح الأمر
أخذه من المدرسة . ولكن لا يفهم شيئا
من حرفة عن علم العامة بظن .

« بحماسة حرفة . ولط حرفة . ولز
أحدث هو أن الآبوة أو لأمومة حرفة
يحد . الأميات المعصريات استهيات يدرس
حرفتين ، والآباء المعصريون الأذكي
يدرسون حرفتهم . وإن الحجلات لتنتشر ،
والجليات لتؤسس ليزداد الوالدان عدا
بصناعتها ، وبهذه الصورة ينساب العلم إلى
اليوت بلا انقطاع . . . »

وفي عدد أبريل من مجلة « العلم الجديد »
التي تصدرها وزارة المعارف العراقية بحث
لأستاذ سيلي Seelye ترجمة الأستاذ محمد
عريز ، يتحدث فيه عن « سياسة الطفل في
منسك البيت » وعن « تشجيع اللعب »
و « المكافأة والعقاب » و « عوامل الافساد »
و « تعويد الصدق » و « التدريب على
الاستقلال » فيقول عما يسميه « البيت
العلمي » :

« من أشد الأمان اقتارا إلى مثل هذا
العلم هو البيت ، فقيه الرجال والنساء ، وفيه
الكبار والصغار ، وينبغي لهؤلاء جميعاً أن
يتعلموا كيف يعيشون معا في هناء وتعاون .
ونكسر من البيت لا ينتفع بالعلم في هذا
الشأن . حتى حين أن من الميسور لكل

دراسات عن المسرح العربي

وزارة المعارف المصرية بين سني ١٩٢٥ .
١٩٣٢ قد جمعت بحمد . من ذلك
القطعة المسرحية التي فازت بالجائزة الأولى من
الوزارة سنة ١٩٣٢ وهي مسرحية « . . . »
تأليف رشاد حافظ . قد رفض تمثيلها .
مديرى الفرق التمثيلية ، والمؤلفون الذين
ظفروا بالجوائز الثانية لم يكونوا أسما
حظا . . . »

ويتحدث الكاتب عن معهد التمثيل الذي
أنشأته وزارة المعارف في وقت ما ثم أغلقه
حلمي عيسى « شأ لا اعتبارات تتصل بالتقاليد .
وهو بحث متع طريف فيه رواية المؤرخ
ورأى الباحث المدقق .

توالى مجلة « الثريا » التي تصدر في تونس
« دراسات عن المسرح العربي » بقلم الأديب
التونسي الأستاذ عثمان الكماك . وفي عدد
فبراير من هذه المجلة يتحدث الأستاذ الكماك
عن تاريخ المسرح المصري الحديث وعن
تمثيلات المؤلفين المصريين والفائزين على فن
التمثيل في مصر ، فيتحدث عن المرحوم محمد
نيمور ، وعن جورج أبيض ، وركى طلبات
وروايات شوقي ، ومسرحيات توفيق الحكيم
ومترجمات خليل مطران ، وعاميات إبراهيم
رمزي ، كما يتحدث عن مجهود وزارة المعارف
للمصرية فيقول :

« إن مياريات القطع التمثيلية التي نظمتها

حكايات فارسية

كتاب يحمل الى قراء العبرية
عبيرا رقيقا حسن الموقع في
النفس من هذه الحياة الفارسية
المتأززة بما فيها من رقة
وفطنة وفكاهة



من حولنا

جميل منه الناس في أفراسهم والآدم ،
يرى كل قارئ في مرآة صورة منه نفسه ،
أو صورة منه هو له ، في إطار قصص
رائع في بيانه وفي فنته

حكايات فارسية



٢٠

البريد ١٦ مليما

من حولنا



دار الكتب المصرية



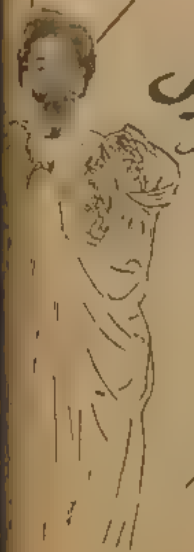
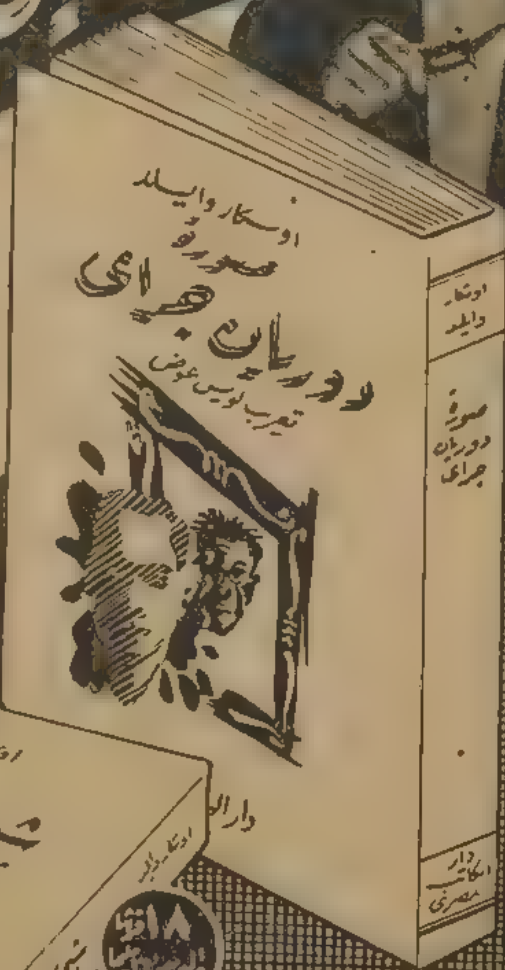
٢٥

البريد ٢٠ مليما

آية فنية خالدة للكاتب الشهير أوسكار وايلد



صراع بين لاقم والشهيد
صورة تهريم بيننا صاحبها
مكتفلة بشابه
نقد للحياة الانسانية الانجليزية
في مزاج من الزهراء والجد



فيهم آخر لفن اوسكار وايلد

مقارن شبح يحول في ابحار فخر عيش
موازنة بين العقل الانجليزية
المحافظ والعقل الامريكي المبتدع
قصه فطالعية مرحة



كتابات مزنيان
بصور مختارة
منسقة الفندم
م.ج.م

هل تومد الروح؟
وكم ترف؟..
هل يمكن الاحتفاظ بها؟
وقد يمكنك أن تخرج
بعد الموت روحاً كانت
موتافين أثناء الحياة؟



اندرية موروا
عصو لجميع القوى القوي

وازن الارواح

تقريب عبد الحليم محسن



غلام اقرب الى
العبادة في
عصر الصليبيين
البواسل

موريس يارس
عصو لجميع القوى القوي

جنت على نهر القاصي

تقريب
لورانس البرقعة وعبد الحليم محسن





ليون دوديه

كايخو وحياة العاصفة

تقريب حسن محمود

طبعة فريضة بالصور
وصفحة ملونة تبين كيف كان لهذا الزعيم بعد فطبه

٣٥
والبريد ٢٤



Une traduction de mes
livres en votre langue
à quels lecteurs pourra-
elle s'adresser ?

André Gide

ترجمه کتبى الى لغتكم ؟ .. الى اى قارى
عليه ان نساوه ؟ رأى الرعبان عليك انه تبلى ؟
ذلك ان واحدة من الصفات الجوهريه فى العلم
المسلم نفاذ الى ، انه هو الانسانى الذى يحمل
من افقيه اكثر مما يشيرون منظره . انظر انا ؟

اندرىه جيد

اجهدوا للدخول من
الباب الضيق
(انجيل لوقا : ١٣ - ٢٤)

اندرىه جيد

الباب الضيق

ترجمه
نزيه الحكيم

ترجمه لاندريه جيد وطم حسين

لم تخطر انك ، وانما
دفعك الى الخطا . لقد طاعة
كثيرا الله المسليمه ولكنك لم تحاط
الاسلام ... فلو قد تعمقوا
الدين تعمقا دقيقا لظهر ذلك
على ما يشير القرآن من مسائل وما
يعرض لها من جواب .

طه حسين

١٨ قرشا والبريد ١٢ مليا





قصص من الأدب الروى الرفيع



قصة ساذجة
تصور قلب شاب ناستي
يتفتح الى الحب في غير اية اوط
ولا تحفظ وما يصيبه منه بأس
منها يعلم انه كان يحب عتيقة أكبر

المتن ١٥

البريد ١٢ ملها

قصة شاب ممتحن
براد القمار لقي من هذا
الدار في مياته مشاً عظيماً
وهي قصة عتيقة تشاء
بجاجة الفاعل الى الاستطردع

المتن ١٨

البريد ١٦ ملها

كتاب اميل لودفيج الخالد

نابليون

ترجمه عن الألمانية
محمود ابراهيم الدسوقي



يظهر قريبا



العقيدة في الشريعة في الأسانيد

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	عبد العزيز عبد الحق	علي حسن عبد القادر
المدرس بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر	المدرس بكلية الشريعة بجامعة الأزهر	دكتور في العلوم الإسلامية مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق بين الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعربين

كتاب ضخيم يقع في ٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ مليما)



VALEURS

CAHIERS TRIMESTRIELS DE CRITIQUE ET DE LITTÉRATURE
PUBLIÉS AVEC LA COLLABORATION DES ÉCRIVAINS DE FRANCE
ET DU PROCHE-ORIENT.

Directeur: ETIEMBLE.

SOMMAIRE DU CINQUIÈME CAHIER

GUSTAVE FLAUBERT
LETTRES INÉDITES OU AUTHENTIQUES A DU CAMP

JULES SUPERVIELLE
ÉLÉMENTS D'UNE POÉTIQUE

ALBERT CAMUS
LA PESTE BROUILLE LES CARTES

EDITH BOISSONAS
POÈMES

HENRI CALET
LE DIEU DES FLANDRES

JEAN GRENIER
LA POÉSIE DE L'ESPACE

NICOS ENGONOPOULOS
BOLIVAR
(traduit et présenté par Robert Levesque)

GEORGES SCHEHADE
MONSIEUR BOB'LE

N. BALADI, ETIEMBLE, E. FORTI, M.G.,
G. HENEIN, KARAM, H. EL KAYEM, E. SIMON.

EXPOSITION SALINAS,
REVUE DES LIVRES, NOTULES, LES REVUES,
BULLETIN.

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO DE MAI

- ANDRE GIDE Extrait d'une conférence.
TAHA HUSSEIN André Gide à travers son *Journal*.
BERNARD GUYON Réflexions sur l'art de Péguy (*à suivre*).
MAURICE BEDEL Les savants dans la guerre.
F. BENOIT L'amour sans Bandeau.
JEAN DUPERTUIS Ecrivains et leur Peuple: II. Maxime Gorki (*fin*).

CHRONIQUE DES LIVRES

Jean DUPERTUIS

تباع كتب
دار الكاتب المصري
في المكتبات الشهيرة

وإذا أردتم أن
تصلكم كتبنا

رأساً بالبريد فارسلوا إلى الدار ثمن
ما تختارون منها مع إضافة
أجرة البريد المحددة

عاشق
ایران

انطوان دی سانت اکسوپری

أرض البشر

تعريب مصطفى كامل فوده



التمن ۲۵ قرشاً
(البريد ۲۰ ملماً)



طبعة مزينة بالصور



في أرجاء العالم العربي